

المجلة الاجتماعية القومية

المجلد الثلاثون العدد الأول يناير ١٩٩٣

يصدرها

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

بالقاهرة

ISSN 0028-0026

المجلة الاجتماعية القومية

يصدرها

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

يد الزمالك – القاهر
رقم بريدى ١١٥٦١

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

قواعد النشر

١ – المجلة الاجتماعية القومية دورية ثلث سنوية (تصدر فى يناير ومايو وسبتمبر) تهتم بنشر مواد فى العلوم الاجتماعية .
٢ – يعتمد على رأى محكمين متخصصين فى تحديد صلاحية المادة للنشر .
٣ – تحتفظ المجلة بكافة حقوق النشر . ويلزم الحصول على موافقة كتابية قبل إعادة نشر مادة نشرت فيها .
٤ – يحسن ألا يتجاوز حجم المقال ٢٥ صفحة كوارتر مسافة مزدوجة . ويقدم مع المقال ملخص بلغة غير التى كتب بها ، فى حوالى صفحة.
٥ – يشار إلى الهوامش والمراجع فى المتن بأرقام . وترد قائمتها فى نهاية المقال ، لا فى أسفل الصفحة .

ثمن العدد والاشتراك

* ثمن العدد الواحد (فى مصر) ثلاثة جنيهات (وعشرة دولارات للخارج) .
* وتكون المراسلات على العنوان التالى :
المجلة الاجتماعية القومية ، نائب رئيس التحرير ،
المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، بريد الزمالك ، القاهرة ، مصر ،
رقم بريدى ١١٥٦١

رقم الإيداع ١٦٥

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

المجلة الاجتماعية القومية

المجلد الثلاثون — العدد الأول — يناير ١٩٩٣

المجلة الاجتماعية القومية
رقم الإيداع ١٦٥ / ١٩٩٣

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

استطلاع رأى الجمهور
فى الأحزاب والممارسة الحزبية*

سلوى العامرى**

يتناول هذا العرض تلخيصا للاستطلاع الذى أجراه قسم بحوث وقياسات الرأى العام ، عن رأى الجمهور العام فى الأحزاب والممارسة الحزبية . ويشمل هذا التلخيص عرضا للإجراءات المنهجية للاستطلاع من حيث تحديد العينة واختيارها ، ومراحل إعداد أداة الاستطلاع . ثم يتناول عرضا للنتائج من خلال محاور ثلاثة هى : معلومات الجمهور عن الأحزاب ومصادره فى ذلك ، المشاركة السياسية للجمهور وذلك بالنسبة لمستويات المشاركة المختلفة ، وأخيرا تقويم الجمهور للأحزاب والممارسة الحزبية .

موضوع الاستطلاع

يمثل هذا التقرير الجزء الثانى من استطلاع الرأى الذى أجراه قسم بحوث وقياسات الرأى عن الأحزاب والممارسة الحزبية . وقد تصدى القسم لدراسة هذا الموضوع بهدف استطلاع رأى المواطن المصرى - نخبة وجمهورا - فى الممارسة السياسية الراهنة فى ظل تعدد الأحزاب .

وقد تناول التقرير الأول رأى النخبة ، ويتناول التقرير الحالى رأى الجمهور فى ذات الموضوع ، ولكن بمعالجة مختلفة ، تتلاءم مع الفارق المفترض بين النخبة والجمهور .

وفى سبيل تحقيق الهدف من الاستطلاع ، وهو التعرف على رأى المواطن فى الأحزاب والممارسة الحزبية والقضايا المرتبطة بهما ، فقد سعى لذلك من

* موجز للتقرير الثانى لاستطلاع رأى المواطن فى الأحزاب والممارسة الحزبية .

** خبير (دكتوراه علم نفس) بقسم بحوث وقياسات الرأى العام ، بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، والمشرف على الاستطلاع .

المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الثلاثون ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٣ .

خلال ثلاثة أبعاد هى :

البعد المعرفى : ويقصد به استكشاف معلومات المواطن وحجمها فيما يتعلق بالموضوع ، كمعرفته بالأحزاب الموجودة على الساحة والصحف الصادرة عنها وبرامجها . حيث إن أى استطلاع للرأى يتطلب توافر حد أدنى من المعلومات حول موضوع الاستطلاع حتى يمكن للفرد إبداء الرأى فيه .

البعد الثانى : يتعلق بالمشاركة السياسية للجمهور ، وذلك من خلال أربعة مستويات : أولها الاهتمام بالحياة السياسية ، ثم المشاركة بالتصويت فى الانتخابات ، فالمشاركة من خلال الترشيح فى الانتخابات ، وأخيرا المشاركة من خلال عضوية الأحزاب والمجالس النيابية .

البعد الثالث : خاص بتقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب من حيث ماتقدمه ، ومايجب عليها أن تقوم به ، والمشاكل التى يجب أن تسعى لحلها ، وتقييم دور مجلسى الشعب والشورى .

وقبل تناول هذه الأبعاد الثلاثة بشئ من التفصيل ، نعرض للإجراءات المنهجية للاستطلاع .

الإجراءات المنهجية للاستطلاع

يتناول هذا الجزء الإجراءات المنهجية للاستطلاع ، وذلك من حيث تحديد العينة ، وأسلوب اختيارها ، ومراحل إعداد أداة الاستطلاع حتى أصبحت صالحة للتطبيق، وظروف العمل الميدانى والصعوبات التى واجهها .

تحديد العينة واختيارها

فى ضوء الهدف من البحث ، كان لابد من اختيار عينة ممثلة للمواطنين ، وقد اعتمد فى ذلك على العينة الأم التى قام الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء بإعدادها ، وتم تحديث بياناتها فى عام ١٩٨٩ . وفى داخل إطار هذه العينة سحبت العينة المستخدمة على عدة مراحل .

المرحلة الأولى : تحديد المحافظات المختارة من إجمالى محافظات الجمهورية ، وقد تم اختيارها على أساس جغرافى ، وهذه المحافظات هى :القاهرة والإسكندرية والغربية والجيزة وبنى سويف .

المرحلة الثانية : تحديد الشياخات والقرى داخل المحافظات محل الدراسة ، وروعى فى اختيار الشياخات والقرى أن تمثل نسبة التعليم المستويات الثلاثة

المحددة فى العينة الأم ، وهى مستوى تعليم مرتفع ومتوسط ومنخفض .

المرحلة الثالثة : حددت فيها وحدة المعاينة بالفرد فى الأسرة المعيشية ، وقد تم اختيار ٤٠ أسرة معيشية داخل كل شياخة أو قرية مختارة ، وذلك باستخدام الطريقة العشوائية المنتظمة البسيطة .

المرحلة الرابعة : تم فيها اختيار مفردات العينة من داخل الأسرة ، وفى هذه المرحلة تم رصد أسماء أفراد الأسرة البالغين من سن ١٨ سنة فأكثر ، وذلك فى كشوف مستقلة ، واختيرت منها عينة منتظمة ، وقد بلغ إجمالى عدد أفراد العينة ١٣٧٨ مفردة .

وصف العينة

نتناول فى هذا الجزء بعض السمات التفصيلية للعينة ، وذلك من حيث توزيعها على المحافظات المختارة ، ومن حيث السن والنوع والمؤهل التعليمى والمهنة .

١ - توزيع العينة على المحافظات

المحافظات	ريف		حضر		المجموع	
	ك	٪	ك	٪	ك	٪
القاهرة	-	-	٣٤٨	٢٥ر٢	٣٤٨	٢٥ر٢
الاسكندرية	-	-	١٢٩	٩ر٣	١٢٩	٩ر٣
الجيزة	٢٢٧	١٦ر٤	١٠٢	٧ر٥	٣٢٩	٢٣ر٩
بنى سويف	١٦٤	١١ر٩	١٢٢	٨ر٩	٢٨٦	٢٠ر٨
الغربية	١٦٥	١١ر٩	١٢١	٨ر٩	٢٨٦	٢٠ر٨
العينة الكلية	٥٥٦	-	٨٢٢	-	١٣٧٨	١٠٠ر٠

يتبين من هذا الجدول أن ربع العينة (٢ر٢٥٪) من سكان القاهرة ، يليها مباشرة الجيزة (٩ر٢٣٪) ثم بنى سويف والغربية (٨ر٢٠٪) لكل منهما ، وأخيرا محافظة الاسكندرية (٣ر٩٪) . وتزيد نسبة أفراد العينة من الريف فى كل محافظات الأقاليم ، فهى تمثل فى الجيزة ٦٩٪ من عينة الجيزة ، بنى سويف ٣ر٥٧٪ ، والغربية ٧ر٥٧٪ كما تشكل ٦١٪ من إجمالى العينة فى المحافظات الثلاث ، ولكنها تصل إلى ٣ر٤٠ ٪ بالنسبة للعينة الكلية .

٢ – توزيع العينة وفقا للسن

فئات السن	ك	٪
١٨ –	١٠٢	٤ر٧
٢٠ –	٣٩٦	٨ر٢٨
٣٠ –	٢١٦	٩ر٢٢
٤٠ –	٢٣٧	٢ر١٧
٥٠ –	١٨٤	٣ر١٣
٦٠ –	١٠٣	٥ر٧
٧٠ سنة فاكثر	٤٠	٩ر٢
المجموع	١٣٧٨	٠ر١٠٠

يلاحظ من هذا الجدول أن ٧ر٥١٪ من العينة تقع أعمارهم فى الفئتين العمريتين (من ٢٠ حتى ٤٠ سنة) ، وهذه المرحلة يفترض فيها أنها تتسم بالحركة والنشاط والعمل المنتج ، فهل انعكست هذه الخاصية على المشاركة السياسية ؟ هذا ماسوف يتضح من تحليل نتائج الاستطلاع ، وتقل النسب كلما زاد العمر حتى تصل إلى أدناها بالنسبة لمن بلغوا سبعين سنة على الأقل (٩ر٢٪) .

٣ – توزيع العينة وفقا للنوع

النـــــوع	ك	٪
ذكـــــر	٧٥٥	٨ر٥٤
أنثـــــى	٦٢٣	٢ر٤٥
المجمـوع	١٣٧٨	٠ر١٠٠

يلاحظ من هذا الجدول أن نسبة الإناث تقل عن نسبة الذكور (٢ر٤٥٪ فى مقابل ٨ر٥٤٪) ، وهى تختلف عن نسبة تمثيلهن فى المجتمع الأصلى بفارق بسيط فعلى سبيل المثال تبلغ نسبة الإناث فى محافظة القاهرة ٧ر٤٨٪ فى مقابل ٣ر٥١٪ ذكور ، وفى الاسكندرية ٨ر٤٨٪ فى مقابل ٢ر٥١٪ ، وفى الجيزة ٥ر٤٨٪ فى مقابل ٥ر٥١٪ ، وذلك وفقا للبيانات الخاصة بالعينة الأم .

٤ – توزيع العينة وفقا للحالة التعليمية

الحالة التعليمية	ك	٪
أمـــى	٥٧٢	٥ر٤١
يقرأ ويكتب	١٠٠	٣ر٧
ابتدائـــى	٧١	١ر٥
إعـــدادى	٦٩	٥
ثانـــوى	٣١٠	٥ر٢٢
فوق المتوسط	٤٧	٤ر٣
جامعـــى	٢٠٥	٩ر١٤
فوق الجامعى	٤	٣ر
المجمـــوع	١٣٧٨	٠ر١٠٠

يلاحظ من الجدول أن أعلى نسبة فى العينة هى نسبة الأميين (٥ر٤١٪) ، وإذا أضيفت إليها فئة يقرأ ويكتب (٣ر٧٪) لأصبح مايقرب من نصف العينة (٨ر٤٨٪) من غير المتعلمين ، وهى نسبة مرتفعة للغاية ، أما المستويات التعليمية الأخرى فأعلاها نسبة الحاصلين على شهادات الثانوية بأنواعها (٥ر٢٢٪) ثم الحاصلين على مؤهل جامعى (٩ر١٤٪) ، فالحاصلين على الإعدادية (١ر٥٪) فالابتدائية (٥٪) ، وتنخفض النسبة بعد ذلك انخفاضا كبيرا وذلك فى فئة الحاصلين على مؤهل فوق الجامعى (٣ر٪) .

٥ – توزيع العينة وفقا للمهن

المهـــن	ك	٪
مهـن عليـا	٣١٨	١ر٢٣
تاجـــر	٢٤	٧ر١
عامل حرفى وخدمات	٢٣٠	٧ر١٦
عامل زراعى	١٠٧	٨ر٧
ربـة بيـت	٤٤٤	٢ر٣٢
طالـــب	٩٨	١ر٧
لايعمـــل	٩٦	٧
على المعاش	٦١	٤ر٤

باستقراء بيانات هذا الجدول ، يتضح أن حوالى نصف العينة (٧ر٥٠٪) لاعمل له ، وذلك إذا ماجمعنا فئات ربات البيوت والطلبة والعاطلين ومن هم على المعاش ، وتعد هذه النسبة مرتفعة للغاية ، فهى تعنى أن أكثر من نصف العينة

خارج دائرة العمل ، أما بالنسبة لباقى العينة فهى موزعة على المهن العليا (٢٣ر١٪) ، وعمال الخدمات والحرفيين (١٦ر٧٪) ، ثم العمال الزراعيين ٧ر٨٪ وأخيرا التجار (١ر٧٪) .

إعداد أداة الاستطلاع

فى ضوء الهدف من الاستطلاع ، والاستعانة بالأدبيات فى الموضوع ، تم إعداد استمارة استبار تتضمن ثلاثة محاور :

المحور المعرفى : ويهدف الكشف عن معلومات الجمهور عن الأحزاب الموجودة ، وبرامجها ، وصحفها ، ومصادره فى المعرفة .

المحور الثانى : عن المشاركة السياسية ، ويرصد واقع المشاركة من حيث الاهتمام بالحياة السياسية والتصويت فى الانتخابات والترشيح ، ثم عضوية الأحزاب والمجالس النيابية .

المحور الثالث : تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب من حيث أدائها ، والصحف الصادرة عنها ، وتقييم دور مجلسى الشعب والشورى .

وفى ضوء المحاور سالفة الذكر تم وضع أسئلة استمارة الاستبار فى صورتها الأولى التى خضعت للتجريب من حيث الصياغة والثبات . وقد وضعت الأسئلة بالأسلوب العامى البسيط ، ولكن صيغت بدائل الإجابات بالعربية لا العامية ، وذلك باعتبار أن الباحث هو الذى كان يقرأ الأسئلة دون البدائل التى كان يدونها وفقا لاستجابة المبحوث . وبعد التعديلات التى أجريت على استمارة الاستبار وفقا لما أسفرت عنه التجارب ، سواء بحذف أو إضافة أسئلة ، أصبحت تتكون من ٤٥ سؤالا .

ملاحظات على العمل الميدانى

واجه الاستطلاع صعوبات عديدة أثناء العمل الميدانى شأنه شأن غيره من المسوح والبحوث ، ولكن نظرا للخصوصية التى يتميز بها فقد تضاعفت هذه الصعوبات . وقد انحصرت هذه الصعوبات فى أمرين : الأول يختص بالعينة والوصول لمفرداتها، والثانى يتعلق باستجابات الجمهور وردود أفعاله . فبالنسبة للصعوبات التى أحاطت برفع العينة ، كانت بسبب عدم دقة العناوين المدونة فى السجلات الخاصة بالجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ، وعدم وجود بعض الأسماء وصعوبة الاستدلال على أصحابها ، ووفاة البعض ، أو الانتقال لأماكن أخرى .

وأيضا لذيوع أسماء شهرة للبعض مما كان يمثل صعوبة فى الوصول إلى أصحابها .

أما المشكلات الخاصة باستجابات الجمهور للاستطلاع ، فجزء منها يرجع لارتفاع مستوى الأمية بين العينة ، وعدم الوعى بالموضوع ، ووقوعه خارج دائرة اهتمام الغالبية العظمى التى عبرت عن ذلك فى مناسبات كثيرة ، وقد وضح هذا بصفة خاصة لدى عينة الإناث ، والقرويات منهن على وجه الخصوص . هذا إلى جانب توافر قدر كبير من مشاعر الشك والريبة لدى المبحوثين ، وخوفهم من أن يكون باحثو الميدان من الشرطة أو الضرائب أو الحكومة بأى شكل من الأشكال. والحكومة لديهم تشكل مصدرا للخوف ، لذلك كان عدد لابأس به يؤكد ويكرر إشادته بالنظام وبالحكومة وماتفعله من أجلهم .

هذا بالإضافة إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الباحثين جاءوا لمساعدتهم ، وعند تبينهم عدم صحة ذلك كانت تصيبهم خيبة أمل شديدة تنعكس على استجاباتهم وردود أفعالهم .

هذا وقد تم جمع بيانات هذا الاستطلاع خلال شهور أبريل ومايو ويونيو عام ١٩٩٢ .

تحليل وتفسير نتائج الاستطلاع

نتناول هنامناقشة نتائج استطلاع رأى الجمهور من خلال الأبعاد الثلاثة الخاصة بمعلومات الجمهور عن الأحزاب ، والمشاركة السياسية للجمهور ، ثم تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب .

اولا : معلومات الجمهور عن الاحزاب

يتوقف إسهام الجماهير فى المجتمعات المختلفة على مدى وعيها بالمسائل والقضايا المثارة فى المجتمع ، واهتمامها بهذه القضايا ، وثقافتها وتوافر المعلومات لديها . لذلك عنى هذا الجزء بالتعرف على الحد الأدنى من المعلومات المتعلقة بموضوع الأحزاب ، كما يعيها الجمهور ، وذلك مثل معرفته بالأحزاب الموجودة على الساحة السياسية ، ومدى معرفته ببرامجها وصحفها .

وترجع أهمية التعرف على معلومات الجمهور عن الأحزاب إلى أمرين : الأول ، هو أنه لكى يبدى المواطن رأيه فى مسألة ما فلابد من أن يكون هناك ولو قدر ضئيل من المعرفة بها ، والثانى هو أن المشاركة السياسية تتوقف إلى حد كبير على مدى وعى المواطن ومعرفته واهتمامه بقضايا مجتمعه ، والمشاركة السياسية فى هذا الاستطلاع تمثل إحدى أهم بؤر الاهتمام .

وقد روعى عند الكشف على معلومات المواطن عدم التعرض لأية تفصيلات دقيقة تتعلق بقوانين الأحزاب أو الانتخابات أو فلسفة وأهداف الأحزاب ، أو حتى ماهية الفروق بين البرامج المختلفة التى تعلنها الأحزاب . وبناء عليه فقد وضعت أسئلة الاستطلاع بحيث تفرق بين من يعلم ومن لايعلم فحسب ، وعلى ذلك فإن مجموعة الاستجابات تمثل رصدا لقدر المعلومات لا لعمقها .

١ - معرفة الجمهور بالأحزاب الموجودة

وجه فى هذا الخصوص سؤال هو "ياترى تعرف إن فيه أحزاب فى البلد؟ " وقد أجاب بنعم ٩٢٣ مبحوثا بنسبة ٦٧٪ ، وأجاب بالنفى ٤٥٥ مبحوثا بنسبة ٣٣٪ .

ولم يكن حجم هذه النسبة الأخيرة متوقعا بالنسبة للحد الذى وصلت إليه ، والذى يتمثل فى أن ثلث العينة لايعلم بوجود أحزاب حتى الآن ، رغم مرور أكثر من ستة عشر عاما على التعددية الحزبية ، وهو مايدل على انفصال المواطن عن الواقع الحزبى الراهن .

وبالنظر للمحافظات محل الدراسة ، فقد وجدت فروق واضحة بين المحافظات بعضها البعض فى نسبة من يعلم ومن لايعلم بوجود أحزاب ، وذلك كما يبدو من الجدول التالى .

جدول رقم (١)

نسبة من يعلم ومن لايعلم بوجود احزاب

موزعة وفقا للمحافظات

الاستجابات	يعلم		لايعلم		المجموع	
المحافظات	ك	٪	ك	٪	ك	٪
القاهـــرة	٢٨٨	٨٢٫٨	٦٠	١٧٫٢	٣٤٨	١٠٠
الاسكنـدريـة	١٢٥	٩٦٫٩	٤	٣٫١	١٢٩	١٠٠
الجيـــزة	١٩٥	٥٩٫٣	١٣٤	٤٠٫٧	٣٢٩	١٠٠
الغـربيـــة	١٦٥	٥٧٫٧	١٢١	٤٢٫٣	٢٨٦	١٠٠
بنـى سـويـف	١٥٠	٥٢٫٤	١٣٦	٤٧٫٦	٢٨٦	١٠٠

يلاحظ من هذا الجدول وجود تمايز واضح بين عينة المحافظات الحضرية وبين عينة المحافظات الأخرى فى نسبة المعرفة بوجود أحزاب . وقد حصلت عينة الاسكندرية فى هذا الخصوص على المركز الأول ، إذ تبلغ نسبة من أجابوا بأنهم يعلمون بوجود أحزاب ٩٦٫٩٪ ، يليها عينة القاهرة بنسبة ٨٢٪ ، وتهبط النسبة بعد ذلك كثيرا ، ولكنها تظل متقاربة بين عينة المحافظات الثلاث الأخرى ، فهى فى الجيزة ٥٩٫٣٪ ، وفى الغربية ٥٧٫٧٪ ، ثم فى بنى سويف ٥٢٫٤٪ .

وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى ارتفاع مستوى التعليم فى المحافظات الحضرية ، وأيضا لتوفر العديد من الخدمات الإعلامية وتعدد مصادر المعرفة .

وقد تلا هذا السؤال سؤال آخر وجه لمن أجابوا بأنهم يعلمون بوجود أحزاب (٩٢٣) ، طلب منهم فيه ذكر الأحزاب التى يعرفونها . وقد كانت الإجابات كما يلى :

جدول رقم (٢)

الأحزاب التى يعرفها الجمهور

الأحزاب	ك	٪
الوطنى	٨٨٠	٩٥
الأمة	١٦٩	١٨٫٤
الوفد	٧٥٥	٧٨٫٧
الاتحادى	٥١	٥٫٥
التجمع	٣٤٥	٣٧٫٤
مصر الفتاة	٨٧	٩٫٤
العمل	٤٨٨	٥٣
الخضر	٥٧	٦٫٢
الأحرار	٣٠٨	٣٣٫٤

* تزيد النسبة المئوية عن ١٠٠٪ لإجابة المبحوث بأكثر من حزب

من هذا الجدول يبدو واضحا أن أعلى نسبة اتفاق على معرفة حزب كانت للحزب الوطنى (٩٥٪) . وهو أمر له مايبرره ، فهو حزب الأغلبية ، وهو الحزب الحاكم ، إلى جانب أنه يحظى بنصيب وافر فى وسائل الإعلام ، ومن ثم كان أكثرها معرفة عند الجمهور . يلى الحزب الوطنى حزب الوفد (٧٨٫٧٪) ، وقد يرجع ذلك إلى أنه حزب قديم له تاريخه ، فقد كان حزب الأغلبية منذ عام ١٩٢٣ حتى قيام الثورة ، لذلك كان معروفا لدى نسبة كبيرة من العينة . وثالث الأحزاب

التى يعرفها الجمهور هو حزب العمل ، وقد ذكر بنسبة ٥٣٪ . وهذه الأحزاب الثلاثة هى أكثرها ثقلا فى ساحة العمل الحزبى . وتقل نسبة المعرفة بأحزاب أخرى ، ولكنها تظل مرتفعة نسبيا بالنسبة لحزب التجمع (٤ر٣٧٪) والأحرار (٤ر٣٣٪) ، ثم تقل كثيرا بالنسبة لأحزاب الأمة (٤ر١٨٪) ومصر الفتاة (٤ر٩٪) والخضر (٢ر٦٪) وأخيرا الاتحادى (٥ر٥٪) ، وكلها أحزاب ضعيفة ليس لها أى تأثير على الواقع السياسى .

٢- معلومات الجمهور عن برامج الأحزاب

للتعرف على مدى معرفة الجمهور بأن للأحزاب برامج ، فقد وجه سؤال " ياترى أنت قريت أو سمعت عن البرامج اللى بتعلنها الأحزاب وقت الانتخابات ؟" وقد أفاد بالإيجاب ٣٧٠ فردا (من مجموع ٩٢٣) بنسبة ٤٠٪ ، ونفى ذلك ٥٥٣ فردا بنسبة ٦٠٪ ، وإذا نسبت الفئة الأولى للعينة الكلية وليس فقط لمن أجابوا بأنهم يعلمون بوجود أحزاب لوصلت النسبة إلى ٩ر٢٦٪ ، وهو مايعنى أن حوالى ربع العينة فقط هو الذى يعلم بأن للأحزاب برامج .

وقد سئل هؤلاء سؤال آخر هو " ياترى انت شايف أنه بيبقى فيه فروق بين برامج الأحزاب دى ؟" وقد كانت الإجابات كما يبدو من الجدول التالى :

جدول رقم (٣)

إدراك الجمهور لوجود فروق بين برامج الاحزاب

الاستجابات	ك	٪
نعم	٢٤٩	٥ر٦٤
لا	٨٠	٧ر٢٠
لا أعرف	٤١	٨ر١٤
المجموع	٣٧٠	٠ر١٠٠

كما يبدو من هذا الجدول ، فقد ركزت غالبية من يعلمون بوجود برامج للأحزاب (٢٤٩ بنسبة ٦٤٪) أن هناك فروقا بين برامج الأحزاب ، بينما لايرى ذلك ٧ر٢٠٪ ، كما أجاب ٨ر١٤٪ ، بأنهم لايعرفون ماإذا كانت هناك فروق بين برامج الأحزاب أم لا .

٣ - معلومات الجمهور عن الصحف التى تصدرها الأحزاب

فى تناول الاستطلاع لمعلومات الجمهور عن الصحف الحزبية ، اتبعت نفس القاعدة ، وهى الاكتفاء بسؤال المواطن عن معرفته بصدور صحف حزبية أم لا ، وماهى هذه الصحف ، وذلك دون التطرق إلى أية أسئلة عن قانون الصحافة الذى صدر بعد إلغاء الاتحاد الاشتراكى وقيام الأحزاب وإصدار صحف حزبية ، ورغم ما أثير حوله من مناقشات واعتراضات والتى كان من الممكن أن تثرى المادة المعالجة . وعلى ذلك اقتصر السؤال الموجه للعينة على "ياترى تعرف إن فيه أحزاب كل واحد منها له جرنال خاص بيه ؟ " . وقد أجاب بأعرف ٧٦٧ مفردة بنسبة ٨٣٪ . وأجاب بلا أعرف ١٥٦ مفردة بنسبة ١٧٪ . ويلاحظ هنا الارتفاع الكبير فى نسبة من يعلمون بصدور صحف حزبية . وقد يرجع ذلك إلى محدودية الصحف التى كانت تصدر فى البلاد لمدة سنوات طويلة ، وبعد التعددية الحزبية زاد عدد الصحف بصورة ملموسة ، كما أن نشأة هذه الصحف وبداياتها شهدت ممارسات كثيرة من المصادرة والإلغاء ، مما يكون قد ساهم فى تدعيم معلومات الجمهور فى هذا الخصوص .

وقد سئل أفراد العينة (٧٦٧) ممن أجابوا بأنهم يعلمون بصدور صحف حزبية عما إذا كانوا يقرءون أيا من هذه الصحف ، وكانت إجاباتهم كالتالى :

جدول رقم (٤)

الصحف الحزبية التى يقرأها الجمهور

الصحف	ك	٪
الوفد	٤٠١	٥٢ر٧
مايو	٧٥	٩ر٨
الشعب	١٠٥	١٣ر٨
الأحرار	٥٤	٧ر١
الأهالى	٦٢	٨ر١
لا أقرأ أيا منها	٣٠٦	٤٠ر٢
صحف أخرى	١٠	١ر٣

* تزيد النسبة المئوية عن ١٠٠٪ لإجابة البعض لقراءة أكثر من صحيفة

باستقراء بيانات هذا الجدول ، يبدو بوضوح أن الصحيفة الحزبية الأولى التى يقرؤها الجمهور هى صحيفة الوفد الصادرة عن حزب الوفد ، فقد حازت على أعلى نسبة قراءة (٥٢ر٧٪) . وقد يكون من بين أسباب ارتفاع هذه النسبة ، هو أنها الجريدة الحزبية الوحيدة التى تصدر يوميا ، مما يتيح فرصا أكبر لانتشار

قراءتها . وقد تدنت نسبة قراءة الصحف الحزبية الأخرى إلى حد كبير مقارنة بصحيفة الوفد ، ولعل أكثرها ارتفاعا جريدة الشعب التى يصدرها حزب العمل (٨ر١٣٪) . يليها جريدة مايو (٨ر٩٪) ، وعلى الرغم من أن الحزب الوطنى هو الحزب الأول فى السلم المعرفى الخاص بالأحزاب لدى الجمهور ، إلا أن جريدته تقع فى أدنى السلم ، بحيث لاتختلف نسبة قراءتها كثيرا عن بعض الصحف الحزبية الأخرى كصحيفة الأهالى (١ر٨٪) والأحرار(١ر٧٪) . وقد ذكر بعض أفراد العينة صحفا أخرى ليست أصلا صحفا حزبية كالأهرام والأخبار وجريدة المصرى المصادرة منذ أوائل الخمسينيات . كما ذكر ٢ر٤٠٪ من أفراد العينة أنهم لايقرءون أيا من هذه الصحف ، ويبدو بصفة عامة أن انتشار قراءة الصحف الحزبية جميعها - فيما عدا الوفد - ضعيف للغاية بين أفراد الجمهور ، ويرجع هذا بصفة أساسية لارتفاع نسبة الأمية فى العينة .

ثانيا : المشاركة السياسية للجمهور

رغم أن عنوان الاستطلاع لايتضمن إشارة مباشرة لقضية المشاركة السياسية ، إلا أن هذا لايعنى أن المشاركة لاتحتل جزءا هاما من هذا الاستطلاع. فإذا كان الاستطلاع ينصب أساسا على رأى الجمهور فى الأحزاب والممارسة الحزبية ، فالأحزاب من ناحية تعد إحدى أهم أدوات التنشئة السياسية التى تؤثر فى المشاركة ، ومن ناحية أخرى تعد الممارسة الحزبية أحد أشكال المشاركة السياسية .

ولن نتناول فى هذا الملخص مفهوم المشاركة ، ولكن نكتفى بالقول بإيجاز بأن المشاركة هى القيام بدور ما فى العملية السياسية ، ويدخل فى هذا الإطار كل ما من شأنه أن يؤثر فى علاقات القوة فى المجتمع .

وتتعدد صور المشاركة وتختلف باختلاف كل مجتمع حسب درجة تطوره السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، ولذلك فإن صور المشاركة فى المجتمعات المتقدمة تختلف عنها فى المجتمعات النامية ، كذلك أيضا تختلف فى المجتمع الواحد من فترة لأخرى . ومن هذه الصور متابعة الأمور السياسية ، وحضور الندوات والمؤتمرات والاجتماعات ، والمشاركة فى العمليات الانتخابية ، كالمشاركة فى الحملات الانتخابية ، أو التصويت ، أو الترشيح لعضوية الأحزاب أو غيرها من المؤسسات السياسية .

وبناء على ذلك فإننا سنخضع فى هذا الاستطلاع أربع صور من صور

المشاركة السياسية لدراستها ، والتعرف من خلالها على موقع المشاركة لدى الجمهور المصرى ، وهذه الصور هى : المشاركة من خلال الاهتمام بالحياة السياسية ، المشاركة من خلال التصويت ، المشاركة من خلال الترشيح ، ثم المشاركة من خلال عضوية الأحزاب .

١- المشاركة من خلال الاهتمام بالحياة السياسية

يعد الاهتمام بالسياسة والحياة السياسية عموما أحد مؤشرات المشاركة التى لا يمكن تجاهلها أو إغفالها ، ورغم أنه - أى الاهتمام - لايرقى إلى مستوى الممارسة . والاهتمام السياسى ينشأ لدى الفرد نتيجة خبرات التنشئة التى يتعرض لها من خلال الأسرة والمدرسة والمجتمع ككل ، بحيث تتكون لديه القيم والاتجاهات والمعلومات خلال مراحل حياته المختلفة ، والتى تؤثر بدورها فى مدى استجابته لمختلف المنبهات السياسية ، وتحدد مدى اهتمامه ومشاركته . وللتوصل إلى معرفة مدى اهتمام الجمهور بالسياسة ، وجه لعينة الدراسة سؤال عام كمدخل للموضوع وهو "تفتكر الناس عموما فى مصر بيهتموا بالسياسة ؟" وقد كانت الإجابات كالتالى :

جدول رقم (٥)

راى العينة فيما إذا كان الناس عموما يهتمون بالسياسة ام لا

الاستجابات	ك	٪
نعم	٦١٨	٨ر٤٤
لا	٥٤٣	٤ر٣٩
لا أعرف	٢١٧	٨ر١٥
المجموع	١٣٧٨	١٠٠

يتبين من هذا الجدول أن أقل من نصف العينة (٦١٨ فردا بنسبة ٨ر٤٤٪) يرون أن الناس تهتم بالسياسة ، بينما لايرى ذلك ٤ر٣٩٪ من العينة ، كما لايعرف ذلك ٨ر١٥٪ . فإذا جمعنا هاتين الفئتين باعتبار أنهما يؤديان لنتيجة واحدة كانت النسبة ٢ر٥٥٪ ، وهى ترجح النسبة الأولى . وكان من الضرورى معرفة الأسباب التى تؤدى بالناس إلى العزوف عن الاهتمام بالسياسة فى رأى أفراد العينة ممن ذكروا أن الناس لاتهتم ، وقد كانت أسبابهم فى ذلك كما يلى .

جدول رقم (٦)

أسباب العزوف عن الاهتمام بالسياسة

الأسباب	ك	٪
لانشغال الناس بكسب العيش	٢٩٣	٥٧٫٦
لايوجد وقت فراغ	١٠٤	٢٠٫٥
قلة من الناس هى التى تفهم فى السياسة	٢٠٣	٤٠
أسباب أخرى	١١	٢٫٢

* تزيد النسبة عن ١٠٠٪ لإمكانية ذكر المبحوث لأكثر من سبب

باستقراء بيانات هذا الجدول ، يبدو أن أهم سبب فى رأى عينة الاستطلاع فى عزوف الناس عن الاهتمام بالسياسة هو أنها مشغولة بكسب العيش (٥٧٫٦٪) ، والسبب التالى فى الترتيب هو أن قلة من الناس فقط هى التى تفهم فى السياسة ، وبالتالى تهتم بها (٤٠٪) ، أما السبب الثالث فهو أنه لايوجد وقت فراغ لدى الناس حتى تهتم بالسياسة (٢٠٪) . وقد ذكرت أسباب أخرى بعبارات مختلفة ، ولكن مؤداها شئ واحد ، وهو أنه لاعائد ولافائدة من الاهتمام بالسياسة (٢٫٢٪) .

وهكذا نجد أنه مع اختلاف الأسباب إلا أنها تدور حول محور واحد تقريبا ، وهو أن السياسة تقع خارج نطاق دائرة اهتمامات الناس المهمومة بكسب العيش، والتى لاتجد وقتا للاهتمام بها ، كما لاتجد طائلا منها ، كما أنها لاتفهمها .

وللانتقال من العام إلى الخاص ، أى من الاهتمام بالسياسة بوجه عام إلى الاهتمام بالحياة الحزبية ، فقد أخذ الاهتمام بمتابعة أداء الأحزاب مؤشرا لذلك . وقد وجه سؤال بهذا المعنى للعينة ، وما إذا كانوا يتابعون أداء الأحزاب أم لا . وكانت إجاباتهم كالتالى :

جدول رقم (٧)

متابعة الجمهور لاداء الاحزاب

الاستجابات	ك	٪
يتابــع	٣٢٥	٣٥٫٢
لايتابع	٥٩٨	٦٤٫٨
المجموع	٩٢٣	١٠٠

يتضح من الجدول السابق أن ثلث العينة فقط هو الذى يهتم بمتابعة أداء الأحزاب ، بينما لايهتم بذلك ثلثا العينة (٨ر٦٤٪) ، وتبدو ضآلة نسبة المهتمين إذا ما نسب عددهم للعدد الكلى للعينة ، ففى هذه الحالة سوف تصل النسبة إلى ٦ر٢٣٪ فقط .

ولمعرفة مزيد من التفصيلات فى هذا الخصوص وجه سؤالان ، أحدهما للمجموعة التى ذكرت أنها تتابع أخبار الأحزاب ، عن مصادر هذا التتبع . والسؤال الآخر لمن ذكروا أنهم لايتابعون أخبار الأحزاب عن أسبابهم فى ذلك ، وقد كانت الإجابات على السؤالين كما يوضحها الجدول الآتى :

جدول رقم (٨)

المصادر التى يتابع الجمهور من خلالها اخبار الاحزاب

	ك	٪
الإذاعـــة	١٥٥	٦ر٤٧
التليفزيون	٢٢٩	٦ر٧٠
الصحف القومية	١٧٣	٤ر٥٣
الصحف الحزبية	١١٥	٥ر٣٥
أصدقاء ومعارف	٣٤	٥ر١٠
حضور مؤتمرات وندوات الأحزاب	٩	٧ر٢
مصادر أخرى	٢	٦ر

• تزيد النسبة عن ١٠٠٪ لاعتماد المبحوث على أكثر من مصدر أحيانا

باستقراء بيانات هذا الجدول يتبين لنا أن التليفزيون قد حظى بأكبر نسبة اتفاق من جانب المبحوثين (٦ر٧٠٪) ، ولعل ذلك يرجع إلى انتشار التليفزيون كوسيلة إعلامية فى المدن والقرى على السواء . كما أنه لايحتاج – فى التعرض له كوسيلة إعلامية – لتوفر أى قدر من التعليم ، ومن ثم يشاهده كل من المتعلم والأمى على حد سواء . هذا إلى جانب ماله من فاعلية مزدوجة الأداء (الصوت والصورة معا) .

وقد جاءت الصحف القومية فى المرتبة التالية للتليفزيون ، وإن كان الفارق كبيرا (٤ر٥٣٪) ، ثم الإذاعة (٦ر٤٧٪) ، فالصحف الحزبية (٥ر٣٥٪) . وبطبيعة الحال فإن الصحف الحزبية أو القومية تمثل اختيارا من جانب المتعلمين فى العينة .

وتهبط النسبة إلى حد كبير لمن أجابوا بأنهم يعتمدون على الأصدقاء والمعارف (٥ر١٠٪) كمصدر ، كما كانت نسبة من ذكروا أن مصدرهم فى ذلك حضور المؤتمرات والندوات أدنى النسب على الإطلاق (٧ر٢٪) ، علما بأن هذا المصدر يكاد يكون الوحيد بين كل المصادر الذى يتطلب عملا إيجابيا من الفرد .

باستعراض مجموع الأسباب التى تقف وراء عدم الاهتمام بأخبار الأحزاب نجد أنها لاتختلف كثيرا عن الأسباب التى ذكرت فى الجزء الخاص بعدم اهتمام الناس بالسياسة عموما . ولعل أبرزها هو تقرير أفراد العينة بأنهم لايهتمون بالسياسة (٦ر٣٧٪) ، ومجموع هذه الأسباب تدل على أن هناك عدم اهتمام وعدم فهم وعدم إحساس بالجدوى ، وكلها مفاهيم تفسر وتدعم السلوك السياسى غير المشارك ، أو بمعنى آخر السلبية السياسية التى يتسم بها الجمهور .

جدول رقم (٩)

اسباب العزوف عن متابعة اخبار الاحزاب

	ك	٪
لا أهتم بالسياسة	٢٢٣	٦ر٣٧
لا أفهم فى السياسة	٨٠	٤ر١٣
ليس لدى وقت للسياسة	١٦٧	٠ر٢٨
لانشغالى بكسب العيش	١١٦	٥ر١٩
هناك أشياء كثيرة أهم	٧٩	٢ر١٣
لا أومن بأن لها فائدة	٦١	٣ر١٠

* تزيد النسبة عن ١٠٠٪ لاحتمالات إجابة المبحوث بأكثر من سبب

٢ - المشاركة من خلال التصويت

يعد التصويت فى الانتخابات فى كثير من المجتمعات أهم المؤشرات لقياس درجة المشاركة السياسية ، كذلك أيضا هناك العديد من الدراسات التى تركز عند تناول المشاركة السياسية على الانتخابات ، وربما كان ذلك لسهولة قياس حجم المشاركة عن طريق حساب الأصوات .

ورغم أهمية المشاركة بالتصويت فى الانتخابات ، إلا أن المشاركة لاتحدث فقط وقت الانتخابات ، كما أن الاشتراك فى الانتخابات ليس بالضرورة أكثر الوسائل فاعلية فى تأثير الجمهور على الحكومة . ومايعنينا هنا هو الموقف التصويتى للجمهور المصرى . وتدل المؤشرات العامة للتصويت فى الانتخابات التى تمت فى السنوات الأخيرة (١٩٨٤ ، ١٩٨٧ ، ١٩٩٠) ، على وجود نسبة زيادة فى

معدلات التصويت العامة عن أول انتخابات أجريت عام ١٩٧٦. ولكن هذه الزيادة لا تعبر بمفردها عن حقيقة المشاركة فى الانتخابات ، فعلى الرغم أنه من المفترض أن يتطابق عدد الهيئة الناخبة مع عدد المواطنين البالغين لسن الثامنة عشرة ، إلا أن الأرقام تؤكد بأنه كانت هناك دائما فجوة بين الاثنين ، فقد ظل عدد المقيدين بالجداول الانتخابية أقل بكثير من عدد المواطنين البالغين لسن الانتخاب وذلك فى كل الانتخابات السابقة (وذلك كما ورد فى التقارير الثلاثة الصادرة عن مركز بحوث الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عن انتخابات أعوام ١٩٨٤ ، ١٩٨٧ ، ١٩٩٠) .

ولكن ماهو السلوك التصويتى الفعلى لعينة ممثلة من الجمهور ؟ هذا مايحاول الاستطلاع الحالى الإجابة عنه من خلال توجيه مجموعة من الأسئلة أولها "ياترى أنت عندك بطاقة انتخابية ؟" وذلك على اعتبار أن استخراج البطاقة الانتخابية يمثل الخطوة الإجرائية الأولى اللازمة لعملية التصويت . وقد أجاب على هذا السؤال بالإيجاب ٣٧٣ مفردة بنسبة ١ر٢٧٪ ، بينما نفى ذلك ١٠٠٥ مفردة بنسبة ٩ر٧٢٪ ، أى أن أقل من ثلث العينة هو الذى لديه بطاقة انتخابية ، وهى نسبة ضعيفة بلا شك .

وللتعرف على ما إذا كانت هناك علاقة بين بعض المتغيرات ، كالسن والتعليم والنوع ، وبين الاستعداد لاستخدام الحق فى التصويت عن طريق استخراج بطاقة انتخابية ، فقد اتضح مايلى .

أ - بالنسبة لمتغير السن ، كان الموقف كما يلى :

جدول رقم (١٠)

نسبة من لديهم بطاقة انتخابية موزعين وفقا لمتغير السن

الاستجابات / فئات السن	نعم		لا		الإجمالى	
	ك	٪	ك	٪		
١٨-	٢	٢	١٠٠	٩٨	١٠٢	١٠٠
٢٠-	٧٦	١٩ر٢	٣٢٠	٨٠ر٨	٣٩٦	١٠٠
٣٠-	٨١	٢٥ر٦	٢٣٥	٦٤ر٤	٣١٦	١٠٠
٤٠-	٨٣	٣٥	١٥٤	٦٥	٢٣٧	١٠٠
٥٠-	٧٦	٤١ر٣	١٠٨	٥٨ر٧	١٨٤	١٠٠
٦٠-	٤٧	٤٥ر٦	٥٦	٥٤ر٤	١٠٣	١٠٠
٧٠ فما أكثر	٨	٢٠	٣٢	٨٠	٤٠	١٠٠
المجموع	٣٧٣		١٠٠٥		١٣٧٨	

يتبين من الجدول السابق أن ٩٨٪ ممن هم فى المرحلة العمرية أقل من ٢٠ سنة ليست لديهم بطاقة انتخابية ، وهو أمر طبيعى ، إذ أنه لم يمض سوى عامين على حقهم فى استخراج بطاقة ، وهى فترة زمنية قصيرة قد لايتاح فيها اتخاذ مثل هذه الخطوة ، كذلك فإن هذه المرحلة تتسم بعدم النضج الكافى بحيث تتيح لصاحبها إدراك أهمية مشاركته . وبالنسبة لفئتى العمر من ٢٠ إلى أقل من ٣٠، ومن ٣٠ إلى أقل من ٤٠ ، أيضا تتدنى نسبة من لديهم بطاقة مقارنة بمن ليس لديهم بطاقة من نفس الفئة العمرية ، فهى فى الأولى ١٩٫٢٪ . وقد يرجع ذلك إلى أن عددا من هؤلاء تقع أعمارهم فى أوائل العشرينيات ، ومن ثم ينطبق عليهم ماذكر بالنسبة للفئة الأولى فى الأعمار . أما الفئة الثانية أى من ٣٠ إلى أقل من ٤٠ فنسبة من لديهم بطاقة لاتتعدى ٢٥٫٦٪ ، ولم تكن هذه النتيجة متوقعة تماما، إذ أن هذه المرحلة من أكثر مراحل العمر نشاطا وإيجابية . والنتيجة غير المتوقعة أيضا أنه بالنسبة لفئات السن العليا (من ٥٠ إلى أقل من ٦٠ ، ومن ٦٠ إلى أقل من ٧٠) تكاد تتعادل نسبة من لديهم بطاقة (٤١٫٣٪) ومن ليس لديهم (٥٨٫٧٪) ، وذلك بالنسبة للفئة الأولى ، و ٤٥٫٦٪ فى مقابل ٥٤٫٤٪ . وبالنسبة للفئة الثانية ، وقد يفسر هذا ، بأن هذه السن هى سن الحكمة وتزايد الإحساس بالمسئولية ، وهو مالم يتحقق بالنسبة لفئات العمر المتوسطة .

ب - بالنسبة لمتغير التعليم

دلت النتائج على وجود علاقة بين التعليم وبين استخراج بطاقة انتخاب ، إذ أن نسبة من لديهم بطاقة من الأميين كانت ١٩٫٤٪ ممن يندرجون تحت هذه الفئة . وهذه النسبة على الرغم من انخفاضها بالمقارنة بباقى المستويات التعليمية - فيما عدا التعليم الإعدادى - إلا أنها تعد مرتفعة فى محيط الأميين ، إذ مع توفر الأمية ينخفض مستوى الوعى بقضايا المجتمع . وعلى ذلك فقد يكون مصدر ارتفاعها النسبى ارتفاع نسب المشاركة فى الريف نتيجة لبعض العوامل ، وعلى رأسها العامل القبلى .

وفى فئة الجامعيين تتقارب إلى حد ما نسبة من لديهم بطاقة ومن ليس لديهم (٤٥٫٨٪ ، ٥٤٫٢٪ على التوالى) . ولعل الفئة الوحيدة التى تزيد فيها نسبة من لديهم بطاقة هى المتعلمون تعليما فوق الجامعى (٧٥٪ فى مقابل ٢٥٪) . ولكن مع ذلك يجب أن تؤخذ هذه النتيجة بحذر إذ لايمكننا التعميم ، والادعاء بأن التعليم هو المحك فى ذلك ، لسبب واضح وهو أن عدد هذه الفئة فى العينة كلها يبلغ ٤ أفراد فقط .

جـ - بالنسبة لمتغير النوع

للتعرف على موقف الإناث من استخراج بطاقة انتخاب ، اتضح أن عدد الإناث ممن استخرجن بطاقة يبلغ ٣٨ بنسبة ٦ر٣٪ من مجموع الإناث فى العينة والبالغ ٦٢٣. وإذا قارنا نسبة الإناث بنسبة الذكور (٣٣٥ فردا) فى هذا الشأن لوجدنا أنها تبلغ ٢ر١٠٪ فى مقابل ٨ر٨٩٪ . وهى نسبة ضئيلة للغاية فى كل الحالات ، سواء تمت المقارنة داخل عينة الإناث أو قورنت بعينة الذكور أو بالعينة الكلية . وقد يفسر انخفاض النسبة إلى هذا الحد ، تصنيف ٤٤٤ من الإناث فى العينة كربات بيوت ، وعادة ماتكون اهتمامات ربات البيوت خارج نطاق الاهتمامات والمسائل العامة .

وكان من الضرورى التعرف على الأسباب التى حالت دون قيام معظم أفراد العينة باستخراج بطاقة انتخاب ، فإن هذه الأسباب قد تنسحب على رأيهم فى العملية الانتخابية برمتها ، ويلخص الجدول التالى هذه الأسباب .

جدول رقم (١١)

اسباب عدم استخراج بطاقة انتخابية

	ك	٪
لم أسمع عن هذا الموضوع	٢٠١	٢ر٢٠
لا اعتقد أن هناك أهمية لذلك	٣٧١	٤ر٣٧
لا أعرف أحد ممكن أن انتخبه	٧٨	٨ر٧
ليس لدى علم بالإجراءات	١٦٥	٦ر١٦
لا اعتقد فى صدق الانتخابات	١٤٨	٩ر١٤
لايوجد لدى وقت لذلك	١٠٠	١ر١٠
أسباب أخرى	٢٥	٦ر٢

بالنظر لمجموع هذه الأسباب ، يمكن تصنيفها داخل فئتين : الأولى تتعلق بالمبحوث وظروفه ، والثانية تتعلق برؤيته وموقفه من العملية الانتخابية . والأسباب التى تنتمى للفئة الأولى هى "لم أسمع عن هذا الموضوع" وقد جاء بنسبة ٢ر٢٠٪ من مجموع الأسباب وارتفاع هذه النسبة يبررها ارتفاع نسبة الأمية فى العينة وانحدار المستوى المعرفى لمعظمها . أما السبب الثانى فهو" لايوجد لدى وقت لذلك" وقد تكرر بنسبة ١ر١٠٪ ، ويلاحظ أن هذا السبب قد ورد فى أكثر من موقع من مواقع المشاركة .

أما المجموعة الثانية من الأسباب فلعل أبرزها "لا اعتقد أن هناك أهمية لذلك" وقد حظى بأعلى نسبة بين كل الأسباب (٤ر٣٧٪) ، وهو فى الواقع يلخص موقف الفرد واتجاهه من العملية الانتخابية . والسبب الثانى داخل هذه المجموعة هو "ليس لدى علم بالإجراءات" وقد ذكر بنسبة ٦ر١٦٪ ، وهذا السبب يثير أمرين: أولهما ضرورة إعلام الجمهور بالإجراءات التى تتخذ فى هذا الشأن ، ويمكن استخدام وسائل الإعلام كأداة لذلك . والأمر الثانى والأهم هو أن تكون هذه الإجراءات بسيطة وبعيدة عن التعقيد ، حتى يتيسر لأكبر عدد ممكن من المواطنين القيام بها .

أما السبب الثالث فهو عدم الاعتقاد فى صدق الانتخابات ، وقد جاء بنسبة ٩ر١٤٪ ، وهذا السبب جد خطير ، لأن فقدان الثقة فى نزاهة الانتخابات يعمل كعائق بين الناس وبين ممارسة حقوقهم .

أما السبب الرابع فى الترتيب فهو "لا أعرف أحدا من الممكن أن أنتخبه" ، وقد حصل هذا السبب على أقل نسبة تكرارات (٨ر٧٪) ، وفى حالة ما إذا كان هذا السبب قد ورد من جانب الريفيين ، فربما تمثل النسبة المنخفضة الانحسار النسبى لقوة وهيمنة العلاقات القبلية فى الريف ، وإذا كان من جانب الحضريين فإنه مع اتساع المدن وهامشية العلاقات تزيد فرصة عدم معرفة المرشحين .

وكان من الضرورى معرفة ما إذا كان أفراد العينة قد مارسوا عملية التصويت بالإدلاء بأصواتهم فى أية انتخابات ، وقد أفاد بالإيجاب ٤٦٢ فردا بنسبة ٥ر٣٣٪ ، وبالنفى ٩١٦ فردا بنسبة ٥ر٦٦٪ ، وهو مايعنى أن ثلث العينة فقط هو الذى مارس حقه فى التصويت . وبخصوص العلاقة بين بعض المتغيرات وبين الاشتراك بالتصويت فى الانتخابات ، وجد أن نسبة التصويت تزداد لدى كبار السن ، فقد لوحظ أن الفئتين العمريتين من ٥٠ حتى ٧٠ سنة حصلتا على أعلى النسب الإيجابية (٩ر٤٢٪ ، ٥ر٥١٪ على التوالى) .

كذلك لم يلاحظ اختلاف بين مستوى التعليم وبين التصويت ، أى أنه لم توجد فروق واضحة فى النسب ترتبط بالتعليم ، وهذه النتيجة تتعارض مع المقولة السائدة بأن المشاركة فى الانتخابات ترتبط بارتفاع مستوى التعليم ، بل أنه قد لوحظ أن من بين أعلى نسب المشاركة كانت بين الأميين (٥ر٧٢٪) .

أما بالنسبة للسلوك التصويتى وعلاقته بالنوع ، فقد وجد فارق كبير بين الذكور (٨٤٪) والإناث (١٦٪) . وقد يرجع ذلك إلى أن نسبة كبيرة من الإناث ربات بيوت ، وكما ذكرنا من قبل تنصرف اهتماماتهن عن المسائل العامة .

٢ - المشاركة من خلال الترشيح فى الانتخابات

فى هذا الخصوص وجه سؤال لأفراد العينة لمعرفة ما إذا كان قد سبق لهم ترشيح أنفسهم فى أية انتخابات سابقة ، وقد ذكر ٧٥ فردا بنسبة ٥ر٤٪ بأنه سبق لهم ترشيح أنفسهم فى انتخابات ، بينما نفى ذلك ١٣٠٣ أفراد بنسبة ٩٤٪ ، ولم يكن من المتوقع أن تزيد النسبة عن ذلك كثيرا ، لأن الترشيح يحتاج لتوفر بعض المقومات الشخصية والمادية والتى قد لاتتيسر للكثيرين .

وقد كانت نسبة من رشحوا أنفسهم فى كل المحافظات محل الدراسة تدور حول هذه النسبة العامة ، فهى فى القاهرة والجيزة ٩ر٤٪ ، وفى بنى سويف ٥ر٣٪ ، وفى الغربية ٦ر٥٪ ، ولعل الاسكندرية هى المحافظة الوحيدة التى ترتفع فيها النسبة لتصل إلى ٤ر١٢٪ . وقد يرجع ذلك إلى ماتتميز به الاسكندرية كمحافظة من خصوصية شديدة من أبرز سماتها انخفاض معدلات الأمية فيها عن سائر المحافظات .

وقد لوحظ انخفاض نسبة الترشيح لدى المستويات التعليمية الدنيا والأميين ، حيث لاتتعدى لدى الأميين ٥ر١٪ ، وترتفع النسبة قليلا لدى فئات التعليم الثانوى (٧ر٩٪) ، وفوق المتوسط (٦ر١٠٪) والجامعى (٨ر٩٪) . أما فوق الجامعى وإن كانت أعلاها (٢٥٪) إلا أنها تعبر عن فرد واحد فقط ، وبالتالى لايمكن الاعتماد عليها كإحدى نتائج الدراسة .

أما الانتخابات التى قام أفراد العينة بترشيح أنفسهم فيها فيوضحها الجدول رقم (١٢) .

جدول رقم (١٢)

الانتخابات التى قام افراد العينة بترشيح انفسهم فيها

الانتخابات	ك	٪
مجلس الشعب	٢	٧ر٢٪
مجلس الشورى	١	٣ر١٪
مجالس محلية	١٢	٤ر١٦٪
نقابات	٢٠	٣ر٢٧٪
نواد رياضية	٤٤	٤ر٥٪
اتحادات طلبة	٢٨	٣ر٣٨٪
نواد أو جمعيات اجتماعية	٤	٤ر٥٪
انتخابات أخرى	٨	١١٪

ويبدو أن انتخابات اتحادات الطلبة قد حصلت على أعلى النسب فى الترشيح ، وقد ينطبق ذلك على معظم الطلبة فى العينة ، ويلى ذلك الترشيح لانتخابات النقابات ثم المجالس المحلية ، فالنوادى الرياضية والجمعيات . أما الترشيح فى انتخابات مجلس الشعب والشورى فقد كانت أقلها ، كذلك ذكر البعض انتخابات أخرى مثل انتخابات الأسر داخل الكليات الجامعية ، وانتخابات الاتحاد الاشتراكى والاتحاد القومى .

٤- المشاركة من خلال عضوية الاحزاب

بالنسبة لمؤشر المشاركة السياسية من خلال عضوية الأحزاب ، فقد تبين أن هناك ٧٦ مفردة من العينة أعضاء فى أحزاب وذلك بنسبة ٨ر٢٪ من مجموع من ذكروا أنهم يعلمون بوجود أحزاب (٩٢٣ فردا) ، وإذا نسب هؤلاء للعينة الكلية لبلغت النسبة ٥ر٥٪ فقط ، وهذه النسبة تقل كثيرا عن نسبة أعضاء الأحزاب من عينة النخبة (٢٤٪) ، مع ملاحظة أن داخل هذه النسبة هناك عدد تم اختياره عمديا ، فإذا استبعد هؤلاء ستنخفض النسبة إلى ١٥٪ ، ولكن مع ذلك تظل هذه النسبة محققة زيادة ، بحيث تبلغ ثلاثة أضعاف الجمهور العام .

أما الأحزاب التى تنتمى لها هذه الفئة (٧٦ عضوا) فهى كالتالى :

الحزب الوطنى ٨ر٩٤٪ (٧٢) ، حزب الوفد ٩ر٣٪ (٣) ، حزب مصر الفتاة ٣ر١٪ (١) .

وهذه النتيجة ، على الأقل بالنسبة للحزب الوطنى ، تتفق مع الواقع ، إذ أن الأكثرية العددية لعضوية الأحزاب هى للحزب الوطنى .

أما محددات الاختيار للحزب الذى ينتمى إليه الفرد فقد تركزت فى الأسباب المبينة بالجدول رقم (١٣) .

جدول رقم (١٣)

اسباب الانضمام لحزب معين

الأسباب	ك	٪
لاقتناعى ببرامجه ومبادئه	٢٢	٢ر٢٢
لأنه حزب قديم	٣	٨ر٢
لأنه حزب معروف	٢٣	٥ر٢٣
لأنه يعمل من أجل مصلحة الناس	٢٣	٥ر٢٣
لمعرفتى بقيادات الحزب	٥	٥
لأنه يعمل بأسلوب ديمقراطى	٥	٥
لانتماء بعض أفراد أسرتى له	١٠	١ر١٠
أسباب أخرى	٨	٨

باستعراض هذه المحددات والأسباب ، يبدو أن معظمها إن لم يكن كلها يتعلق بالحزب الوطنى باعتباره الحزب الذى ينضم له معظم أعضاء الأحزاب داخل العينة . وذلك فيما عدا السبب الخاص بأنه حزب قديم إذ ينسحب ذلك على حزب الوفد .

أما عضوية المجالس النيابية ، ففى داخل العينة كلها لم يكن هناك سوى فرد واحد نائب فى مجلس الشعب ، واثنين فى مجلس الشورى . وبالنسبة لعضوية المجالس المحلية ، أظهرت البيانات وجود عضوين فى المجالس المحلية بنسبة ١ر٠٪ و ١٨ عضو مجلس نقابة بنسبة ٣ر١٪ وذلك من المجموع الكلى للعينة . وكل هذه النتائج تدل وتؤكد ضعف المشاركة بالنسبة لهذا المستوى .

ثالثا : تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب

إن تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب لاتتحدد فقط عن طريق رأيهم فى الأداء والممارسة الحزبية فحسب ، ولكن أيضا من خلال الإطار الدستورى والقانونى الذى تعمل داخله ، ومع ذلك فقد استبعد هذا الإطار عند تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب . وسبب هذا الاستبعاد المتعمد هو ضعف المستوى التعليمى والمعرفى لنسبة كبيرة من العينة ، وذلك بعكس عينة النخبة التى شملها التقرير الأول .

ويتضمن تقييم الجمهور للأحزاب رأيه فيما تقدمه وما يجب عليها أن تقدمه للمواطنين ، ومدى كفاية الأحزاب الموجودة ، وأيضا تقييمه لفاعلية مجلس الشعب والشورى باعتبارهما مجالس تمثيلية تعد امتدادا بشكل أو بآخر لطبيعة النظام الحزبى .

وفى هذا النطاق وجه سؤال لأفراد العينة هو"تفتكر الأحزاب الموجودة دلوقت بتعمل حاجة مفيدة للبلد" . وقد أجاب بنعم على هذا السؤال٤٢٤ بنسبة ٩ر٤٥٪، وأجاب بالنفى٤٥٢ بنسبة ٤٩٪ ، كما أجاب بلا أعرف٤٧ بنسبة ١ر٥٪ .

أما أسباب تقييم ما تقدمه الأحزاب تقييما إيجابيا فكان كالتالى :

جدول رقم (١٤)

اسباب التقييم الايجابى للاحزاب

	ك	٪
محاولة حل مشاكل الناس	٢٧٣	٧ر٦٥٪
وجود الأحزاب فى حد ذاته تعبير عن الديمقراطية	٥٠	١٢٪
تساعد الناس على التعرف على حقوقهم وواجباتهم	٧٦	٣ر١٨٪
تكشف عن الفساد	٧٥	١٨٪
تظهر للحكومة أخطاءها	٥٥	٢ر١٣٪
أسباب أخرى	١٤	٣ر٣٪

ومن تحليل هذه البيانات ، يبدو أن الإيجابية الأولى هى حل مشاكل الناس (٧ر٦٥٪) ، وتعكس هذه الإجابة اهتمامات الناس الفعلية ، ورغبتهم فى وجود من يحل مشاكلهم ويهتم بها . أما الإيجابية الثانية فهى مساعدة الناس على معرفة حقوقهم وواجباتهم ، وقد ذكرت بنسبة ٣ر١٨٪ ، وهى تؤكد دور الأحزاب فى عملية التنشئة السياسية للمواطنين . والإيجابية الثالثة ، هى أن الأحزاب تكشف عن الفساد . وفى الحقيقة فإن هذا السبب والسبب التالى له وهو أن الأحزاب تظهر للحكومة أخطاءها (٢ر١٣٪) ارتبطا لدى الجمهور كوظيفة رقابية تقوم بها أحزاب المعارضة بالذات كما ظهر من بعض التعليقات .

أما أقل الأسباب تكرارا - رغم أنه قد يكون أكثرها أهمية - هو أن وجود الأحزاب فى حد ذاته تعبير عن الديمقراطية . وبغض النظر عما إذا كان وجود أحزاب يعبر عن ديمقراطية حقيقية أم أنه يأخذ من الديمقراطية الشكل فقط ، فإنه يبدو أن الديمقراطية كقيمة لا تعنى مطلبا أساسيا لدى الجمهور بدليل أن هذا السبب حقق أدنى نسبة .

أما الوجه الآخر الذى يرى عكس ذلك ، أى يعتقد فى عدم فاعلية الأحزاب فأسبابه فى ذلك :

جدول رقم (١٥)

أسباب عدم فاعلية الأحزاب

	ك	٪
إنها أحزاب ضعيفة	٧٠	٥ر١٥٪
لعدم وجود ديمقراطية حقيقية	٦٩	٣ر١٥٪
لاتقدم حلولا لمشاكل الناس	٢٣٤	٥٢٪
لأن بعضها غير ممثل فى مجلس الشعب	١٢	٦ر٢٪
لاتهتم إلا بتقديم مكاسب لأعضائها	١٦٤	٤ر٣٦٪
أسباب أخرى	١٠	٢ر٢٪

يلاحظ أن بعض هذه المبررات التى ذكرت فى عدم فاعلية الأحزاب هى عكس ماورد بشأن فاعلية الأحزاب تماما ، وأكثرها جلاء ووضوحا أن الأحزاب لاتقدم حلولا لمشاكل الناس ، وقد ذكر هذا المبرر بنسبة ٥٢٪ . وهذا يؤكد أن أهم مايريده الجمهور من الأحزاب أن تعمل على حل مشاكله .

والمبرر الثانى فى عدم فاعلية الأحزاب هو أنها لا تهتم إلا بتقديم مكاسب لأعضائها وقد ذكر بنسبة ٤ر٣٦٪ ، أما باقى الأسباب فهى تقترب إلى حد ما فى

وزنها النسبى لدى الجمهور ، وذلك مثل القول بأن الأحزاب الموجودة أحزاب ضعيفة (٥ر١٥٪) وعدم وجود ديمقراطية حقيقية (٣ر١٥٪) .

أما أدنى نسبة فى عدم فاعلية الأحزاب فى رأى الجمهور فهى أن بعضها غير ممثل فى مجلس الشعب (٦ر٢٪) .

ومن بين المحكات التى استخدمت لمعرفة تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب ، رأيه فى الأحزاب الموجودة وما إذا كانت تكفى أم أن هناك حاجة لتأسيس أحزاب جديدة . وقد أجاب الغالبية (٦ر٥٦٪) بأنها تكفى ، وأجاب ٢ر١٦٪ بأن هناك حاجة لأحزاب جديدة ، كما لم يستطع ٢ر٢٧٪ تحديد موقفهم بهذا الشأن .

وبالنسبة لمن ذكروا أن الأحزاب الموجودة تكفى كانت أسبابهم فى ذلك ، أن العبرة ليست بالعدد وإنما بما تقدمه للناس ، وأنه لاداع لأحزاب جديدة حتى لايحدث تشتت نتيجة كثرة العدد ، وأن الأحزاب الموجودة تعبر عن كل التيارات السياسية الموجودة ، وأن الظروف الاقتصادية للبلد لا تسمح بذلك .

أما من ذكروا أن هناك ضرورة لإيجاد أحزاب جديدة فيستندون فى ذلك إلى بعض المبررات منها ، أن الأحزاب الجديدة قد تكون أكثر ارتباطا بالناس ، أنه كلما زاد العدد زادت المنافسة وفى هذا صالح البلاد ، لتحقيق الديمقراطية بصورة أكبر ، وأخيرا لتمثيل بعض التيارات السياسية غير الممثلة فى أحزاب .

ولمعرفة رأى الجمهور فى مجلس الشعب ، سئلوا عما إذا كانوا يعتقدون أن أعضاء مجلس الشعب يعبرون بالفعل عن المشاكل التى تهم الأغلبية ، وقد كانت إجاباتهم كما يلى :

جدول رقم (١٦)

راى العينة فيما إذا كان اعضاء مجلس الشعب يعبرون عن مشاكل الجمهور

	ك	٪
نعم	٤٤٦	٤ر٣٢
لا	٢٥٢	٣ر١٨
أحيانا	٣٧٤	١ر٢٧
لا أعرف	٣٠٦	٢ر٢٢
المجموع	١٣٧٨	١٠٠

إذا أضيفت نسبة من أجابوا بنعم إلى من أجابوا بأحيانا تكون نسبتهم معا ٥ر٥٩٪ ، وهو مايعنى أن أكثر من نصف العينة يعتقدون أن ممثليهم فى مجلس

الشعب يعبرون عن المشاكل التى تهم الأغلبية . ولم يكن كافيا الوقوف عند حد معرفة رأى الجمهور فيما إذا كان نواب مجلس الشعب يعبرون بالفعل عن المشاكل التى تهم الأغلبية ، وإنما كان من المهم أيضا معرفة ما إذا كانوا يساهمون فى حل هذه المشاكل أم لا . ويعتقد ٢٤٪ من الجمهور أن أعضاء مجلس الشعب يساهمون فى حل هذه المشاكل ، كما يرى ٩ر٣١٪ أنهم يفعلون ذلك أحيانا ، بينما نفى ٩ر٢٠٪ مساهمتهم فى حل المشاكل ، كما قرر ٢ر٢٣٪ أنهم لايعرفون ما إذا كان أعضاء مجلس الشعب يساهمون فى حل المشاكل أم لا . وبسؤال أفراد العينة كلها عن تصورهم لأهم المشاكل التى يفترض أن يحلها أعضاء مجلس الشعب ، كانت هذه المشاكل كما يوضحها الجدول التالى هى :

جدول رقم (١٧)

المشاكل التى يجب ان يهتم بها اعضاء مجلس الشعب

	ك	٪
ارتفاع الأسعار	٨٨٦	٣ر٦٤
الإسكان	٤٥٩	٣ر٣٣
التعليم	٣٢٤	٥ر٢٣
الصحة	٣٠٩	٤ر٢٢
البطالة	٤٦٢	٥ر٣٣
توفير الغذاء	٣٦٣	٣ر٢٦
المرافق	٣٩٤	٦ر٢٨
مشاكل السياسة الخارجية	٩٨	١ر٧
انتشار المخدرات	٢٠٩	٢ر١٥
مشاكل أخرى	١٠٠	٢ر٧

من معطيات هذا الجدول يتضح أن هناك كما من المشاكل عبر عنها الجمهور ، ويرى أنها جديرة باهتمام أعضاء مجلس الشعب . ونستطيع أن نجزم بأنه لم يحظ سؤال واحد من كل أسئلة الاستطلاع بكل هذا القدر من التكرارات أو حتى بالتكرارات الخاصة ببند واحد . وهذا يدعم ويؤكد أن المشاكل تشكل بؤرة اهتمامات الناس ، وماعداها يقع على الهامش ، أما هذه المشاكل حسب أهميتها وفقا لعدد التكرارات الخاصة بكل منها فأهمها مشكلة ارتفاع الأسعار(٣ر٦٤٪) ، يليها مشكلة البطالة (٥ر٣٣٪) وإن كانت مشكلة البطالة تمثل نصف حجم مشكلة

ارتفاع الأسعار ، ثم مشكلة الإسكان (٣ر٣٣٪) ، فالمرافق (٦ر٢٨٪) ، فتوفير الغذاء (٣ر٢٦٪) ، فالمشاكل المتعلقة بالتعليم (٥ر٢٣٪) ، والصحة (٤ر٢٢٪) ، ثم مشكلة المخدرات (٢ر١٥٪) ، وأخيرا مشاكل السياسة الخارجية (١ر٧٪) .

وبالنسبة لرأى الجمهور فى مجلس الشورى ، وجه سؤال عام "تفتكر إن مجلس الشـــورى بيقدم شئ مفيد للناس" وكانت الإجابات كما يوضحها الجدول التالى :

جدول رقم (١٨)

راى الجمهور فيما إذا كان مجلس الشورى يقدم شيئا مفيدا

	ك	٪
نعم	٦٤٧	٢ر٦٣
لا	٢٥٦	٢٥
لا أعرف	١٢١	٨ر١١
المجموع	١٠٢٤	١٠٠

ويلاحظ أنه قد أجاب على هذا السؤال ٣ر٧٤٪ من أفراد العينة ممن ذكروا أنهم سمعوا عن مجلس الشورى وعددهم ١٠٢٤ فردا . ومن هذه الإجابات يتضح أن هناك نسبة كبيرة ترى أن مجلس الشورى يقدم شيئا مفيدا للناس ، وبسؤالهم عن ماهية هذا الشئ فى رأيهم ، أجابوا بأنه يسهم فى التالى :

مناقشة مشاكل البلد ٥٣٪ (٧٣١) ، ويساعد مجلس الشعب ٤ر٣٦٪ (٥٠٢) ، يعد بعض القوانين ٣ر١٣٪ (١٣٣) ، أسباب أخرى ٧ر٥٪ (٧٨) .

أما من أجابوا بأن مجلس الشورى لا يقدم مايفيد الناس فيبررون ذلك بعدة أسباب هى :

لاسلطة له ٤ر١٨٪ (٤٣) ، أنه صورة أخرى من مجلس الشعب ٧٩٪ (٢٠٣) ، لايقدم حلولا للمشاكل ٣ر٣٦٪ (٨٠) ،أنه يقدم فقط مكاسب لأعضائه ٩ر٦٩٪ (١٧٩) .

وفى النهاية ، سئلت عينة الاستطلاع إذا ما كان لديها أية مقترحات تود إضافتها فى موضوع الأحزاب ، وقد أجاب بالموافقة ٦ر١٠٪ فقط من العينة ، وقد تلخصت مقترحات هؤلاء وتركزت معظمها فى ضرورة قيام الأحزاب بحل مشاكل الناس ، وأن تعطى الأحزاب الأخرى فرصا مساوية للحزب الوطنى ، وأن تجرى الانتخابات بنزاهة وموضوعية .

مناقشة ختامية

يستخلص من نتائج هذا الاستطلاع بصفة عامة ، وجود نوع من الانفصال بين الجمهور وبين التنظيمات الحزبية السياسية . وهذا الانفصال منشؤه أمران : الأول هو انخفاض مستوى الوعى بالموضوع ، والذى ظهر أكثر ماظهر فى عدم معرفة نسبة لايستهان بها بالأحزاب وبالنظام الحزبى ، وأيضا لم يسمع الكثيرون عن مجلس الشورى ، هناك بلاشك تدنى فى المستوى المعرفى وفى المعلومات تغذيه وتدعمه الأمية . أما الأمر الثانى فهو استغراق الجمهور فى المشاكل التى لاتحل بالنسبة له ، والتى ظهرت فى أكثر من موضع من الاستطلاع . وقد أدت هذه الحالة إلى انخفاض درجة المشاركة السياسية فى كل مستويات المشاركة ، وذلك سواء بالنسبة للاهتمام بالحياة السياسية أو حضور الندوات والمؤتمرات والاجتماعات السياسية ، أو المشاركة فى العمليات الانتخابية كالمشاركة فى الحملات الانتخابية والتصويت والترشيح لعضوية الأحزاب وغيرها من المؤسسات السياسية . كذلك انعكس كل ما سبق على تقييم الجمهور لفاعلية الأحزاب ، حيث توجد نسبة لايمكن تجاهلها أو إغفالها ترى عدم فاعلية الأحزاب والتنظيمات السياسية بصفة عامة ، بل وترى أنه لا جدوى من وجودها أساسا .

ونظرا لأهمية الموضوع ، ولما تشهده الساحة السياسية من تفاعلات ، فإننا نأمل أن يكون هذا الاستطلاع بمثابة استكشاف عام لقضايا وأطراف الموضوع ، يمكننا من خلاله الانطلاق إلى دراسات أخرى أكثر عمقا وشمولا .

Abstract

THE OPINION OF THE PUBLIC TOWARD POLITICAL PARTIES AND THEIR PRACTICES

Salwa El Amry

This study aims to know the public's opinion about parties and their practices in Egypt. This aim is fullfilled through three levels: The first deals with the public's information and knowledge of party system. The second focuses on public's political participation, which is revealed in different forms, such as voting in elections, party membership, parliament membership and even giving consideration to political life. The third level concerns the masses evaluation of the already existing parties in the political domain.

المكانة الاجتماعية كعامل من عوامل الضبط الاجتماعى

دراسة أنثروبولوجية فى شمال سيناء*

محمد غنيم**

القبيلة هى الوحدة الأساسية لفهم المجتمع الصحراوى ، وهى وحدة إقليمية اقتصادية وقرابية وسياسية. وتتفاوت قبائل شمال سيناء فى المكانة الاجتماعية تبعا لاختلاف الأصل والعرق واللون والقوة العددية . وهذه الاختلافات تعتبر من أهم عوامل تنظيم العلاقات وتحديدها بين مختلف القبائل إذ تدرك كل قبيلة مكانتها ومكانها فى البناء القبلى بالنسبة لغيرها من القبائل وتسلك على هذا الأساس ، مما يؤدى فى آخر الأمر إلى إقرار الضبط الاجتماعى فى المجتمع ككل .

مقدمة

القبيلة هى الوحدة الأساسية لفهم المجتمع الصحراوى ، إذ أنها تؤلف وحدة اقتصادية وإقليمية وقرابية وسياسية متكاملة ، كما تعكس كل الأنساق التى يتكون منها المجتمع . والمجتمع البدوى يعتبر مجتمعا قبليا بالضرورة ، وقد ارتبط مجتمع سيناء بعدد من القبائل منذ زمن بعيد ، ولكن المادة التاريخية كانت إلى حد ما ضعيفة وغير متوفرة ، ولهذا فالأنثروبولوچيون كانوا دائما يستطيعون سد ذلك النقص عن طريق التاريخ كما يتصوره الأهالى، وبخاصة بعض الإخباريين الثقاة الذين يحفظون تاريخ حياة القبيلة التى ينتمون إليها . وقد أعتمدنا فى دراستنا هذه

* تعتمد هذه الدراسة على المادة الاثنوجرافية التى قام بجمعها فريق البحث الاثنوجرافى بتكليف من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية تحت إشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد . وقد استمرت الدراسة الميدانية فى شمال سيناء أكثر من سنة فى الفترة من ١٩٨٧/١١/١٤ إلى ١٩٨٩/١/١٠ . وكان كاتب المقال ضمن فريق البحث لبعض الوقت ، وقد قام الدكتور أحمد أبو زيد بمراجعة المقال كما تولى صياغة كثير من أفكاره وتقويم بعض عباراته .

** مدرس الأنثروبولوچيا ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة .

على بعض هؤلاء الإخباريين الثقاة من كبار السن ولديهم فكرة كاملة عن المجتمع ، ومنهم من يتولون شياخة قبائلهم ، ويحظون باحترام كبير فى القبيلة ، وحسن السمعة ومضرب المثل لبقية رجالات القبيلة ، فهم يتذكرون حكمتهم أثناء أحاديثهم العادية التى تدور داخل (مقاعد) القبيلة .

والعادة أن الباحث الأنثروبولوچى يعتمد على عدد محدود من الإخباريين الذين تتوثق صلته بهم ويثق فى خبرتهم فى المجال الذى يبحث فيه ، وتتوفر فيهم الذاكرة القوية والرغبة في التعاون معه ، والوقت الذى يسمح للباحث بالتردد عليهم لمتابعة جمع المادة البحثية ، فضلا عن توفر الدقة والأمانة فيما يدلون به من معلومات . ومن المؤكد أنه قد تختلف بل وتتناقض الروايات التى يدلى بها الإخباريون حول واقعة تاريخية معينة ، أو حتى العرف المتبع فيما يتعلق مثلا بالعلاقات القبلية أو بتوزيع القبائل ، أو بالأصول العرقية والمكانة التى تمثلها الجماعات القرابية المتمايزة ، وفى هذا كله لايسعى الباحث إلى تحقيق المعلومات بقدر عنايته بتفسير أسباب الاختلاف والتضارب فيها[1] .

ولقد استطاع الباحث الحصول على تأكيد للإجابات التى كان يجيب عليها الإخباريون عن طريق سؤال إخباريين آخرين عن تاريخ القبيلة مثلا ، ومن هى أهم تلك القبائل المتواجدة فى شمال سيناء ؟ (وتعد قبيلة السواركة أهم تلك القبائل والتى دارت حولها أكثر المقابلات مع الإخباريين) . وفى قرية التومة بالذات كان للباحث العديد من الصداقات التى قامت بينه وبين مجموعة من كبار الشيوخ سنا ومكانة فى تلك القبيلة . والباحث الأنثروبولوچى عموما يعتمد أثناء دراسته الحقلية على ذكريات الشيوخ من أعضاء المجتمع الذى يدرسه ، ليعرف ملامح الثقافة بل وأيضا أنماط السلوك والنظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى الماضى القريب كما يتذكرها الناس ، أو كما يتصورون حدوثها ، كذلك قد يعتمد على القصص والأساطير التى تحكى أحداثا كثيرة حدثت فى الماضى البعيد .

بيد أن مالينوفسكى Malinowski لايعتبر ذلك تاريخا أو اتباعا للمنهج التاريخى ، وذلك لأن الذكريات الحية فى أذهان الناس وكذلك القصص والأساطير تؤلف فى نظره جزءا من الحياة الاجتماعية والثقافية القائمة بالفعل ، وأنه يجب على الباحث أن يعاملها على هذا الأساس ، ويضعها على مستوى واحد مع الظواهر التى يراها ويلمسها بنفسه فى الواقع المعاش ، أى يعتبرها جزءا من النسق الثقافى العام [٢،٣] .

كما اعتمد الباحث أيضا على الملاحظة الدقيقة عن قرب والمشاركة فى

بعض النشاطات المتنوعة للقبيلة . وتعتبر طريقة الملاحظة بالمشاركة من أهم مايميز الدراسات الأنثروبولوچية الحقلية ، ويعتمد عليها الباحث بعد أن تتأصل العلاقة الشخصية التى تربطه بأعضاء القبيلة ، أى بعد أن يكسب ثقتهم فى جدوى العمل الذى يقوم به بينهم ، وقدرته على مساعدتهم وأمانته على أسرارهم . ولاشك أن منهج الملاحظة يحتاج إلى المشاركة الفعلية فى أحداث ووقائع الحياة اليومية ، فى تحركاتهم وأسواقهم ومواسمهم الاقتصادية ومنازعاتهم ، وتسجيل هذه المشاهدات [٤] .

كذلك قام الباحث بإجراء بعض المقابلات ، واستند فيها إلى تاريخ حياة عدد من الأشخاص الذين اعتبروا ممثلين لثقافة ذلك المجتمع ، وتتبع تطور تلك الشخصية من خلال الأدوار الاجتماعية التى يقومون بها ، وأيضا لتحديد مقومات اختيار الشخصيات القيادية ، مثل شيخ القبيلة وقائد الحرب وشيوخ القانون العرفى ، مما يفيد الرؤية الشاملة لمجتمع الدراسة .

ويلخص أحمد أبو زيد المبادئ الأساسية التى توجه البحث الميدانى فى المجتمعات القبلية فى النقاط التالية : الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة واعتبارها الأداة الرئيسية للبحث ، والجمع بين طول الفترة الزمنية التى يستغرقها البحث ، وصغر حجم الوحدة الاجتماعية التى يجرى فيها البحث ، والدخول فى حوار مستمر مع الظواهر الاجتماعية لفهم معناها والكشف عن الخيوط التى تربط بين الظواهر والنظم والأنساق بعضها ببعض داخل البناء الكلى ، مع إعطاء أهمية خاصة للنسق القرابى باعتباره ركيزة أساسية يقوم عليها الكثير من النظم الاجتماعية الأخرى ، والاهتمام أيضا بالأدبيات المتعلقة بمجتمع البحث ، ويستوى فى ذلك كتب الرحلات أو القصص أو الأساطير أو الكتابات العلمية المختلفة بما فى ذلك تلك التى تتناول موضوعات وجوانب تخرج عن نطاق تخصص الباحث ، ولكنها بغير شك تساعد على الوصول إلى فهم أفضل وأعمق للحياة الاجتماعية [٥] .

المكانة

هناك العديد من المصطلحات التى قد تتشابه إلى حد كبير مع بعضها البعض ، ولكنها قد تختلف أيضا إلى حد أكبر من حيث التفسير الأيدولوچى لكل منها ، كما هو الشأن بالنسبة لمصطلحات المكانة ، والوضع ، والصفوة ، والطبقة ، تعبر عن

وضع معين فى النسق الاجتماعى .

فالمنزلة أو المكانة status فى رأى البعض هى مركز محدد المعالم ، يمنح المجتمع شاغله حقوقا ، ويفرض عليه واجبات محددة تتمثل فى كثير من العلاقات والفعاليات الاجتماعية . والمنزلة إما مكتسبة ، وهى التى يبلغها الفرد بسلوكه وإنجازاته التى يحققها . أو متوارثة ، ويحصل عليها الفرد لانتسابه إلى عائلة أو جماعة عرقية أو فئة معينة . ويرد مصطلح المنزلة أو المكانة فى الكتابات الأنثروبولوچية موصوفا بـ "اجتماعية" ، فيدل على منزلة الفرد فى النسق الاجتماعى كما يرد موصوفا بـ "اقتصادية" ، فيشير إلى منزلته فى النسق الاقتصادى [٦] .

والبعض الآخر ينظر إليها على أنها تعبر عن وضع معين فى النسق الاجتماعى ، ويتضمن ذلك التوقعات المتبادلة بين الذين يشغلون الأوضاع المختلفة فى البناء أو النسق ، أو هى الوضع الذى يشغله الفرد أو الجماعة فى ضوء توزيع الهيبة فى النسق أو توزيع الحقوق والالتزامات والقوة والسلطة ، كأن نقول مكانة عليا ومكانة دنيا . وقد استخدم هذا المصطلح فى العلوم الاجتماعية بعد الدراسات التى قدمها بعض الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين الأوربيين عن السلطة والقانون والنظام الاجتماعى العام ، من أمثال هوبز Hobbes ولوك Locke وسميث Smith، وقد افترض هؤلاء الفلاسفة أن هناك علاقة بين استمرار المجتمع وتباين القوة والامتيازات بين الناس ، وورثت العلوم الاجتماعية عن الفلسفة الاجتماعية مصطلح المكانة ، وهو مصطلح قانونى أساسا يشير إلى القدرات القانونية للفرد ، والتى تمكنه من تدعيم الحقوق والالتزامات القانونية إما لنفسه أو للآخرين . كذلك استخدم هنرى مين Henry Maine المصطلح حينما ذهب إلى أن المجتمع يتطور من الاعتماد على المكانة إلى الاعتماد على العقد . وفى ضوء هذه الظروف اختار لينتون Linton مصطلح المكانة ليعنى به وضع الفرد فى المجتمع ، وحدده بأنه مجموع الحقوق والالتزامات ، وأن الدور هو الجانب السلوكى لتنفيذ هذه الحقوق والواجبات [٧] . وهو التعريف الذى أخذ به الباحث فى دراسته الحالية .

أما مفهوم الوضع فيشير إلى الموقع الذى يحتله الفرد ضمن مجموعة معينة، أو الموقع الذى تحتله المجموعة فى مجتمع معين . وبذلك يكون للوضع بعدان : الأول ويمكن وصفه بالأفقى ، والثانى يمكن وصفه بالعمودى . نعنى بالبعد الأفقى للوضع شبكة الصلات والمبادلات الواقعية أو الممكنة ببساطة التى يقيمها

الفرد مع أفراد آخرين يكون موقعهم فى نفس مستوى موقعه ، أو على العكس تلك التى يسعى هؤلاء الآخرون لإقامتها معه . أما فيما يختص بالبعد العمودى ، فهو يتعلق بالصلات والمبادلات التى يعقدها مع من هم أعلى منه أو أدنى منه ، أو على العكس تلك التى يسعى من هم أعلى منه أو أدنى منه إلى عقدها معه ، وبالتالى فالوضع هو مجمل العلاقات المساواتية والتسلسلية لأحد الأفراد مع سائر أعضاء الجماعة ، ومايتصل بذلك من حقوق واقعية أو ممكنة يكون للفرد حق الحصول عليها.

ويطلق على الأشخاص الذين يحتلون مكانة أو وضعا متميزا فى النسق الاجتماعى كلمة أو مصطلح الصفوة . ونجد أن عددا قليلا من أفراد المجتمع يتمتعون بأرفع المنازل الاجتماعية ، ويشغلون مراكز قيادية ، لأنهم يمتازون بصفات يعتبرها المجتمع صفات مثلى ، وتختلف هذه الصفات من مجتمع لآخر ، فقد تكون الشجاعة أو الكرم ، أو البراعة فى قيادة المعارك ، أو الإلمام الواسع بتاريخ المجتمع وتقاليده ، أو النسب الرفيع ، أو المركز الدينى السامى ، أو المكانة السياسية ، وغير ذلك . ويطلق المصطلح فى العادة على الأقلية الحاكمة ، أو على الفئات التى يختار منها أفراد تلك الأقلية [١١] .

ورغم صعوبة صياغة مفهومها ، إلا أن فكرة المكانة تعد جوهرية لفهم الطبقات الاجتماعية . وقد اتضح جليا للسسيولوجيين أن الأفراد فى كل المجتمعات ينقسمون إلى فئات وطبقات ، وأن أساس هذا الترتيب فى بعض الأحيان بسيط نسبيا مثل الجنس والعمر ، وأحيانا تكون التقسيمات كثيرة ومعقدة. وفى الماضى كان مصطلح المكانة مصطلحا قضائيا يشير إلى حقوق الفرد وواجباته كما يتلاءم وظروفه ووضعه فى الحياة ، ومع ذلك نجد أنه فى القرن التاسع عشر ، بعد أن زعزعت الحركات الاجتماعية النظام القديم فى صلبه وأصوله ، علق الكسى دى توكوفيل Alexis de Tocqueville أنه يمكن أن نلاحظ اهتماما سريعا نحو المكانة أو الوضع . وبالنسبة لذوى المكانة الأعلى فإن الحق الموروث يعطى بعض المزايا والشرف الذى يبدو فى التلاشى بالنسبة لذوى المكانة الأدنى ، وإن تولد الأمل فجأة فى تغيير قدرهم ومصيرهم بتغيير المكانة . والتغيرات الجادة فى أوضاع المكانة وظروفها التى نبعت من تلاشى الميزات التى توجد لدى أصحاب الطبقة العليا لم يكن لها أن تتضمن بصورة شاملة فى

التعريف بالقانون القديم لإصلاح المكانة ، إلا أنه قبل اتساع مجال التعريف كان صالحا كأسلوب وأداة للتحليل .

وقد ظهر المصطلح فى كتابات ماكس فيبر Max Weber الذى أوضح أن المكانة والطبقة الاجتماعية ، والثروة والدخل ، والقوة السياسية هى الأبعاد الثلاثة للتقسيم الطبقى الاجتماعى ، ولم تتضح لمن الأولوية فيها ، إلا أن فيبر قد أشار إلى أنه إذا كان للفرد مكانة عالية ، فإن الثروة يمكن أن تتبع ذلك رغم أن كليهما يتداخل عادة كنواتج عن توزيع القوة . وحديثا أكد جيرث Gerth وميلز Mills أن موقف المكانة ليس ثابتا . وقد أوضح هارولد جارفينكل H.Garfinkel عام ١٩٥٦ فى بحثه عن تدرج المكانة الدور الحيوى الذى يلعبه الجمهور فى تقرير مصير الساعى إلى المكانة أو من له الأحقية فى الحصول على تلك المكانة .

ولقد كان هناك تفسير مختلف لعالم الأنثروبولوچيا رالف لنتون Ralph Linton للمكانة ، حيث ينظر إليها فى ضوء البنية الاجتماعية بما تتضمنه من حقوق وواجبات وتوقعات سلوكية لايعتمد أى منها على السمات الشخصية لصاحب الوضع أو المكانة الاجتماعية . أما ميرتون Merton فقد افترض أن للأفراد عددا من الأوضاع الاجتماعية تؤلف نظاما للمكانة الاجتماعية . وخلاصة القول أن هناك فكرتين رئيسيتين ظهرتا نتيجة لذلك :

أ - المكانة كما يراها ماكس فيبر وأتباعه .

ب - المكانة كما يراها لينتون وآخرون .

كما أنه يمكن التمييز بين :

أ - مكانة النسب ، وهى المكانة الموروثة عن طريق الجنس والسلالة والسن ، وهى أبعاد جوهرية فى تحديد الإطارات الأساسية فى حياة الإنسان .

ب - مكانة مكتسبة ؛ عن طريق المجهود الشخصى ، أو بالصدفة ، وربما تأتى من مكاسب وظيفية أو تعليمية .

وقد أوضح فيبر أن الجماعات ذات المكانة الأدنى هى جماعات أيضا تؤمن بكرامتها وشرفها ، وبالنسبة للعديد من هذه الجماعات كالسود واليهود وفصائل الهنود الدنيا ، فإن الافتقار إلى القوى الاجتماعية وملامح المكانة المكتسبة هى التى تربطهم بعجلة القدر. ويشير ارفنج جوفمان Erving Goffman إلى أن هناك بعض الرموز التى من شأنها أن تظهر وضع مكانة الإنسان الاجتماعى فى المجتمع ، وهى اللغة التى يتحدث بها ، وقواعد الإتيكيت التى يعمل بها ، وأيضا

الإشارات التى يستخدم فيها يديه ، وبعض المصطلحات التى يذكرها ، والمقتنيات المادية لاسيما التى يكون من الصعب الحصول عليها وامتلاكها ، وهذه الرموز هى التى تحدد كل جماعة وتميزها عن غيرها من الجماعات [١٢] .

وأحيانا يطلق على الأشخاص الذين يحتلون مكانة أو وضعا فى النظام الاجتماعى أنهم يمثلون صفوة المجتمع أو الجماعة . والصفوة Elite تتألف من عدد قليل من أفراد المجتمع يتمتعون بأرفع المنازل الاجتماعية ويشغلون مراكز قيادية ، وقد سبقت الإشارة إلى المقومات الأساسية التى تؤلف الصفوة فى المجتمع [١٣] .

ولقد استخدمت كلمة صفوة فى القرن السابع عشر لوصف السلع ذات النوعية الممتازة ، ومالبث هذا الاستخدام أن اتسع للإشارة إلى الجماعات الاجتماعية العليا كبعض الوحدات العسكرية أو المراتب العليا من النبالة . وطبقا لقاموس اكسفورد ، فإن أقدم استخدام معروف فى اللغة الانجليزية لكلمة صفوة كان سنة ١٨٢٣ حينما كانت تنطبق بالفعل على بعض الجماعات الاجتماعية . بيد أن المصطلح لم يستخدم استخداما واسعا فى الكتابات الاجتماعية والسياسية الأوربية بوجه عام إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وفى ثلاثينيات القرن العشرين فى بريطانيا وأمريكا بوجه خاص ، حينما انتشر المصطلح وساد استخدامه فى النظريات السوسيولوجية للصفوة [١٤] .

ولقد لفت فريدريك Friedrik الأنظار إلى الحقيقة التى مؤداها أن المذاهب الأوربية خلال القرن التاسع عشر، خاصة تلك المتعلقة بحكم الصفوة ، وهى المذاهب التى تتضمن فلسفة كارليل Carlyle عن البطل ووجهة نظر نيتشه فى الإنسان الأعلى ، فضلا عن دراسات موسكا وباريتو وبوركهارت Burckhart مثل هذه المذاهب كانت جميعها نتاجا لمجتمع لايزال يشهد بقايا النظام الإقطاعى ، وأن هذه المذاهب قد عبرت عن محاولات مختلفة عديدة حاولت إحياء الأفكار القديمة المتعلقة بالتسلسل الاجتماعى ، وإزالة العقبات التى كانت تعوق انتشار الأفكار الديموقراطية . ولقد قدم چورج لوكاش Lukacs محاولة ضيقة النطاق نسبيا لتحديد البيئة الاجتماعية التى ظهرت من خلالها هذه المذاهب ، حيث ذهب إلى أن علماء الاجتماع فى هذه البلدان قد أثاروا مشكلة القيادة السياسية ، لأنهم أحسوا أن بلدانهم لم تنجح فى إقامة ديموقراطية برجوازية حقيقية ، أى أن العناصر والسمات الإقطاعية قد ظلت قوية تمارس دورها ، كذلك أشار لوكاش

إلى مفهوم ماكس فيبر عن الكاريزما Charisma فى ألمانيا ومفهوم باريتو عن الصفوة فى إيطاليا [١٥] .

المكانة القبلية والعلاقات بين القبائل

فى شمال سيناء - منطقة الدراسة - نجد أن المكانة التى تحتلها بعض القبائل تجعلها قادرة على الحفاظ على تماسك الجماعة ، وتنظيم العلاقات فيما بين القبائل، وأيضا تنظيم العلاقات بين أفراد القبيلة الواحدة ، وهى تعتبر قوة رادعة من قوى الضبط الاجتماعى فى المجتمع [١٦] .

ومن الدراسة الميدانية اتضح أن أقل القبائل شأنا فى شمال سيناء يطلق عليها لفظ "أهتيم"، وهما - كل من قبيلة "الملالحة والدواغرة" ، أما أكبر القبائل وأعظمها عددا ومكانة قبيلة السواركة والترابين والتياها . والقبائل الكبرى هذه تكون كثيرة العدد ، وتاريخها معروف لدى سائر القبائل منذ عهود قديمة ، وكذلك تكون أصولها وأيضا صفاتها معروفة لديهم .

فمثلا دائما مايقال على الرجل المنتمى إلى قبيلة الملالحة أنه يهاب السير فى الصحراء ليلا ، كما أنه يخشى من الوحوش الضارية ، وخاصة الضباع ، ولهذا فيقال عنهم الملالحة مايجيبوا التار ولايقدروا يحموا من العار .

وأيضا يقال عن قبيلة الدواغرة دول كفل لايكفلوه والعهد بينقضوه ، ويعرف عن الترباني الذى ينتمى إلى قبيلة الترابين أنه غادر ولكنه أفضل من التيهى عضو قبيلة التياها الذى يفوقه فى ذلك الغدر . وهناك بعض الاختلافات بين القبائل ، ويتضح ذلك فى حالة إرسال أحد الأشخاص لطلب العطوة * مثلا ، فإنه يذهب فى أى وقت من الأوقات ، سواء بالليل أو النهار ، وذلك إذا كان ذاهبا إلى قبيلة

* العطوة هى المدة الزمنية التى تؤخذ من قبيلة أو عائلة المجنى عليه للجانى ولقبيلته أو عائلته . وهى بمثابة هدنة يتوقف خلالها الشجار والقتال بين الطرفين تماما . وهذه العطوة تؤخذ بمعرفة الوسطاء من العائلات أو القبائل الأخرى غير المشتركة فى النزاع الذين توسطهم عائلة أو قبيلة الجانى حقناً للدماء ، والعطوة شبه الزامية أو إجبارية لأفراد العائلة الواحدة أو القبيلة الواحدة أو الجيران ، بدليل أن "مهمل العطوة" يغرم ، أما الغريب المعتدى فلا غرم عليه إذا أهمل طلب العطوة. فالهدف من العطوة هو إعطاء الفرصة لتهدئة النفوس وتجاوز فترة الغضب والانفعال ، حيث يتم خلالها وقف أى اتصال أو لقاء بين أطراف النزاع ، كما أن تدخل الوسطاء وأهل الخير لإحداث العمار ، أى الصلح بينهم ، لكفيل بترضية النفوس الثائرة مما يجعلها تتقبل إحالة النزاع إلى القاضى العرفى المختص ، وتحديد موعد نظر القضية ، فإذا ماوصل الأطراف إلى القضاء كانوا مهيئين لتقبل حكم القاضى وإتمام التصالح .

السواركة حيث إنها لاترده إطلاقا ، أما إذا ذهب عند قبائل وسط سيناء مثل الترابين فيجب أن يذهب بالنهار ، وإذا ذهب إليهم ليلا فإنهم يردونه ثانية ، ويقدمون له حجة ذلك بأن الوقت غير مناسب ، دون أن يقدروا مشقته فى الوصول إليهم .

وأيضا نجد أن فتاة الترابين تلتقى بالشاب فى المرعى ولاخوف فى ذلك ، ويكون الأهل على دراية بذلك ولايتذمرون من هذا الوضع ، طالما أن الفتاة لم تشتك من أحد هؤلاء الشباب ، فهذه العلاقة عندهم مباحة طالما أنها محترمة ، أما فتاة السواركة فإنها تتميز بالاحتشام والاحترام ، وقد تتحدث مع الفتيان ، ولكن من المستحيل أن يتحول الحديث إلى الغزل ، لأن ذلك يعتبر من الأفعال المشينة التى لاتليق بمكانة قبيلة السواركة . فمثلا يذكر أحد أفراد قبيلة السواركة أن الترباني لايفقه شيئا عن أصول الدين ، وقد يكون وسط جماعة منهم فرد أو فردان يقيمان الصلاة ، والباقى لايعرف ، والصلاة تكون غير صحيحة ، لاحظ أن ذلك حديث أحد أفراد قبيلة السواركة الذى يشعر بمكانة قبيلته التى تعلو قبيلة الترابين فى نظره ، ثم يذكر دليلا على تعصبه القبلى لقبيلته أن السواركى يعطى للدين حقه ، والقبيلة كلها تفهم جيدا وتقيم شعائر الإسلام من صلاة وصوم وزكاة . ونجد أن امرأة السواركة ترتدى برقعا ، أما امرأة الترابين فإنها تكتفى بارتداء القنعة فقط ، وتحجب وجهها بواسطة القنعة أيضا عندما ترى الرجل .

وأيضا مقعد السواركة يدخله الضيف من جهة اليمين ، وذلك لأن المقعد يكون على يمين البيت . أما مقعد الترابين فيتم دخوله من جهة الشمال ؛ لأنه يقام على شمال البيت . ويرتدى السواركى الكبير قفطانا مفتوحا ، أما الترباني فلا يرتديه ، وأيضا إذا سأل السواركى عن شئ فإنه يقول الصدق ، أما الترباني فعندما يسأل عن شئ لايقول الحق ، خاصة وإذا كان السائل غريبا عنه ، نلاحظ أن المتحدث هنا ينتمى إلى قبيلة السواركة القبيلة المنافسة للترابين فى المكانة ، حيث إن الترباني لا يعطى الأمان مطلقا للغريب .

وكل قبيلة من قبائل شمال سيناء تختص بشئ معين ، وبالتالى تحتل مكانة تختلف عن بقية القبائل . فمثلا بالنسبة للفصل فى المنازعات ، نجد أن المسعودى ، وهو القاضى المختص بقضايا المنشد الذى يقام عند الاعتداء على الفتاة أو التعرض لها بالسب أو الضرب ، ويسمى أبو الولايا ، وهو فى الغالب من المساعيد . بينما نجد أن مناقع الدم ، وهم القضاة المختصون بالفصل فى قضايا

القتل من قبيلة بيلى . ونجد أيضا أهل العرايش هم المختصون بفض النزاع حول مشاكل الأرض وحيازتها ، وهم من قبيلة البياضية ؛ لمهارتهم في الفصل فى قضايا النخل . وهناك قضاة آخرون قد يكونون من داخل كل قبيلة ، فنجد مثلا الضريبى فهو بمثابة قاضى الإحالة فى القانون الوضعى ، ولابد من أن تمر عليه جميع القضايا فى البدء . والزيادى هو القاضى المختص بالسرقة داخل القبيلة . والأحمدى وهو القاضى المختص بحق البيت ، حيث إن للبيت سبع ستائر من الحرير والعديد من الحبال ، وكل ذلك يعد له حق عند انتهاك حرمة البيت . والعقبى هو القاضى الذى يختص بقضايا المرأة المحصنة ، والذى يتولى الحفاظ على حقوق النساء . أما المسوق فهو الشخص الأمين الذى يفهم الإبل من خلال النظر إلى أسنانها ، فإذا أراد أحد الأفراد أن يبيع جملا إلى شخص آخر وقال له المشترى إنه ضعيف أو مصاب بالهزال ، هنا يأتى بالمسوق ويقدر حالة الجمل إن كان يصلح أو لا يصلح ، وهو أيضا الذى يكتب ويسجل الأشياء التى تسدد بدلا من المال ، سواء كانت هذه الأشياء جملا أو غبيطا أو خشبا أو ملابس .

عموما نجد أن كل شخص ينظر إلى قبيلته على أنها أفضل القبائل وأكثرها مكانة وعزة ، ثم تختلف القبائل بعد ذلك فى ترتيب غيرها بالنسبة لها ومن وجهة نظرها الخاصة . فالترابين مثلا تعتبر نفسها أكبر القبائل ، ويأتى بعدها قبيلة السواركة ، ثم قبيلة التياها ، فالبياضة ، فالدواغرة ، فالرميلات لأن عددها صغير، وأراضيهم قليلة ، وعلى حد قول أحد الإخباريين الرميلى مش هزّاز رماح وكل أراضيهم شراء من القبائل الأخرى ، وليست ملكا لهم ، وهذا التمييز على أساس الكثرة العددية والقوة . وقبيلة الفوايدة هى أصغر قبيلة من حيث العدد . وهم يقيمون بين الترابين والتياها على الحدود الدولية . وقبيلة السواركة عشيرة الجريرات هم أصحاب السلطة الدينية ، ومنهم الشيخ عيد أبو جرير الذى نشر الدعوة بسيناء ، ومنهم أيضا الشيخ مبارك أبو جرير ، بالإضافة إلى عشيرة الحرزات ومنهم أصحاب طريقة دينية وصالحون ومشهورون بين القبائل بالتقوى .

وأيضا من أصغر القبائل قبيلتا الدواغرة والملالحة ، لأنهما قبيلتان لم تدخلا أى حروب ، وليس لهما موطن ، وهم ينتشرون فى أراضى السواركة أو بين السواركة والبياضية . وقبيلة العزازمة هى أقل القبائل من حيث العدد والمكانة ، ومنهم من هم يعملون للآن قصاصين للأثر مع اليهود بحثا عن الأشخاص الذين يحاولون التسلل . أما أفراد قبيلة السواركة فيرون أن أفضل قبيلة هى السواركة ،

ثم تأتى بعد ذلك قبيلة الترابين ، ثم قبيلة الاحيوات ، فالبياضية ، فالتياها ، فالرميلات ، وبعدها الدواغرة فهم الأقلية فى سيناء ، ولهذا فالتمييز بين القبائل يتم على أساس العدد والكثرة وأماكن انتشار القبيلة .

أما بالنسبة لقبيلة الدواغرة ، فإنهم فى السابق أتوا فعلا فاحشا ، فدعا عليهم كبيرهم قائلا كونوا أهيتم . وتعرف قبيلة الترابين بين القبائل - على حد قول أحد الإخباريين - بأنها تتسم بالغدر ، ولكنها أفضل إلى حد كبير من قبيلة التياهة، حيث إنها تفوقها فى ذلك ، وهم أصلا ليسوا بأعراب ، حيث إنهم ضلوا فى بعض الروايات من بنى إسرائيل . ويعرف عن قبيلة الملالحة والدواغرة أنهم ضعاف مكسورين الخاطر صابرين على الذل متهاونين فى حقهم . ففى حالة نزول الدواغرى أو الملالحى فى منطقة قبيلة أخرى لايسأل عن سبب مجيئه أو يتشكك فيه أحد ؛ لأن أحدا لايخشاه . بينما العكس إذا جاء سواركى أو تيهى لابد وأن يعرف سبب مجيئه ، ويؤخذ بعين الاعتبار ترتيب القبائل حسب السيطرة والقوة فى منطقة وسط سيناء وهى الإحيوات ثم التياها ثم النخلاوية [١٧] .

ومن جماعة الدم تنشأ جماعة المكان ، فالعائلة لاتستطيع أن تعيش فى عزلة دائمة ، وإنما هى تحتاج لأن تدخل فى علاقات مع غيرها من الجماعات التى من نفس النوع ، والتى تعيش فى المناطق المجاورة ، مما يؤدى إلى ظهور ما يسميه تونيز Tonnies بعلاقات الجوار ، وهى علاقات من الدرجة الثانية ، وذلك على اعتبار أن علاقات الدم هى علاقات من الدرجة الأولى نظرا لأصالتها .

وبينما تقوم علاقات الدم والقرابة فى جوهرها على أساس عضوى ، فإن علاقات الجوار تقوم على الملكية المشتركة للأرض ، والاستغلال المشترك لتلك الأرض . وهذا هو الأساس الذى ترتكز عليه وحدة الحياة الريفية ، والذى يعطى هذه الحياة خصائصها ومقوماتها ، كما تتمثل فى القرية . وتحدد الأرض المشتركة درجة تركز وتجمع السكان بعضهم إلى جانب بعض تماما مثلما يربط الدم فى العائلة بين ذرية السلف الواحد . ويؤدى التعاون بين أعضاء القرية - وهو تعاون يقوم فى نظر "تونيز" على العواطف الطيبة والمشاعر النبيلة - إلى إقرار النظام وحسن الإدارة ورسوخ قواعد الضبط الاجتماعى ، وفى ذلك يلاحظ تونيز أن العامل الأول فى تحديد "جماعة المكان" أو "الجيرة" هو القرب المكانى ، وتجاور المساكن ، وأن هذه "الجماعة المحلية" تظل محتفظة بكثير من العلاقات والروابط بين أفرادها حين يتفرقون ويتباعدون ، إذا هم ظلوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ،

وملكيتهم الجماعية للأراضى والحقول ، وبالشعائر والطقوس والاحتفالات التى تدعوهم للتجمع فى مواسم معينة (١٨) .

وحتى تحتفظ القبيلة بمكانتها فإنها تتمسك بالزواج الداخلى أو الزواج من قبائل أخرى معينة بالذات ، بينما تترفع عن الزواج من قبائل أخرى ، إما لأسباب تاريخية أو عرقية أو حتى لاختلاف لون البشرة . وتشهد هنا على ذلك بعض الأمثلة .

١ - «امتناع بعض القبائل الرعوية عن التزاوج مع "الدواغرة" استناداً إلى أحداث قد تكون غير صحيحة من الناحية التاريخية ، "فالترابين" يحرمون الزواج من "الدواغرة" نظراً لخيانتهم للنبى نفسه وخذلانهم له فى إحدى الغزوات ، لدرجة أنهم كانوا ينقلون المعلومات عن المسلمين إلى الكفار حتى اكتشف الرسول ذلك ، حين مرت بمعسكر المسلمين امرأة "داغرية" ارتاب النبى فى شأنها فأمر بتفتيشها وعثر على رسالة إلى الأعداء كانت تخفيها تحت غطاء الرأس، وحينئذ قال النبى محذرا من "الدواغرة" «لاتأخذوا منهم ولاتعطوهم» . فالامتناع عن الزواج من الدواغرة يكاد أن يصل إلى مرتبة التحريم الدينى امتثالاً لأوامر النبى . كما أن الدواغرة يعتبرون فى نظر القبائل الأصلية فى شمال سيناء ناقضى عهد ، ويقولون عنهم فى ذلك أنهم «كفل لايكفلون وعهد ينقضون أو لا يأخذون منكم ولا يعطونكم» .

٢ - «إعطاء أولوية شبه مطلقة للزواج الداخلى ، باعتباره وسيلة لحفظ الثروة والمحافظة على العصبية ، وإن كان الزواج الخارجى يؤدى إلى تنمية المصالح الاقتصادية للوحدات القرابية المتصاهرة ، وإلى اكتساب المنعة السياسية على اعتبار أن الأصهار يتآزرون معاً لدرء خطر الجماعات القرابية الأخرى المعادية . كذلك تتفاعل مظاهر السلوك والعلاقات والروابط الاقتصادية والقرابية والسياسية والقانونية مع التعاليم الدينية وتتأثر بها . فالدين يرسم قواعد توزيع الثروة فى حالة الميراث ، ويحدد قواعد الزواج ، ويهيئ أساساً صلباً يرتكز عليه نسق القيم والأخلاق والقانون العرفى . وهكذا وحتى فى الحالات التى يقنع الباحث فيها بدراسة مجموعة معينة من الظواهر أو أحد النظم الجزئية وليس المجتمع ككل فإن ذلك لن يعفيه من أن يدرس ذلك الجزء فى تأثره بالنظم الأخرى وتأثيره فيها . فنسق القرابة مثلاً ، أو التنظيم القبلى فى المجتمع البدوى ، أو حتى ملكية مصادر المياه "الآبار" ، أو حق الانتفاع

بالأرض ، أو حقوق الرعى تفرض على الباحث - رغم أنها جزئية محددة - أن يدرسها فى ضوء هذه النظرة الشاملة الكلية . فللقرابة كما ذكرنا جوانبها الاقتصادية والسياسية والقانونية التى تفرض التزامات معينة على أفراد الجماعة القرابية ، كما يخضع سلوك أفراد هذه الجماعة للقيم الدينية والمبادئ الأخلاقية والقانونية ، بل وأحياناً للأساطير والمعتقدات الغيبية . وملكية مصادر المياه التى هى جزء من النسق الاقتصادى لن يمكن فهمها حق الفهم إلا إذا درست فى علاقتها بمشكلة الانتفاع بالأرض وحقوق الرعى ودورة الزراعة ونظام توزيع الماء ، وهى كلها إجراءات تتم على أسس قرابية ، كما أن لها جوانبها السياسية التى تتمثل فى حقوق الأقسام القبلية المختلفة فى تلك الآبار ، والمشكلات التى قد تنجم عن ذلك ، وطرق وأساليب فض النزاع بالالتجاء إلى القانون العرفى وهكذا ، ولكن من بين كل تلك الأنساق التى ذكرناها يمكن اعتبار نسق القرابة بالذات مدخلاً من أفضل وأجدى المداخل لفهم المجتمع البدوى ، فعلى الرغم من كل ماطرأ على المجتمع البدوى من تغيرات نتيجة للاحتكاك بالمجتمعات والثقافات الأخرى ، أو تنفيذ بعض مشروعات التنمية فلايزال يحتفظ فى ملامح التنظيم القبلى وبنائه التقليدى بالقيم والمبادئ التى تحكم هذا النمط من التنظيم ، والذى يرتكز أساساً على الروابط القرابية والمتخيلة وماتفرضه هذه الروابط من حقوق وواجبات» . على مايقول أحمد أبو زيد فى كتابه عن الأنساق (١٩) .

ينقسم مجتمع شمال سيناء إلى مجموعة من القبائل ، كما تنقسم القبيلة الواحدة إلى مجموعة من الأسر ، وكل قبيلة وكل عشيرة لها شيخ يسمى شيخ القبيلة أو شيخ العشيرة ، وهو الذى يقوم بتنظيم أمور القبيلة أو العشيرة ، ويحدد علاقاتها مع غيرها من القبائل ، أو العشائر .

والعلاقات بين القبائل تأخذ صوراً ثلاث هى .

اولا : علاقات التحاشى

تكون هنا كل قبيلة على دراية بحدودها ، وتتحاشى الاقتراب من أرض القبيلة الأخرى ، مع وجود بعض التحريمات ، مثل عدم الزواج بينهم ، فنجد أنه لاتوجد علاقة زواج بين قبيلة "الترابين" وقبيلة "بيلى" . والأسباب التى يرجع إليها تحريم الزواج من قبيلة "بيلى" مؤداها أن أجداد قبيلة بيلى ينتمون إلى فترة وجود

الرسول، وقد أصدر الرسول - كما تقول إحدى الروايات - أمرا مؤداه كما يقولون "لاتأخذوا منهم ولا تعطوهم" ، ففسروا هذا الأمر على أنه يجب عدم التعامل مع هذه القبيلة، بما فى ذلك تحريم الزواج منهم . كذلك الحال بالنسبة لتحريم الزواج من قبيلة الملالحة التى عرف عنها أنها مسالمة للغاية ، وكان جدهم الأكبر "أبوهريرة" مسالما جداً ، وفى السنوات السابقة كانت الحروب بين القبائل لاتنتهى ، فأصبح أكثر القبائل ليس فى حاجة إلى قبيلة الملالحة ، حيث لامكان للمسالم بينهم . ومن المتعارف عليه بين القبائل أن قبيلة "الملالحة" كبيرة العدد ، ولكن عندما يطلب منهم التدخل فى أى أزمة من الأزمات فعلى الفور يدعون الضعف ويلجئون إلى السلبية التامة ، كما أنه لا توجد علاقة زواج بين قبيلة الترابين وقبيلة الدواغرة ، لأن هذه القبيلة خانت الوعد أثناء قيام الحرب بين الرسول والكافرين على ماسبق أن ذكرنا .

ولا توجد أيضا علاقات زواج بين قبيلة الدواغرة وقبيلة السواركة ، ولكن يوجد الزواج الداخلى من عشائر نفس القبيلة وعلاقات زواج ، وعلى سبيل المثال ما يلى : العبابدة ، قبيلة المطيرات ، قبيلة الدبيسات ، قبيلة الدغيلات ، قبيلة الخماسين ؛ قبيلة الشميلات . وهذه القبائل يطلق عليها ذات البرقع الأبيض ، لأن الفتيات فيها يرتدين براقع تظهر منها العين ، كما أنها مزدانة بالذهب ، ولها أثواب زاهية ، وهذا يختلف عن قناع "القنعة" التى تكون لها لون واحد ، وغالبا ما يكون أسود . وقبيلة الدواغرة لا تسمح بزواج الفتاة من خارج القبيلة ، أما الشباب فيسمح لهم بالزواج من خارج القبيلة فى حدود سماح العلاقات المتبادلة بين القبائل بعضها وبعض . وفى أثناء الحرب التى دارت بين قبيلة السواركة وقبيلة الترابين ، والتى نتج عنها تقلص أراضى وممتلكات قبيلة السواركة ولم يصبح لها أراض فى جنوب سيناء ، نجد قبائل ساندت قبيلة الترابين مثل قبيلة التياها ، وقبائل حالفت قبيلة السواركة مثل قبيلة الرميلات . بينما ابتعدت قبائل عديدة عن النزاع ، وهذه القبائل تسمى فى عرف القبائل الأخرى "شبه خرج" أى الدلايات التى تتدلى من الخرج الخاص بالإبل ، وتكون معلقة به فتذهب شمالا ويمينا بلا هدف حسب الهواء .

كما توجد علاقات تحاشى بين البدو العاملين بالصيد فى بحيرة البردويل وأبناء العريش العاملين بالصيد فى ذات البحيرة لاستخدام أبناء العريش أدوات صيد حديثة لا تتناسب مع طبيعة البحيرة . وكذلك لا توجد علاقات زواج بين قبيلة

الدواغرة والبياضية ، وكذلك لا يتم الزواج بين الدواغرة والسواركة ؛ وذلك لأنه فى السابق كان مؤسسو قبيلة الدواغرة كثيرى المعارك ، وإهدارا للدماء للعديد من أفراد القبائل المعادية لهم ، فعاملوا قبيلتى السواركة والبياضية على أنهما عدوان لهما . والقبائل التى لا تدخل قبيلة الدواغرة معها فى علاقات زواج هى كالتالى : الاخارسة والبياضية والسواركة والتياهة والترابين والرميلات . أيضا قبيلة الترابين لا تدخل فى علاقات مصاهرة مع قبيلة الملالحة وكذلك قبيلة الدواغرة ، وسبب ذلك التحريم من قبيلة الملالحة هو أنه فى السابق قيل أن الملالحة والترابين إخوة عن طريق الرضاعة ، وبالتالى لا يجوز الزواج بينهما . وتعتبر كل من قبيلة الملالحة والدواغرة مرتبة ثالثة بالنسبة لسائر القبائل للأسباب التى سبقت الإشارة إليها .

ومن العلاقات القبلية التى أخذت شكل نزاع دائم تلك العلاقة بين عشيرتين من عشائر التياها هما : عشيرة الغيوث ، وعشيرة الرشايدة ، مثلا بسبب حادثة قتل خطأ- على حد قول الإخبارى - ولكن اجتمعت الأطراف المتخاصمة أخيرا والقضاة المختصون فى جلسة عرفية للتصالح ، وقد نجحت أخيرا فى إنهاء الخلاف الكبير . وكذلك من القبائل التى تنفر منها القبائل ولا ترحب بالزواج منها أو المصاهرة قبيلة بيلى على ماذكر بعض الإخباريين .

عموما فإن نظرة البدوى للغريب أيا كان طالما أنه غير بدوى نظرة ضيقة ، فهو دائما فلاح أقل منه مكانة وشأنا . ومنذ الصغر يقولون لبناتهم . "هذا فلاح يأكلك"- على حد قول عدد من الإخباريين - ولذا فالبنت تنشأ منذ الصغر لا تقرب من غير البدوى بل تنفر من غيره . والبدوى يميل بعض الشئ إلى التعامل مع أهل الصعيد ، ويرى أن أهل الصعيد عرب مثلهم . والغريب من غير البدو لا يستطيع أن يكرم الضيف أو يضيفه على حد قولهم . والبدوى كريم مع ضيوفه عموما . فيذكر أحد الإخباريين أن البدوى لا يستطيع النوم وضيفه لم يتعش. ويقصد بالغريب الشخص غير البدوى ، سواء فلاح أو حتى عرايشى حضرى. والبدو أحسن منهم فى السير فى الصحراء ، وفى الاعتماد على النجوم ، وفى قوة التحمل . وأيضا البدوى أشرف إنسان على وجه الأرض - على حد قول أحد الإخباريين - فهو ولد فى الطبيعة ، وتعود على الحرية ، ويحفظ تسلسل القبيلة ، وأى شخص بالنسبة له يأتى فى المرتبة الثانية فى الأصل . والبدوى له قانونه الذى يحميه ، بينما الغريب يحكمه قانون الدولة . والبدوى أيضا ينظر إلى العرايشية نظرة استعلاء ويصفهم بأنهم يهود سيناء ، وأنهم لا يعرفون البدو إلا إذا كان لهم

مصلحة عندهم ، والبدوى نتيجة هذه النظرة لا يتزوج من غير البدوية ، وإلا فإن ابنه سوف يعاير فى المستقبل بأن خاله فلاح "نورى" وهذا معيب جدا ، كما أنه بالتالى لا يزوج ابنته لغير البدوى خوفا من نفس المعايرة ، وخوفا من أن يتركها هذا الغريب ويعود إلى بلاده فيعاير بذلك أيضا . أما عن نظرة العرايشى إلى البدو فهى نظرة دونية ، بمعنى أنه ينظر إلى البدوى على أنه أقل منه مكانة ، وهو دائما غدار وخائن وأسهل شئ عنده القتل ، وهو لا يعرف شيئا عما يدور حوله ، ولا يفهم سوى الرعى فقط ، وهو رافض دائما للتغير والتجديد ، وله لغة لا يفهمها أى أحد غيره ، وهذه أيضا تصعب من تعامله مع الناس ، على حد قول أحد الإخباريين .

ثانيا : علاقات التحالف (الحلف)

وهى فى الغالب تقوم بين قبيلة قوية وأخرى أقل قوة ، ويكون من شروط هذا التحالف الآتى :

- إذا سرق شخص مثلا لا يمر بما سرقه من أرض القبيلة المتحالفة مع التى سرق منها .
- تمد كل قبيلة من القبيلتين الأخريين بـ "حسيب" تكون مهمته رعاية المصالح الاقتصادية للحلف .
- أن يكون المصدر واحدا والعهد متينا ، وخاصة فى حالة الحرب مع قبيلة أخرى . ويذكر أحد الإخباريين أن التنظيم القبلى كان ومازال يعترف بوجود نظام الأحلاف . والمقصود بالحلف أنه اتفاق بين قبيلتين ، ويحدث ذلك أثناء الحروب . والآن يوجد حلف بين قبيلة السواركة والعيايدة والرميلات . والسواركة تمتد من بئر العبد حتى رفح ، وتشترك العيايدة فى الحدود مع السواركة مثلا فى منطقة أم خشيب . والحلف يتخذ عدة مسميات ، ولو افترضنا وقامت حرب بين قبيلة السواركة وقبيلة أخرى ، تعتبر القبيلة التى معها الحلف مسنودة من القبيلة الأخرى ، وتساعدها بألا تتحالف مع القبيلة المعادية، ولا يجوز للقبيلة المعتدية أن تستعين بها أو تستخدم أراضيها . والحرب بين القبائل تكون معلنة ومعروفة ، وآخر حرب كانت بين السواركة والترابين كانت نهايتها عام ١٩٣٠ . ثم أبرمت معاهدة بينهما ، وتمت المعاهدة فى فلسطين على أرض محايدة ، وتوسطت فيها إحدى القبائل المحايدة ، وحتى الآن يتم

العمل بها، واستمرت هذه الحرب لمدة ٥٠ سنة بدأت سنة ١٨٨٠ وانتهت سنة ١٩٣٠. وعن الحروب التى تحدث بين القبائل ، يذكر أحد الإخباريين أنها تبدأ بالغارات التى يشنها رجال القبيلة على القبيلة الأخرى ، ويتم أثناءها نهب ممتلكات تلك القبيلة من خيل وجمال وأسر بعض الأفراد ، وأبرز قادة هذه المعارك هو قائد الجيش الخاص بالقبيلة ، ويسمى عقيد القوم الذى تعقد له راية القبيلة . وأبرز القادة فى السواركة العقيد "بن زاده" والعقيد "الرطيل" ، وأبرزهم من الترابين العقيد "أبو سته" . ويذكر الإخبارى أنه عندما مات العقيد بن زاده لم تسو القهوة العربية فى مقاعد قبيلة الترابين (المعادية) لمدة أربعين يوما تكريما له وتقديرا لشجاعته .

وعن التحام القبائل الصغيرة بالقبائل الكبيرة ، يذكر الإخبارى أن القبائل الصغيرة تلحق بالقبائل الكبيرة للاستفادة من الأمان ، وعدد رجال القبيلة هو الذى يميز القبيلة الصغيرة عن القبيلة الكبيرة ، بالإضافة إلى العادات والتقاليد والمثل العليا والشهامة والكرامة والنخوة والنسب ، وليس المهم ثروة الرجال ، فهم يقولون (أن عفش الرجال تمرها) ومعناه أن الرجل حتى ولو كان فقيرا ولكنه شجاع يعتبر كالتمر . ومن المتعارف عليه عند القبائل فى شمال سيناء ما يعرف "بالاستجارة" ، فيمكن لإحدى القبائل أن تستعين بقبيلة أخرى ، ولكن ليس فى ذلك خضوع ، حيث تكون الاستجارة على شكل تحالف بين القبيلتين يقوم على مبدأ "مالى لك وما علىّ عليك" . وأثناء الحرب بين قبيلة الترابين والعيايدة قديما استجارت قبيلة العيايدة بالدواغرة ، وبالفعل تم التحالف بينهما ، ومازال حتى يومنا هذا ، وفى بداية الحلف تم العزم على ألا ينقض الحلف بقولهم "لينبت الشعر فى الكف أو فى حالة أن يجف البحر" وإن حدث ذلك ينقض الحلف ، ولأن هذا لن يحدث فإن الحلف لن ينقض إلى الأبد . وهناك قبائل يتم التحالف بينها عن طريق التزاوج ، كما هو الشأن فى حالة قبيلة الدواغرة ، والقبائل التى تدخل معها فى علاقات زواج وهى العيايده والعوايصة والمطيرات والدبيسات والدغيلات والخماسين والشميلات والنعام وعرب الصف .

وأيضا إذا جاء أحد الأفراد من إحدى القبائل ، ونزل فى أرض قبيلة أخرى، ووضع ملابسه وأشعل فيها النار واحترقت تماما ، فإن القبيلة التى نزل عليها تعتبره على الفور فردا من أفرادها ، وينتمى إلى نفس قبيلتهم ، حيث يقال عنه "ده حرق توبه معانا وخلاص بقى مننا" .

كثيرا ماكانت الحروب تنشب بين القبائل نتيجة للتنازع على الأرض لتحديد مواطن القبائل المختلفة ، وربما كان من أشهر هذه الحروب تلك التى دخلت فيها الترابين مع غيرها من القبائل حتى وضعت حدودها القائمة الآن ، فالحرب مع العزازمة بدأت عام ١٩٠٥ . وانتهت بنزوح العزازمة إلى النقب ، وكذلك الحرب مع قبيلة العايدة ، وأخيرا الحرب مع السواركة عام ١٩٥٠ بسبب الخلاف على الأرض ، وانتهى النزاع بوضع حدود بين القبيلتين ، حيث كفل السواركة الشيخ زويد ، وكفل الترابين أولاد على ، على ألا يخون أى من الطرفين هذا العهد أبداً ، إلا أن هذا يقف عند ذلك الحد فلا تحدث زيجات بينهم ، على الرغم من وجود بعض المصالح الاقتصادية ، وخاصة فى أوقات تنقيط البطيخ أو زراعة الشعير .

القيادة والسلطة القبلية

بحكم التفكير التطورى الذى كان سائداً فى القرن التاسع عشر "كان الأنثروبولوجيون يميلون إلى اعتبار الحياة القبلية البسيطة نوعاً من الفوضى والاضطراب وعدم النظام ، وأخفقوا – على حد قول لينهارت Lienhardt – فى فهم أدوار وسلطات الحكام الوطنيين ، وامتلأت كتاباتهم بمعلومات خاطئة أو غريبة وتفسيرات أقل ماتوصف به أنها غير مفهومة أو مقبولة لدى علماء الأنثروبولوجيا المحدثين الذين قاموا بالفعل ببعض الدراسات الحقلية ، وأتيح لهم بذلك دراسة الأنساق السياسية فى تلك المجتمعات عن قرب وبطريقة مباشرة ، وكان غرضهم الكشف عن المبادئ التى تنظم بالفعل العلاقات الداخلية والخارجية لأفراد الجماعات المحلية والسياسية المختلفة ، ولم يقتصروا فى ذلك على نمط واحد من الأنساق السياسية ، على اعتبار أن كل الأنماط المعروفة تساعد على فهم طبيعة النسق السياسى فى ذاته ، وبذلك كانت دراساتهم تتراوح بين أبسط الجماعات أو الزمر الاجتماعية الصغيرة المتأخرة ، والمجتمعات القبلية التى لاتعرف نظام الرياسة أو التنظيم البيروقراطى أو نظام الحكم الهرمى ، والمجتمعات المتقدمة التى تعرف نظام الحكومة بالمعنى الدقيق للكلمة" [٢٠] .

والقيادة Leadership تعنى شغل "مركز هام فى المجتمع ، والقيام بدور فعال فى توجيه الجهود الجماعية المبذولة ، لتحقيق الأهداف والأغراض العامة للجماعة . ولابد أن تتوافر فيمن يتولى القيادة صفات يعتبرها المجتمع نموذجاً

للسلوك الاجتماعى الأمثل ، وتختلف هذه الصفات لدى الشعوب البدائية باختلاف حضارتها ، فقد تكون الشجاعة أو البراعة فى إدارة المعارك أو الكرم أو الإلمام بتاريخ المجتمع وتراثه الشعبى أو المقدرة على عمل السحر وغير ذلك ، على أن الكثير من الشعوب البدائية تسلم زمام قيادتها - عرفاً - إلى أفراد لايتمتعون بأية صفة غير انتسابهم إلى بيت حاكم [٢١] .

ويرى بعض السسيولوجيين أن القيادة هى ممارسة للسلطة أو النفوذ فى التجمعات الاجتماعية مثل الجماعات والمنظمات والمجتمعات أو الأمم ، ويمكن أن توجه هذه السلطة إلى تحقيق أى أو كل الوظائف العامة والمترابطة الثلاث التالية :

أ - تحقيق أهداف أو أغراض التجمع أو الجماعة .

ب - خلق التنظيمات التى يتم من خلالها تنفيذ أهداف الجماعة .

جـ - الحفاظ على تلك التنظيمات وتنميتها .

وقد ركزت الدراسات الاجتماعية على الوظيفة الأخيرة ؛ لأنها تبدو بصفة جزئية أكثر سهولة حيث الخضوع للبحث الإمبيريقى ، خاصة فى البيئات البيروقراطية ، حيث يجرى فيها الكثير من الدراسات والأبحاث عن القيادة . وقد أظهر هذا التأكيد اهتماماً بدور القيادة فى الحفاظ على سلام الجماعة وقابليتها للنمو فى وجه كل من الأخطار الداخلية والخارجية ، وكذلك على النظام والوحدة الشاملين ، وفى تقليل الفرقة والصراع ، وأيضاً فى إثارة أعضائها وتشجيع إيمانهم بالجماعة وبأهدافها وبالقيادة ذاتها . وهكذا جاءت معظم النظريات الخاصة بالقيادة محافظة فى كونها موجهة للحفاظ على الأنظمة الاجتماعية والإبقاء عليها بدلاً من تغييرها . فالقيادة تُعرف وتبدأ وتحافظ على البناء الاجتماعى . والبناء الاجتماعى يتم برمجته من خلال القيادة ، وحينئذ يكون فهم القيادة طريقة سهلة ومقتصرة لفهم النظام الاجتماعى الأكبر . ويمكن أن تكون للقيادة آثار على أرواح ورفاهية أعداد كبيرة من الأفراد ، ولذلك يجب على المهتمين بالنتائج العملية للسلوك الإنسانى أن يهتموا بالقيادة . وتذكر وجهة نظر أخرى متفقة مع التحليلات التقليدية أن عملية القيادة هى عملية أحادية ، فإما أن يكون الفرد قائداً أو تابعاً ، قوياً أو ضعيفاً ، حاكماً أو محكوماً ، وأشار جورج زيميل G . Simmel - على الرغم من تمسكه العام بوجهة نظر الصراع التقليدية للقيادة - إلى وجود تفاعل أكثر عمقاً بين ظهور التفوق المحض pure superiority لدى القائد وبين النزعة السلبية المحضة فى التبعية لدى التابع ، فجميع القادة تتم معاداتهم أيضاً . ففى

حالات - لايمكن حصرها - يكون السيد عبدا أو خادما لعبيده ، وتعد التحليلات المعاصرة للقيادة أكثر ميلاً مما سبقها من تحليلات دراسة علاقات السلطة المتبادلة والأحادية ، حيث يتم التأثير والتأثر بين القادة وأتباعهم[٢٢].

وهكذا فإن التابع قد لايطيع القائد بسبب الثواب والعقاب الذى يقدره القائد بقدر مايطيعه بسبب القبول وعدم القبول الذى يبديه أقران هذا التابع ، وقد تمثل الثقة أساساً إضافياً بقبول سلطة القادة ، فالتابع قد يثق فى الحكم الذى يبديه القائد ، كما يقبل سلطته ، خاصة فى المجالات التى يكون للقائد فيها كفاءة فنية عظيمة . وقد فرق كل من فرنش French ورافين Raven بين تأثير القائد الذى يقوم فى أساسه على ثقة الأتباع لمنطق المناقشات التى يطرحها القائد من ناحية أخرى ، وحينئذ قد تتم طاعة القائد ليس لأنه ببساطة سلطة معترف بها ، بل لأن قراراته تقوم فى أساسها على الخبرة التى تكون منطقية وملائمة ومقنعة بدرجة واضحة ، أى أن يقتنع الأتباع أن آراء قائدهم صحيحة . ووجهة النظر هذه ترتبط بطرق العلاقات الإنسانية التى تؤكد السيطرة بواسطة الحقائق فى مقابل السيطرة بواسطة الرجال . ويعتمد مثل هذا التحكم أو السيطرة بواسطة الحقائق والفهم ، على القائد الذى يؤثر فى أتباعه بمساعدتهم فى فهم حقائق موقف ما ، حتى يمكنهم بالاشتراك معه التوصل إلى أسلوب للعمل يتلاءم مع مصالحهم ومع مصالح الجماعة . وتمثل بعض المفاهيم انحرافاً جذرياً عن العديد من المفاهيم التقليدية بافتراضها وجود مجتمع تطغى فيه المصالح بين القادة وأتباعهم [٢٣] .

وتعنى كلمة «القائد» من الناحية التقليدية - وهى ماتهمنا هنا فى هذا البحث - وجود شخص متميز عن غيره بصورة واضحة فى السلطة والمكانة والرؤية وفى عدد من صفات الشخصية كالحزم والشجاعة والاستقامة والذكاء . ومع ذلك فقد أدت التغييرات المعاصرة فى الافتراضات ، وفى اتجاه تحديد التأثير المتبادل بين القادة وأتباعهم وإمكانية زيادة السلطة الإجمالية إلى بعض الغموض فى خطوط التحديد بين القادة وبين الآخرين ، كما أن نظريات المشاركة والعلاقات الإنسانية التى تؤكد على المكانة وتؤكد مصالح المجتمع بين كل أعضاء جماعته قد أحدثت نوعاً من الغموض للفارق المفاهيمى بين القادة وأتباعهم ، وقد أضافت نتائج البحث المزيد إلى هذا الغموض أولا. حيث لم توجد دلائل كافية على وجود خصائص عامة للشخصية تحدد الصفات الأساسية والمميزة للقيادة ، وأن بعض الخصائص أو الصفات «مثل الذكاء» التى قد تجعل فرداً ما مناسباً أو صالحاً

لبعض أدوار القيادة توجد بنفس الدرجة بين الكثيرين من أفراد المجتمع ، كما أنه ليس هناك أى أساس للافتراض بأن الخصائص المتعلقة بالعديد من أدوار القيادة نادرة يتمتع بها أعداد كبيرة من الأفراد التى تختلف شخصياتهم اختلافاكبيرا[٢٤].

وقد تغيرت تفسيرات القيادة كمفهوم اجتماعى عبر السنين . ويمكن رؤية جهود الباحثين فى مجملها على أنها محاولة لوضع مفاهيم تنطبق على العديد من الأنظمة الاجتماعية بما في ذلك تلك التى كانت موجودة فى الماضى وتلك التى تنشأ الآن . كما يتم أيضاً استشعار الحاجة إلى المزيد من المفاهيم العامة على أنها حاجة القيادة داخل الأطر السياسية والاجتماعية الواسعة الاختلاف والموجودة فى العالم الحديث [٢٥] .

إن النزعة أو الميل لإضفاء صفة الكاريزما Charisma هى نتاج محتمل للتوجهات الأخلاقية والمعرفية والتعبيرية لدى الكائنات البشرية . فالميل للاتصال بالقوة المتسامية أو اكتساب صفة الكاريزما يضرب بجذوره فى البنية المتعادلة أو المحايدة للتكوين البشرى . وتتأثر درجة المرور بها وقوة دافعيتها بالضروريات الموقفية وبالثقافة السائدة . ومن الممكن خلقها بصورة مقصودة عن طريق الانعزال عن البيئة الروتينية وعن طريق التعلم ، وعن طريق الانضباط الذاتى ، ويمكن أن يقدرها الأفراد لدرجة أنها تؤثر على أحاسيسهم تأثيراً كبيراً . وللثقافة القدرة على تشجيع عملية إدراك الخصائص والعلاقات الكاريزمية عن طريق تركيز الاهتمام والانتباه وتوفير معايير التفسير والشرح والتأكيد على تقرير امتلاك مثل العلاقات والخصائص . وإن كانت مصادر الميل أو النزعة لإضفاء صفة الكاريزمية محايدة Neutral أو موقفية Situational أو ثقافية Cultural أو مزيجا من هذه كلها ، فإنه عندما يكون الميل قوياً وملموسا إلى النماذج والفئات الأكثر عمومية ، التى تولد تغييرات الوجود البشرى ، فإنه يؤدى إلى إنتاج تجربة ذاتية لامتلاك الصفة الكاريزمية ، أو إلى إنتاج حساسية واستجابة تجاه الكاريزمية الذاتية المجردة ، والتى تظهر فى سلوك وكلمات وأفعال الأفراد الآخرين والمؤسسات . فهؤلاء الأشخاص الذين يتمتعون بإحساس ذاتى قوى بصفتهم الكاريرمية والذين اكتسبوا هذه الصفة من أفراد آخرين نطلق عليهم لفظ أشخاص كاريزميين [٢٦] .

وفى شمال سيناء يتم الاعتماد على سلطة القبيلة فى التأثير فى القرارات السياسية . فكل قبيلة تحاول بقدر الإمكان أن توحد كلمتها حتى تحتل وضعا سياسيا أفضل من القبائل الأخرى ، وقد تنجح بعض القبائل فى تجميع قوتها

الداخلية وتوحيد عشائرها فى اتجاه واحد ؛ لتحقيق هدف معين ، وقد تفشل . ولذلك لا يخطو أى فرد سياسى فى القبيلة أية خطوة سياسية إلا برضاء عشيرته أولا ثم قبيلته ثانيا . والأعضاء السياسيون فى المحافظة بالتالى لا يستطيعون اتخاذ قرار بتشكيل سياسى معين إلا بعد الدراسة المتأنية فى "المقاعد" المختلفة للقبائل . والقبيلة الواحدة تجتمع من أجل وضع سياسى معين ، فمثلا تجتمع عشائر القبيلة لاختيار شيخ القبيلة برغبة العشيرة . والواقع أن هناك مجموعة من الشروط التى ينبغى أن تتوافر فى شخصية القائد أو شيخ القبيلة التى يقودها ، فالشيخ يجب أن تكون لديه مقدرة على الحديث وأن يكون له فى الحديث طلاقة للسانه ، فهى الأساس ، ولكنه - على حد قول أحد الإخباريين - "لو كان الشيخ هامل وبخيل ولكنه ذو لسان طالق لا ينفع فى القيادة ونشوف واحد غيره لأنه لازم يبقى كريم وطالق اللسان ويشترط فى سنه أيضا ألا يقل عن أربعين سنة ، وما يكونش مش قادر يشد حيله يعنى لا الصغير قوى ولا الكبير قوى" . وعند موت الشيخ تجتمع القبيلة على اختيار من يخلفها استنادا إلى المبدأ القائل "الرأى مع الرعية" فالرعية كلها تتلم وتتشاور يحطوا مين شيخ على القبيلة ، فالرأى رأى القبيلة كلها وترجع الأمور دائما فى القبيلة إلى كبرائها على حد قول الإخبارى ، وإذا كان عند واحد من أفراد القبيلة رأى كويس يسمح له ، لكن لو رأيه كان شاذا فالقبيلة تتركه وشأنه ولا تسمع له ، عموما فكل عائلة لها عميد ويختار الشيخ من بين عمداء العائلات هذه ، والشيخ يعتبر حلقة الاتصال بين الإدارة الحكومية وأفراد القبيلة ، وهو أيضا مدعوم من عائلته وقبيلته إذا حدث انتخابات لمجلس الشعب مثلا فيجتمع أفراد العائلة فيما يسمى "بدعاية العائلة" ويقوموا يقولوا إحنا حانرشح فلان الفلانى ، يبقى خلاص محدش يخرج عن إجماع العائلة خاصة إذا رأت أن هذا الشخص لديه الكفاءة فى التحرك والطلاقة فى الحديث .

ويجتمع شيوخ العشائر لمناقشة المسائل السياسية ، ويؤخذ برأى الأغلبية ، ويعتبر قرارهم قرار القبيلة كلها ، ثم يبدأ ممثلون من القبيلة لمقابلة المسئولين السياسيين فى المحافظة لإبلاغهم بقرار ورأى القبيلة ، وفى هذه الحالة لا تستطيع القيادة السياسية رفض القرار الذى وصلت إليه القبيلة ، أو حتى تجاهل رأى القبيلة . ويتم تشكيل المكاتب السياسية بالمحافظة والقرى والمراكز لتنفيذ ما توصلوا إليه . وتلعب السلطة القبلية دورا هاما فى الانتخابات الآن مثلا فقد تفشل السلطة السياسية الرسمية فى اختيار النواب فى المجالس النيابية ، بينما

تستطيع السلطة القبلية أن تلزم أفرادها باختيار قيادتها ، ومرشحين معينين يتفقون عليهم .

وقد يحدث في الاستفتاءات المحلية أن كل قبيلة ترشح ممثليها ثم يحدث اتفاق على من سوف يفوز في الانتخابات ، وتنسحب بقية القبائل بمرشحيها، بشرط أن القبيلة المنسحبة تتميز بمزايا وخدمات في منطقتها شريطة ذلك الانسحاب والتنازل لشيخ قبيلة أخرى مثلا ، هذا يتم الآن بعد أن أصبح أعضاء المجلس المحلى كلهم من البدو ، بعد أن سمح الحكم المحلى للأهالى بالتمثيل في المجالس النيابية ، وأصبحت القبائل تعرض مشاكلها على تلك المجالس المختصة . وفي الغالب الآن يعقد اجتماع شهرى يجمع مشايخ العشائر كلها برئاسة المحافظ ومدير الأمن وسكرتير عام المحافظة ، ويعرض المشايخ مطالبهم بعد أن يكون كل منهم قد ألم بمشاكل عشيرته . والتمثيل النيابى للعشائر تمثيل مؤقت ، فالشخص يرشح نفسه والعشيرة لها الحق في أن تؤيده أو تعارضه ، والسلطة القبلية تتضح من خلال مجلس رؤساء العشائر ، حيث يقوم كبار العشائر بحل مشاكل أفراد عشيرتهم والتوفيق بينهم . والشيخ أو الزعيم أو القائد التقليدى مازال يمارس دوره في عمليات فض المنازعات ، بينما قد لا تنجح المجالس التنفيذية الحكومية في حلها ، وإن نجحت فليس بكفاءة وسرعة تدخل شيخ القبيلة والنظام العرفى .

وكثيرا ما يحدث تعارض بين المصالح الأهلية والمصالح الحكومية . فقد تقرر الحكومة مثلا إقامة شارع في منطقة ما تكون موضع خلاف على الملكية بين قبيلتين ، وعادة ما ينتهى الأمر بأن تنفذ الحكومة ما قررته من إقامة مشروعات ما، سواء إقامة شارع ، أو بناء مصنع مثلا ، وهكذا فالمجلس الشعبى أهم أدواره هو الفصل في ذلك ، فهو يلعب دور الرقيب لتعدد الخطط والمشروعات وقرارات التخطيط ، وتحديد مواقع إنشاء المصانع . ويرى الأهالى أن قوة المجلس المحلى "الشعبى" تفوق قوة المحافظة ، حتى أن المجلس يستطيع أن يغير المحافظ نفسه "أعلى الجهاز التنفيذى" ، ويرى الأهالى أن المسئولين الحكوميين لا يقومون بواجباتهم تجاه الأهالى ، ويرجعون ذلك إلى أنهم ليسوا من أبناء المنطقة ، فهم غرباء عنها ، ولذلك فهم لا يعلمون عن طبيعة المشكلات الخاصة بين القبائل

ويذكر شيخ قبيلة الأهتم "أن الشيخ ليست سلطته دكتاتورية ، بل أن له مجلس يسمى مجلس العائلة أو البرلمان المصغر ده يعنى لو الشيخ شذ في حاجة في قرار مثلا ييجى البرلمان الصغير ده والمكون من رؤساء العائلات وعندنا مثلا

فى شياخة الأهتم تتكون من ٤٢ عائلة وهم أحفاد على أغا البشناق وهى كالتالى : الأهتم ، الطنجير ، عيد ، ذملوط ، سليمان ، عثمان ، البيك ، يعقوب ، صفان ، خويطر ، حلاوة ، أبو سلمة ، أيوب ، العوايد ، خطابى ، الرضاوين ، الحارون ، الجندى ، الأذعر ، المطيرى ، أبو محيسن ، أولاد سعد ، أبو جلبانة ، آل بدوى ، قطامش ، جبريل ، ذكرى العيادى" . هذه كلها فروع من عائلة أولاد سليمان ولها أفرع أخرى فى بقية مصر ، وخاصة فى الاسماعيلية ، وهم أصلا من العريش مثل عائلة عثمان فهم أبناء عمومة عائلة أولاد سليمان ، ويستطرد الإخبارى فى حديثه قائلا : "مثلا لو كان المجلس المحلى عايز انتخاب عشرة أفراد ، كل فرع من هذه الفروع فى العائلة يجيب فرد واحد نيابة عنه ، بمعنى أن كل عيلة تجتمع وتختار بطريقتها الخاصة واحدا منهم ويتفقون مع بعضهم عليه ، والشيخ ميتدخلش هنا هما بيسحبوا العشرة أشخاص اللى العائلة ترضى عنهم ، والشيخ يأخذ هذه الأسماء ويذهب للمحافظة أو للمجلس ويسجل أسماءهم فهو ممثل القبيلة الأوحد أمام السلطات التنفيذية والحكومية ، وصاحب القرار فى أمور القبيلة أمام الحكومة" .

ولشيخ القبيلة مساعدون ، وهم من أبناء العمومة . والناس المقربون إليه فى مجلسه يساعدوه فى المشورة ، على حد قول أحد شيوخ القبائل "فأى حاجة تحصل ألاقى أولاد عمى الكبار جنبى نتشاور فى الأمر عند الخطر ولكنهم بيعتبروا غير قانونيين من قبل الحكومة والقبيلة مرجعها فقط ، عموما كل واحد فى الدنيا له بطانة تجالسه ومقربة إليه ، حتى شيخ المسجد له بطانة فأنا هنا مثلا كشيخ قبيلة عندى أرقام تليفونات رؤساء العائلات كلهم ، لما تحصل عندى مشكلة أقدر أجمعهم كلهم فى خمس دقائق" .

وعندما يموت شيخ القبيلة قد توافق الرعية على اختيار ولده مثلا لو كان لديه أوصاف وشروط الشيخ ، المهم الموافقة الكاملة من القبيلة استنادا إلى المبدأ المعترف به "الرأى مع الرعية" . والشيخ هنا من الممكن أن ينيب أحدا غيره فى تصريف بعض الأمور ، ولكن الرعية تتفق أيضا على ذلك حيث تنطبق عليه أيضا شروط الشيخ لأنه ممثله ، فيجب أن ترضى عنه القبيلة وعن تمثيله لها .

وفى تساؤل حول هل ممكن أن تعزل القبيلة شيخها ؟ كانت إجابة أحد الإخباريين بنعم ، حيث يذكر "أنه لو طلع الشيخ مش كويس أو أصبح كبير السن والرعية اجتمعت ورأت أنه مش كويس خلاص طالما هو أخطأ ومبقاش سليم" .

أما عن الأشياء التى تعتبرها الرعية أسبابا للعزل ، فهى على حد قول أحد شيوخ القبائل "هو أول حاجة لما بيوغز "ينحاز" الشيخ أو ينحرف ويبقى غير عادل وهى أخطر شئ ، ولابد من أن يوجد اتفاق من الرعية على أنه غير عادل ، وأنهم لازم يشهدوا على ذلك ويواجهوه بالشهادة ، ويقولوا له أنت ليه كذا ، وكذا ، ولما يلاقوا الكلام ده صحيح بيعزلوه وإن كان الكلام غير صحيح أراد به بعض الناس شئ ما ، لا يعزلوه ، بل يجددوا الثقة فيه وفى رياسته للقبيلة يعنى عملية تحقيق تتم فى مجلس القبيلة".

وفى تساؤل آخر حول من له الحق فى أن يحاكم الشيخ ؟ أو بمعنى آخر من الذى يستطيع أن يقدر يقول إن الشيخ تجاوز ؟ أو انحاز ؟ وكانت إجابة الإخبارى "إن اللى بينظلم هو اللى بيجمع الرعية ، وهو اللى بيقيم الدعوة وبيتحاجج هو والشيخ ويتواجهوا وعلى الشاكى أن يثبت كلامه ، وإذا لم يحدث ووجدوا كلامه غير مضبوط حاسبوه على كلامه ، ولكن إذا كان كلامه صحيحا عزلوا الشيخ ولازم هو يسمع الكلام وينصاع لهم ولا يقول لا ولا يقدر حتى أن يقولها ، يعنى لما يتجمع العربان ويقولون إن الشيخ "محجوج" "عليه الحق" بيشيلوه ويعزلوه . ويرد أحد الشيوخ أنها فى قبيلة السواركة "ما صارت طول عمرها ولكنها ممكن أن تحدث" .

أما عمن يقود القبيلة فى أوقات الحروب ، فيذكر أحد الإخباريين من قبيلة السواركة "أنه يوجد من يسمى بالعقيد ، وهو يختص بأمور الحرب فقط ، وتختاره الرعية ويجب أن يكون فارسا ومشهودا له بالفروسية" ولو وجد فيه عيب نعزله ونحط غيره ، والرعية هى التى تختار العقيد والشيخ يوافق عليه أولا ، وإن قالوا لا ما يحطوه ويدوروا على واحد غيره . والعقيد هذا مهمته الحرب فقط ، ولقد سمى بالعقيد لأن القبيلة اتفقت وعقدت له رايتها لكى يقودها فى الحرب ويوجد ناس تساندهم ، فالعشيرة بتكون مقسمة إلى أرباع ، وهو أقل من الشيخ شوية وهو خاضع لسلطة الشيخ ، والخمسات صورة أقل من الربع ، ومجلس الشيخ بيجمع كل القبيلة ومفيش تدرج آخر ، ونقدر نقول إنه حاليا مفيش سلطة مثل زمان ، فالعقيد كسلطة عسكرية لم تعد موجوده منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة . ومجلس القبيلة هو "المجعد" فقط وهو فى حالة انعقاد دائم ومستمر ، وما يستجد من أعمال يعرض فورا ، بمعنى أنه برلمان مصغر تشريعى وله سلطة تنفيذية فى نفس الوقت ، وبهذا فهو يفوق البرلمان فى القانون الوضعى حيث إنه لديه فقط السلطة التشريعية

والرقابية بتملكه السلطة التنفيذية الفورية" .

أما عن السلطات المخولة للشيخ فهى "للشيخ أن يحكم بين الناس بالعدل ، وهو يمثلهم فى مشاكلهم وينوب عنهم ، بمعنى انه لو فيه اثنين فى العشيرة اتخانقوا بيحاكم بيناتهم الشيخ ، وهو يمثلهم قضائيا ويحل مشاكلهم وقاضيا ومحاميا لهم أمام السلطات التنفيذية للدولة . وللشيخ الحق فى توقيع الجزاءات على المخالف الذى ارتكب خطأ غير أخلاقى لقبيلة أخرى ، فالشيخ هنا يجرى مشاوراته مع أهل "الخمسة" اللى منهم هذا الخارج أو المخطئ ، وإذا لم ينصاع للحق قد يصل الجزاء إلى إهدار دمه وينبه فى مقعد القبيلة أن فلان هذا عمل عملة مش كويسه ، ونقول أيضا إن فلان ده كفل عليه يعنى مالناش دعوة بيه ولا يتمتع بحمايتنا . والشيخ هنا لا ينظر إلى الفعل نفسه ، ولكن هو ينظر إليه على أنه خروج عن العرف العام لرفضه الانصياع للحق العام للقبيلة ، فإنه لا يحصل على أى شئ – على حد قول الإخبارى – وهو لا ينظر إلى الجرم العام أو الفعل العام ، ولكن ينظر إلى خروجه عن العرف وهنا بالتالى ما يسمى بالحق العام فهو النقيض ، وهو أقصى صورة ، وهذا إهدار الدم" . إذا فالشيخ هنا – على حسب تعبير ماكس فيبر– لا يحتل صفة تنسب للشخصيات المبدعة التى تنشق على أنظمة السلطة التقليدية العلانية والمشروعة قانونا ، والتى تحاول تأسيس أو تطمح لتأسيس نظام للسلطة يدعى أنه يستمد شرعيته من الخبرة المباشرة ، ولقد طبق أيضا "فيبر" . ذلك المفهوم على الشخصيات المبدعة والمبتكرة ذات النزعات الخيرة ، الذين يعتبرون "غير عاديين" على الرغم من أنهم لا يدعون امتلاكهم لأى نعمة إلهية أو اكتسابهم لها عن طريق الآخرين [٢٧] . كما أننا نختلف مع ماكس فيبر فى النظرة إلى زعماء القبائل فى شمال سيناء من واقع الدراسة الميدانية على أنهم أشخاص كاريزميون ، فهم على العكس من ذلك تماما أشخاص عاديون اكتسبوا مكانتهم فى المجتمع البدوى طبقا لعدد أفراد قبيلتهم داخل هذا المجتمع ، وثروتهم المادية ونظرة القبائل الأخرى إلى قبيلتهم الأقوى ، وتوارثهم للقيادة داخل القبيلة ، وتمتعهم بقوة الضبط الاجتماعى والسلطة على أفراد القبيلة التى تحقق التماسك والتضامن داخل المجتمع البدوى .

خاتمة

على الرغم من أن الاهتمام بدراسة الصحارى المصرية من مختلف الجوانب اهتمام قديم نسبياً ، وعلى الرغم من أنه قد أجريت بالفعل دراسات عديدة شملت كثيرا من ملامح الحياة النباتية والحيوانية والبشرية فى عدد من المناطق المتفرقة ، إلا أنه مازال هناك نقص كبير فى معلوماتنا عن الصحارى المصرية بشكل عام ، والتنظيمات الاجتماعية والأنماط الثقافية السائدة بشكل خاص .

وهذه الدراسة بعنوان "المكانة الاجتماعية كعامل من عوامل الضبط الاجتماعى عند بدو شمال سيناء" تعتبر جزءا من الدراسة العامة والشاملة التى قام بها الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد - أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية - للمناطق الصحراوية بشمال سيناء بتكليف من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . وقد توصلت دراستنا هذه إلى النتائج التالية :

* إن القبيلة هى الوحدة الأساسية لفهم المجتمع الصحراوى ، وهى وحدة اقتصادية وإقليمية وقرابية وسياسية تشكل مجتمعا قائما بذاته ، وبه كل الأنساق التى يتكون منها المجتمع البدوى .
* إن المنهج الأنثروبولوجى البنائى الوظيفى هو المنهج الوحيد الذى يصلح لدراسة هذه المجتمعات ، ويعنى دراسة المجتمع ككل أو كوحدة محلية ، بحيث يحيط الباحث إحاطة شاملة بكل النظم والأنساق السائدة فيه .
* تحتل بعض القبائل السيناوية مكانة تجعلها قادرة على الحفاظ على تماسك الجماعة وتنظيم العلاقات بين القبائل بعضها وبعض ، وبين أفراد القبيلة الواحدة ، وهى تعتبر قوة رادعة من قوى الضبط الاجتماعى وكل قبيلة من قبائل شمال سيناء تحتل مكانة تختلف عن بقية القبائل ، وتختص بأشياء معينة كالفصل فى المنازعات وقضايا القتل وقضايا النخل . الخ .
* يمكن التمييز بين القبائل من حيث المكانة على أساس الكثرة العددية والقوة ، أو التقوى والصلاحية الدينية ، وأماكن انتشار القبيلة وكثرة حيازات الأرض
* تقوم علاقات الدم والقرابة فى جوهرها بين القبائل على أساس عضوى ، أما علاقات الجوار فإنها تقوم على الملكية المشتركة للأرض والاستغلال المشترك لتلك الأرض .
* تتمسك القبائل بالزواج الداخلى بين أقسام القبيلة الواحدة . ويقوم هذا الزواج نتيجة للفوارق بين القبائل فى الأصل والاختلاف فى العرق واللون . وعلى هذا

الأساس توجد فى شمال سيناء قبائل تعتبر نفسها أعلى مكانة وأسمى فى الأصل من غيرها ، وبذلك تترفع عن التزاوج معها .

* يعتبر نسق القرابة من أفضل المداخل لفهم المجتمع البدوى . إذ على الرغم من كل ما يطرأ على المجتمع البدوى من تطورات وتغيرات نتيجة الاحتكاك بالمجتمعات والثقافات الأخرى ، أو تنفيذ بعض مشروعات التنمية فلا يزال يحتفظ بكثير من ملامح التنظيم القبلى وبنائه التقليدى وبالقيم والمبادئ التى تحكم هذا النمط من التنظيم ، والذى يركز أساسا على الروابط القرابية الحقيقية والمتخيلة ، وماتفرضه هذه الروابط من حقوق وواجبات .
* يعتبر مجتمع شمال سيناء مجتمعا انحداريا ، فهو ينقسم إلى مجموعة من القبائل ، والقبيلة الواحدة تنقسم إلى مجموعة من العشائر ، والعشيرة الواحدة تنقسم إلى مجموعة من العائلات ، والعائلة تنقسم إلى مجموعة من الأسر . وتعتبر الأسرة أصغر وحدة قرابية فى هذا المجتمع ، وهى صورة مصغرة من القبيلة .
* تأخذ العلاقات بين القبائل صورا ثلاثا هى :

علاقات التحاشى التى تكون فيها كل قبيلة على دراية تامة بحدودها ، وتتحاشى الاقتراب من أرض القبيلة الأخرى أو التزاوج معها . وعلاقات التحالف التى تحدث بين قبيلة قوية وأخرى أقل قوة ، وعن طريقها يمكن لإحدى القبائل أن تستعين بقبيلة أخرى فى حروبها فيما يعرف باسم "الاستجارة" . وعلاقات المواجهة والتعادى التى تؤدى إلى قيام الحروب بين القبائل .

* يتم الاعتماد على السلطة القبلية فى شمال سيناء فى اتخاذ القرارات السياسية . وكل قبيلة تحاول بقدر الإمكان أن توحد كلمتها حتى تحتل وضعا سياسا أفضل من القبائل الأخرى ، ولا يخطو أى فرد فى القبيلة أى خطوة سياسية إلا برضاء عشيرته أولا ثم قبيلته ثانيا ، كما أن القبيلة الواحدة تجتمع لاتخاذ قرار سياسى معين مثل اختيار شيخ القبيلة .
* يعتبر "الشيخ" حلقة الاتصال بين الإدارة الحكومية وأفراد القبيلة ، وهو أيضا مدعوم من عائلته وقبيلته ، ولا يستطيع أحد الخروج على إجماع القبيلة أو العائلة ، كما لا تستطيع القيادة السياسية رفض القرار الذى وصلت إليه القبيلة .
* تلعب السلطة القبلية دورا هاما فى الانتخابات ، فقد تفشل السلطة السياسية

الرسمية فى اختيار النواب فى المجالس الشعبية ، بينما تستطيع السلطة القبلية أن تلزم أفرادها باختيار قيادتها من بين مرشحين معينين يتم الاتفاق عليهم .

* يعتبر منصب "شيخ القبيلة" منصبا وراثيا ، ويمكن لأعضاء القبيلة عزل شيخها فى حالة انحيازه أو انحرافه وابتعاده عن العدل ، كما أن من حق أعضاء القبيلة عزل شيخها ، ولكن هذا لايحدث إلا فى الحالات النادرة .
* هناك سلطات كثيرة لشيخ القبيلة ، من بينها الحكم بين أعضائها وفض النزاعات الداخلية ، ويعتبر هو القاضى أمام السلطات التنفيذية ، وله الحق فى توقيع الجزاءات على المخالفين من أعضاء القبيلة ، بل وقد يصل الجزاء إلى إهدار الدم فى حالة الخروج العام عن أعراف القبيلة .
* اكتسب زعماء القبائل مكانتهم فى المجتمع البدوى طبقا لعدد أفراد قبيلتهم داخل هذا المجتمع وثروتهم المادية ، ونظرة القبائل الأخرى إلى قبيلتهم الأقوى ، وتوارثهم للقيادة داخل القبيلة ، وتمتعهم بقوة الضبط الاجتماعى والسلطة على أفراد القبيلة التى تحقق التماسك والتضامن داخل المجتمع البدوى .

الهوامش والمراجع

١ - أحمد أبوزيد ، البناء الاجتماعى ، المفهومات ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص ٢١١ .

٢ - Malinowski, Bronislaw, The Dynamics of Culture Change, An Inquiry into Race Relations in Africa; Phyllis M. Kaberry (ed), New Haven, 1945, pp. 34:44.
The Anthropology of Changing African Cultures. An Introductory Essay to Methods of Study of Culture Contact in Africa, Malinowski, ed, London, 1938, pp. xxv.

٣ - محمد عبده محجوب ، مدخل سوسيو أنثروبولوجى فى دراسة القضاء البدوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٠٤ ، ١٠٦ .

٤ - فاروق إسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية ، دراسة فى التكيف والتمثيل الثقافى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ص٢٣ .

٥ - أحمد أبوزيد ، طرق البحث فى المجتمعات البدوية ، ندوة البداوة فى الوطن العربى ، الجزائر ٢٥ - ٢٧ أكتوبر ١٩٨٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، ص ٤٠ .

٦ - شاكر مصطفى سليم ، قاموس الأنثروبولوجيا ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨١، ص ٩٢٠

٧ - محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩، ص ٤٧٢

٨ - ريمون بودون . بوريكور . المعجم النقدى لعلم الاجتماع ، ترجمة سليم حداد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ببيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٥٩٤ . مثلا ، إن وضعى فى مجموعة سجالية "نقاشية" يتأثر بالبراعة والدقة اللتين أجيب بهما ، وبنوعية استراتيجيتى إزاء خصومى وكذلك الجدية والنزاهة اللتان أواجه بهما الاعتراضات التى يدلون بها ضد حججى ولكنه يرتبط بخصائص دائمة تسبق اشتراكى مع هذه المجموعة وتستمر بعده "أنا رجل وليس امرأة ، أنا متوسط السن ولست صغير السن ولامسنا ، أنا أستاذ ولست تلميذا" فهذه الخصائص "الجنس والسن والوظيفة " لاتساهم فقط فى صنع الصورة التى تكون لدى الآخرين عنى ، وإنما تؤثر كذلك على الطريقة التى أتحمل فيها بعض الأدوار ، حيث تكون مقترنة بالخصائص المذكورة ، وإن ممارسة دورى يكون سهلا أو يواجه معارضة تبعا لكون خصائص وضعى متوافقة أم لا فيما بينها أو أن هذا الوضع يكون متوافقا بالإجمال مع دورى ، إن الاعتدال الذى يستند إلى السن والأهلية والتملك التى تنتظرها من مدرس تساعدنى على فرض نفسى كمناقش .

٩ - المرجع نفسه ، ص ٥٩٥

١٠ - المرجع نفسه ، ص ٥٩٦ .

١١ - سليم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٨.

١٢ - Adams Kuper and Jessica Kuper, The Social Science Encyclopedia, Routledge, and kegan poul London, New York, 1985.

١٣ - سليم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٨ .

١٤ - بوتومور، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وأخرين ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٥

١٥ - المرجع نفسه ، ص ٣٣

١٦ - أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر ، البحث الأول شمال سيناء دراسة إثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة، ١٩٩١

١٧ - أحمد أبوزيد ، فرديناند تونيز ، الجماعة المحلية والمجتمع ، عالم الفكر ، المجلد الثانى عشر ، العدد الثالث

١٨ - أبوزيد ، البناء الاجتماعى : المفهومات ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣.

١٩ - Radcliffe- Brown, A. R. "Introduction" to Fortes & Evans Pritchard, (eds), African Political Systems, O. U. P., Oxford, 1940, p.XXXIII .

٢٠ - أحمد أبوزيد ، البناء الاجتماعى - مدخل لدراسة المجتمع - الجزء الثانى "الأنساق" ، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٤٦٣ .

٢١ - سليم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥٥ .

٢٢ - *Arnolds. Tannenbaum: Sociological Aspects, in: International Encyclopedia of* the Social Sciences. Volume 9, pp. 102-104.

Ibid., p. 104. - ٢٣

Ibid., p. 105. - ٢٤

Ibid., p. 105. - ٢٥

"Charisma", International Encyclopedia of the Social Sciences, The Macmillan Company & The Free press, New York, 1968, Volume 1, pp. 368-388. - ٢٦

Ibid., p. 388. - ٢٧

Abstract

SOCIAL STATUS AS A FACTOR OF SOCIAL CONTROL
An Anthropological Study in Northern Sinai

Mohamed Ghoneim

The tribe, which is a territorial, economic, kinship and political unit, is the most significant social group in Northern Sinai. Within the tribal structure differentiation is made among the various tribes and tribal groups according to origin, history, colour and numerical force, and these differences determine the social status and rank of each tribe thus constituting a rather rigid system of status hierarchy. The present study tries to demonstrate that the awareness of the various tribes and tribal groups, however small they may be, of their respective situations in this hierarchy, acts as an effective factor of social control in this otherwise militant and unrestrained society.

The ethnographic data on which the present study is based was collected from North Sinai during the field study which was carried out by a team of field investigators mainly in 1988 on behalf of the National Centre for Social and Criminological Research, Cairo, and under the supervision of Dr. Ahmad Abou-Zeid

البنائية والفكر الرمزى :
التصنيف - الطوطمية - الاساطير

احمد ابوزيد *

بلغ منهج اللغويات البنائية الذى وضعه دوسوسير من قوة التأثير فى الفكر البنائى الفرنسى أن عالماً أنثربولوچيا مثل كلود ليڤى ستروس استرشد به فى دراسته للظواهر الثقافية غير اللغوية ، بما فى ذلك الأنساق الرمزية ، ويذهب ليڤى ستروس فى ذلك إلى اعتبار هذه الأنساق أشبه فى تركيبها وصورتها النهائية بالأنساق اللغوية ، وأنها تتألف من وحدات صغيرة تماثل الوحدات اللغوية الصغرى التى اعتبرها دوسوسير الأساس الذى تقوم عليه أى لغة ، بحيث تكتسب اللغات معانيها من العلاقات القائمة بين تلك العناصر أو الوحدات التى تدخل فى تكوينها دون أن يكون لهذه العناصر نفسها أى معنى فى ذاتها وبذاتها وقد اختار ليڤى ستروس لتطبيق ذلك المنهج اثنين من أهم الأنساق الرمزية التى تعنى بها الأنثربولوچيا وهما النسق الطوطمى ونسق الأساطير . وكان هدفه الأخير هو الكشف عن المبادئ العقلية التى يقوم عليها الفكر الإنسانى ، وأن وراء الوقائع والحقائق العيانية المشخصة أو "الأمبيريقية" يكمن بناء عقلى كلىّ وعام

لعل أهم ماتعلمه ليڤى ستروس من اللغويات البنائية ** عند دوسوسير هو إدراكه صلاحية المنهج البنائى لدراسة كل الظواهر الثقافية غير اللغوية ، ولذلك استعان بهذا المنهج فى دراسته لأنساق القرابة فى كتاب *الأبنية الأولية للقرابة* *Les structures élémentaires de la parenté* ، وهو الكتاب الذى أرسى فيه أسس البنائية ، ثم طبقه فى مراحل لاحقة من حياته العلمية على عدد من الأنساق الثقافية الأكثر تجريداً من نسق القرابة ؛ ونعنى بذلك الأنساق الرمزية التى تتمثل

* أستاذ الأنثروبولوچيا، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

** راجع فى ذلك مقالنا عن "البناء والبنائية : دراسة فى المفهومات" - المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع والعشرون العدد الثانى - مايو ١٩٩٠ ، وكذلك مقالنا عن "الأصول اللغوية للبنائية : دراسة فى المفهومات" - المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد التاسع والعشرون ، العدد الثانى مايو ١٩٩٢

بوجه خاص فى النظام الطوطمي وفى الأساطير . وكان ليفى ستروس يعتقد أنه عن طريق دراسة أنساق الرموز يمكن الوصول إلى فهم العقل الإنسانى ذاته وكانت نقطة الانطلاق فى هذا كله هى تماثل بناء هذه الظواهر الثقافية غير اللغوية وبناء اللغة ، وأنها كلها تعمل كما لوكانت "شفرات codes" ومن هذا المنطلق قام بتحليل أنساق القرابة باعتبارها أنساقاً للاتصال تؤدى وظيفتها الاتصالية أو التواصلية عن طريق زواج (أى تداول) النساء اللاتى ينتمين إلى جماعات معينة بالذات من رجال ينتمون إلى جماعات معينة بالذات أيضا . وبالمثل فإنه يعتبر الطوطمية "لغة" تساعد على تصور واستيعاب البناء الاجتماعى والعلاقات القائمة بين الجماعات المختلفة التى تؤلف ذلك البناء ، كما يعتبر الأسطورة ، نسقا من "العلامات" يتم عن طريقها تمثيل الطبيعة فى العقل وتمثيل العقل فى الطبيعة ، وأن الوظيفة الاتصالية لكل هذه النظم من حيث هي "لغات" هي فى آخر الأمر مساعدة العقل على الاتصال بالعالم الخارجى وتمثل العالم الخارجى فى العقل(١) .

وعلى أى حال فإن اهتمام ليفى ستروس بدراسة الفكر الرمزى والأنساق الرمزية يرجع إلى رغبته فى الكشف عن اللاشعور عن طريق تحليل الأبنية التى يعكسها ذلك الفكر نفسه . فالفكر الرمزى يقدم لنا مايسميه بعض الكتاب البنائيين "مابعد اللغة Métalanguage" ، وهى "لغة" تكتسب معناها من العلاقات القائمة بين العناصر التى تكونها ، دون أن يكون لهذه العناصر معنى فى ذاتها وبذاتها .. وهذا كلام قد يبدو غامضا الآن وبخاصة لمن لم يتعود على أسلوب البنائيين وتفكيرهم ، ولكنه سوف يتضح حين نتناول بالتحليل نظام الطوطمية والأساطير كما تظهر فى كتابات ليفى ستروس الذى نركز عليه فى هذا المقال .

ولقد تناول ليفى ستروس عمليات الفكر الإنسانى فى سلسلة من الكتابات التى بلغ فيها التحليل البنائى عنده الذروة ، ونعنى بذلك بوجه خاص كتابه القصير الممتع *الطوطمية فى الوقت الحالى Le totémisme aujourd'hui* ثم دراسته التفصيلية للأساطير التى ضمنها كتابه الضخم الذى يطلق عليه اسماً طريفاً يحمل أكثر من تأويل وهو *Mythologiques* وليس مجرد *Mythes* ، بأجزائه الأربعة ، والذى اصطلح على ترجمته ترجمةً لاتقل عن ذلك طرافة وهى *"أسطوريات" (وليس أساطير)* ، وذلك إلى جانب كتابه الصعب العميق *La pensée sauvage* أى *"التفكير الوحشى أو بشكل أدق "التفكير الخام"* .

وعلى أى حال فإنه قبل أن ندخل فى الكلام بالتفصيل عن دراسات ليفى

ستروس للأنساق الرمزية فى الطوطمية والأساطير ، يحسن بنا أن نبين موقفه مما يسميه بالتفكير الوحشى أو الخام حتى نعرف هذا التفكير وكيف تنعكس خصائصه فى تلك الأنساق الرمزية .

(١)

كان ليفى ستروس يقف دائما موقف المعارضة الصريحة من الآراء التى كانت تصف (البدائيين) بعدم القدرة على التفكير المجرد ، وكان يرى أن علماء الأنثروبولوجيا أخفقوا فى تفسير كثير من الحقائق عن الشعوب (البدائية) لأنهم لم يفهموا المنطق المحكم الذى يكمن وراء هذه الحقائق . فالتفسيرات (الذرية) ، وشأنها فى ذلك شأن التفسيرات الوظيفية ، تفشل فى كثير من الحالات لأنها تُظهر هذه الشعوب كما لو كانت ساذجة وبدائية للغاية ، وهو أمر يرفضه أشد الرفض . وعلى ذلك فإنه لم يكن يقصد من كتابه عن *التفكير الوحشى* أن يميز بين تفكير خاص (بالمتوحشين) وآخر لبقية البشر ، وإنما كان يقصد ببساطة العمليات الفكرية (الخام) التى لم يدخل عليها أى تهذيب أو تعقيد نتيجة للثقافة ، والتى يشترك فيها كل البشر فى كل زمان ومكان . من هنا كانت ترجمة *La pensée sauvage* بالتفكير الخام ترجمة صادقة ، ولكننا سوف نستخدم تعبير *التفكير الوحشى* تمشيا مع منطوق العنوان الفرنسى على أن يكون المفهوم من هذا التعبير طيلة الوقت المعنى الحقيقى الذى أراده ليفى ستروس . ولكى يثبت ليفى ستروس أن الشعوب المتأخرة لاتنفرد بنوع من التفكير مختلف عن تفكير الشعوب الأكثر تقدما ، وأنها قادرة على التفكير المجرد مثلها ، عالج فى كثير من مقالاته بعض التصورات الثقافية البدائية التى تتمتع بدرجة عالية من التجريد مثل فكرة "المانا" ولكنه – وهذا هو الأهم – كان يرى أن بعض اللغات البدائية تكشف بوضوح عن قدرة الرجل (البدائى) على تكوين الأفكار المجردة وعلى التفكير التجريدى . فالناس عند الشينوك فى الشمال الغربى من أمريكا مثلا – على مايقول هو نفسه فى بداية الفصل الأول من الكتاب – بدلا من أن يقولوا "الرجل الشرير قتل الطفل البائس" يقولون إن "شر الرجل قتل بؤس الطفل" ، وبدلا من أن يقولوا إن "المرأة استعملت سلة صغيرة للغاية" يقولون إن "المرأة وضعت الدرنات فى صغر حجم سلة القواقع" وهكذا [٢] .

وقد أعطى ليڤى ستروس جانبا كبيرا من اهتمامه لدراسة الصور المختلفة للفكر البدائى ، ولاحظ أن هذه الصور هى عبارة عن مؤشرات واضحة على توافر المعلومات عند هذه الشعوب عن الكون والبيئة الطبيعية ، كما أنها تشير في الوقت ذاته إلى الأساليب والوسائل المختلفة التى يلجأ إليها الرجل (البدائى) لتمثل هذه المعلومات من ناحية ، ونقلها وتوصيلها وتداولها من ناحية أخرى ، وذلك على الرغم من عدم معرفتهم الكتابة .

ويمكننا أن نستشهد هنا ببعض الأمثلة لتلك الصور الفكرية التى اهتم ليڤى ستروس بدراستها لكى يصل إلى تحديد معالم "التفكير الوحشى" .

• • •

أ - *المثال الأول* هو مشكلة *التصنيف* التى تشغل جانبا هاما من الفكر البدائى ، وفى ضوئها يمكن لنا أن نفهم النسق الطوطمى ونسق الأساطير. والملاحظ أن نسق التصنيف عند هذه الجماعات يختلف اختلافا كبيرا عن التصنيفات العلمية ، وذلك نتيجة لاختلاف الوظائف التى تؤديها هذه التصنيفات فى المجتمع ، وهى وظائف أوسع وأكثر تنوعا فى المجتمع البدائى عنها فى المجتمع المتحضر الحديث ؛ كما أن تصنيف العالم الخارجى كان يفرض نوع التنظيم والترتيب السائد فى ذلك المجتمع . فالاختلافات بين الأنواع الحيوانية مثلا كانت تُطبق بحذافيرها فى تلك المجتمعات . بل إن نفس الفوارق القائمة بين أى رتبتين من رتب نوع حيوانى واحد كانت تجد لها مثيلا فى التفرقة بين الزمر التى ينقسم إليها المجتمع ، وهكذا . وبقول آخر ، فإن (البدائيين) يميلون إلى أن يروا الاختلافات بين جماعة إنسانية وأخرى فى ضوء الاختلافات القائمة بين نوع حيوانى وآخر . فإذا كانت هناك علاقة بين عشيرة معينة وطوطم حيوانى معين فليس من الضرورى إطلاقاً أن يكون لهذا الطوطم أىٍّ معنى دينى أو اقتصادى خاص بالنسبة لهذه العشيرة على ماكان يذهب إليه علماء الأنثروبولوچيا السابقون ؛ بل إن مثل هذا المعنى قد يكون نتيجةً وليس سبباً أو علة على مايقول . فإذا كنّا نقول مثلا إن العشيرة أ (انحدرت) من الدب وأن العشيرة ب (انحدرت) من النسر ، فإن هذا ليس إلا طريقة سهلة ومبسطة ومختصرة وملموسة لتقرير وجود علاقة بين أ ، ب تماثل العلاقة بين نوعين من الكائنات ، هما الدببة والنسور . ويتمثل التشابه هنا فى أن كلا منهما يعيش على الصيد وأنهما كائنان

مفترسان ، ولكنهما يتمايزان فيما عدا ذلك من حيث إن أحدهما حيوان برى والآخر يعيش فى الجو ، وأنهما لايتنافسان على نوع الصيد الذى يعيش كل منهما عليه ويقتات . وهذا نفسه يمثل العلاقة بين العشيرتين أ ، ب اللتين تعتمد حياتهما على الصيد والقنص ولكن فى مجالين مختلفين ، بحيث يمتنع معه قيام أى نوع من التنافس الاقتصادى بينهما ، إذ تعيش إحداهما على صيد الطيور بينما تعيش الأخرى على قنص الحيوان (٣) .

ب - الشئ نفسه يصدق على *الأساطير* . فالوظيفة الأولى الأساسية للأساطير هى "المساعدة على حل المشكلات العقلية والمفارقات الأساسية فى الحياة الإنسانية" (٥) ، مثل أصل العالم ، أو الاختلاف بين الانسان والحيوانات ، أو الاختلاف بين الأخوات والزوجات وما إلى ذلك . فهى تقوم فى المجتمع البدائى بنفس الدور الذى يقوم به الدين أو الفلسفة فى المجتمعات الأكثر تقدما . "والظواهر الطبيعية هى الوسيلة التى تحاول الأساطير عن طريقها تفسير الحقائق "ذات الطابع المنطقى ordre logique" وليس الحقائق "ذات الصفة الطبيعية ordre naturel" . وليفى ستروس يأخذ على المدرسة الطبيعية وروادها من أمثال مانهارت Manhardt أنهم يعتقدون أن الظواهر الطبيعية هى الشئ الذى تحاول الأساطير تفسيره ، بينما الواقع أن هذه الظواهر الطبيعية ذاتها هى مجرد وسائط تحاول الأساطير عن طريقها تفسير تلك الحقائق (٦) .

جـ - كذلك الحال فيما يتعلق بما يسميه ليفى ستروس "التفكير السحرى" الذى يؤلف مع الطوطمية والأساطير أسلوبا متسقا ومتماسكا للنظر إلى العالم وملائما لمتطلبات الحياة البدائية . ومن هذه الناحية يرى ليفى ستروس أن هذا التفكير السحرى يؤلف بديلا عن "العلم الطبيعى" الذى يناسب الحضارة الغربية ويتلاءم معها . وعلى ذلك فيجب ألا ننظر إلى التفكير السحرى على أنه بداية لشئ آخر أكثر تطوراً منه ، أو على أنه جزء من كلٍّ لم يتطور بعد ، كما كان يفعل علماء القرن الماضى (٧) وإنما يجب أن ننظر إليه على أنه نسق واضح ومتمايز ومستقل تماما عن ذلك النسق الآخر الذى يؤلف العلم . بل إن ليفى ستروس يذهب إلى حد القول إن الإنسان (يحرم نفسه) من فهم التفكير السحرى على حقيقته إن هو حاول رده إلى مرحلة من مراحل التطور العلمى أو التقنى . وعلى ذلك ، فبدلا من أن نعارض السحر بالعلم فإن الأفضل أن نقارن بينهما كأسلوبين

متوازيين لاكتساب المعرفة ، وذلك على الرغم من أن النتائج النظرية والعملية تختلف قيمتها فى الحالتين ، لأن العلم أكثر نجاحا من السحر فى هذا المجال ، وإن كان هذا لاينفى أن السحر قد يتغلب أحيانا على العلم ويحرز بعض النجاح والتفوق[٨] .

د – وللرجل (البدائى) قدرة هائلة على رؤية علاقات بين الأشياء أوسع بكثير مما نظن ، كما أنه يستطيع أن يرى أنواعا وأشكالا مختلفة وعديدة من الترابطات بين مختلف الملامح بصورة لانكاد نجد لها مثيلا عند الرجل المتحضر الحديث . ومع ذلك فالملاحظ هو أنه فى محاولته ربط الرموز بعضها ببعض فإنه يتخير وينتقى المظاهر والملامح التى تدخل فى تلك العملية (أعنى خضوع الظواهر الطبيعية والاجتماعية للعمليات الذهنية) . ومع التسليم بأن أى شئ فى العالم هو مجموعة كبيرة من الخصائص والملامح المميزة ، فالواقع أننا حين نتكلم عن الشئ فإننا نأخذ فى الاعتبار تلك الملامح والخصائص التى تتفق فقط مع أهدافنا ومع الظروف التى تشير إلى ذلك الشئ . فالخصائص "التى تقفز إلى الذهن" حين نتكلم عن حيوان معين بالذات من حيث فصيلته أورتبته فى المملكة الحيوانية تختلف بغير شك عن تلك التى تتبادر إلى الذهن حين ننظر إلى ذلك الحيوان نفسه من زاوية مدى صلاحيته لأن يكون طعاما للإنسان ، أو من زاوية مدى خطورته بالنسبة للإنسان ، وهكذا . وربما كانت نظرة قبائل الناڤاهو وتصنيفهم للحيوانات تصلح مثالا لتقريب الموضوع ، وفى ذلك يقول ليڤى ستروس :

"إن الناڤاهو الذين يعتبرون أنفسهم على درجة عالية جدا من القدرة على التصنيف يقسمون الكائنات الحية إلى فئتين ، على أساس إذا ما كانت قادرة – أو غير قادرة – على الكلام . وتضم فئة الكائنات غير القادرة على الكلام الحيوانات والنباتات . وتنقسم الحيوانات إلى ثلاث مجموعات هى الحيوانات التى تجرى ، وتلك التى تسبح ، وتلك التى تزحف . وكل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث تنقسم بدورها بطريقتين إلى تلك التى تنتقل على الأرض وتلك التى تنتقل بواسطة الماء من ناحية ، وإلى تلك التى ترحل وتتحرك بالنهار وتلك التى تتحرك بالليل من الناحية الأخرى" [٩] .

ثم يردف ليڤى ستروس ذلك بقوله : "وهذا التقسيم إلى أنواع والذى نصل إليه بهذه الطريقة لايتفق تماما مع التقسيم الذى يضعه علم الحيوان" .

كذلك الحال عند الأصمات Asmat وهى قبائل تعيش فى غينيا الجديدة وتمارس قنص الرءوس . فهم يصنفون الببغاء والسنجاب فى فئة واحدة على اعتبارأنهما من أكلة الفواكه ؛ ولكنهم يعتقدون فى الوقت ذاته أن هناك علاقة قوية تربط الرجال الذين يخرجون لقنص الرءوس بالببغاء والسنجاب ويعتبرونهما إخوة لهم ، وذلك على أساس وجود نوع من التماثل بين الجسم الإنسانى والشجرة من ناحية ، وبين الرأس الآدمية وفاكهة الشجر من الناحية الأخرى . فالرأس الآدمية عندهم هى مجرد شئ معلق على الجسد ويمكن فصله عنه ، فضلاً عن أن له عندهم قيمة عملية بعد قطعه أو قنصه . والمماثلة هنا واضحة بين علاقة الجسم بالرأس ، وبين علاقة الشجرة بالفاكهة (١٠) .

والطريف فى الأمر هو أن ليفى ستروس يوجه النظر إلى أن الطريقة التى تعمل بها هذه المعرفة المشخصة العيانية concret ووسائلها ومناهجها والقيم الفعالة التى تحملها ، تشبه إلى حد بعيد جدا مانجده أحياناً فى مجتمعاتنا الحديثة ، وبخاصة لدى الأشخاص الذين – حسب تعبيره – تضعهم أنواقهم أو أعمالهم فى علاقة ما مع الحيوانات ، وذلك بقدر ماتسمح به حضارتنا من قيام مثل هذه العلاقة . وهو يقصد بذلك الأشخاص الذين يعملون فى السيرك أو فى حدائق الحيوان . ويستشهد ليفى ستروس على ذلك بما ذكره هديجر H.Hediger فى كتابه الذى ترجم إلى الإنجليزية عن الألمانية تحت عنوان *Studies of the Psychology and Behaviour of Captive Animals in Zoos and Circus.* وفيه يصف علاقته هو نفسه بالحيوانات التى اتصل بها وقت أن كان يعمل مديراً لحدائق الحيوان فى زيورخ ، وبخاصة علاقته بالدولفين ، حيث يلاحظ "عيونه التى تشبه العيون الآدمية إلى أبعد الحدود ، والثقب الغريب الذى يستخدمه فى التنفس، وشكل ولون جسمه الذى يشبه الطوربيد ، وملمس جلده الشمعى البالغ النعومة" ، ثم لايلبث أن يقول عنه إنه "لم يكن مجرد سمكة ... فحين ينظر إليك بعينيه البراقتين من على بعد أقل من قدمين فإنك لن تستطيع أن تتمالك نفسك من التساؤل عما إذا كان ذلك حيواناً حقاً" بل إن الأمر يصل إلى حد القول إنه كان يبدو له أحيانا كما لوكان كائنا مسحوراً . ويضيف ليفى ستروس إلى ذلك قوله إن مثل هذا الكلام الصادر عن أحد رجال العلم يكفى لكى ندرك أن المعرفة النظرية يمكن أن تكون موضوعية وذاتية فى نفس الوقت ، وأنه ليس من الضرورى أن تكون مجردة من كل عاطفة أو إحساس ، كما أن ذلك يبين أن العلاقات

المشخصة العيانية بين الإنسان وبقية الكائنات الحية تضفى على مجال المعرفة العلمية لونا عاطفيا هو فى الحقيقة نتيجة لهذا التوحد identification البدائى الذى كان روسو يعتبره مسئولا عن الفكر وعن المجتمع [١١] .

(٢)

مثل هذه النتائج التى يصل إليها ليفى ستروس من دراسته لبعض مظاهر التفكير الرمزى والأنساق الرمزية عند الشعوب (البدائية) ، هى التى تجعلنا نقول إن ليفى ستروس لم يكن يهدف من كتابه *"التفكير الوحشى"* إلى التمييز بين أنواع مختلفة من التفكير الإنسانى إلى جانب تفكير (البدائيين) ، وأن الكتاب يدور حول "العمليات الذهنية" ذاتها أكثر مما يدور حول "نتاج" هذه العمليات ، أى أنه يدور حول "التفكير" وليس حول "الفكر" ، وأنه يهدف فى آخر الأمر إلى الكلام عن الطريقة التى يفكر بها "كل البشر" حين لاتكون هناك قواعد أو مبادئ صارمة محددة تضع قيودا على تفكيرهم ، أوحين لايستعينون بوسائل وأساليب مساعدة (مثل الكتابة) من شأنها أن ترفع من إنتاجهم الفكرى سواء من الناحية النوعية أو الكمية [١٢] . ومع أن ليفى ستروس لايشك إطلاقا فى أنه يمكن معرفة الشئ الكثير عن التفكير الإنسانى بوجه عام مع ملاحظة ودراسة أعضاء المجتمعات المتحضرة الحديثة فإنه يعتقد فى الوقت ذاته بأن دراسة "التفكير الوحشى" خليقة بأن تكشف لنا كثيراً من الأمور التى قد تفوتنا معرفتها لو أننا قصرنا الدراسة على تلك المجتمعات المتحضرة وحدها . وهذا فى حد ذاته يعتبر تبريرا قويا للاهتمام بالدراسات الأنثربولوجية . والمهم هنا هو مايقوله ليفى ستروس من أن التفكير "الذى نصفه بأنه بدائى يقوم على الحاجة إلى الترتيب أو النظام ، وهذا يصدق تماما وبالمثل على كل أنواع التفكير . ولكنْ عن طريق تلك الخصائص المشتركة بين التفكير البشرى فى عمومه يمكن لنا بسهولة أن نبدأ فى فهم صور وأشكال التفكير التى تبدو لنا غريبة" [١٣] .

وهذه العبارة على جانب كبير من الأهمية نظراً لما يذكره من أن التفكير الوحشى يقوم على الحاجة إلى الترتيب والنظام ، وهذا هو أساس التصنيف الذى يلجأ إليه التفكير الوحشى فى نظرته لأمور الكون والمجتمع . وليس التصنيف فى آخر الأمر سوى ترتيب وتجميع العناصر أو الوحدات بعضها مع بعض حسب ملامح وخصائص مشتركة . ولكن التفكير هنا يتميز بخاصية أساسية مميزة هى

أنه يعمل على مجموعة من الرموز ، قد تكون كثيرة ، ولكنها ليست لامتناهية ، فيقوم بتجميعها وتركيبها بأساليب وطرق مختلفة بحيث تتخذ أشكالا وصيغا متنوعة ومتباينة ، دون أن يكون هناك عناصر جديدة تماما يمكن أن تضاف وأن تتدخل فى عملية إبداع أشياء جديدة . ويشبِّه ليفى ستروس عمل التفكير الوحشى فى هذا الصدد بما يحدث فى المشكال Kaleidoscope الذى يصفه بأنه ذلك الجهاز الذى يحتوى على قطع وأجزاء متناثرة ولكن يمكن بواسطتها تحقيق ترتيبات بنائية arrangements structuraux متنوعة ومختلفة . وهذه الأجزاء لاتؤلف (كيانات) لأنها مجرد قطع ونفايات وبقايا أشياء سابقة كانت موجودة من قبل . ولكنها فى الوقت ذاته تدخل بعضها مع بعض طيلة الوقت فى علاقات مختلفة لتكوين (كيانات) جديدة تماما [١٤] . كذلك فإن التفكير الوحشى يعمل بعدد محدد من العناصر مستخدما بعض المقولات والعلاقات المحددة *مثل التناظر homologie والتعارض أو التقابل opposition* وقلب أو عكس وضع العناصر بعضها بالنسبة لبعض *inversion* لكى يخرج فى آخر الأمر بأشكال وصيغ جديدة . ويطلق ليفى ستروس على هذه العملية كلمة طريفة ليس لها مقابل فى اللغات الأخرى ، ولذا يُستخدم المصطلح الفرنسى فى الترجمات الغربية المختلفة ، وهى كلمة bricolage. وأقرب ترجمة لها فى العربية هى الكلمة العامية (التوليف). فالفكر البدائى أو *الفكر الأسطورى* (لأنه استخدم هذا المفهوم فى تحليله للأساطير بوجه خاص على ماسنرى) هو فكر "توليفى" يقيم أبنية جديدة عن طريق "التوليف" بين الأحداث – أوعلى الأصح بين أجزاء الأحداث – فيعيد تجميعها وتركيبها معاً بشكل جديد . وعمليات التصنيف البدائى تمثل بذلك نوعا من "التوليف" الذى يساعد على ربط وتجميع الرموز المختلفة بعضها ببعض حسب السمات والخصائص التى تؤخذ فى الاعتبار فى كل حالة [١٥] ، حتى وإن لم تكن هذه السمات أساسية وجوهرية . وهذا "التوليف" ، هو الذى يجعل قبائل الأصمات يصنِّفون الببغاء والسنجاب معاً ثم يربطون بينهما وبين الأشجار والآدميين على مارأينا . وسوف يتضح ذلك بشكل أوفى حين نتكلم عن تفسير ليفى ستروس للأساطير .

ومن ناحية أخرى ، فإن التفكير البدائى يستخدم كل مصادر الرمزية بغير استثناء ، وذلك على العكس من التفكير العلمى الذى لايُلقى بالاً للرمزية . ومن هنا كان التفكير البدائى يلجأ فى كثير من الأحيان إلى علاقات التشبيه والاستعارة والمجاز ، وهى كلها أمور يرفضها العلم . وهذا هو السبب فى أن التفكير البدائى

كثيرا مايضم فى فئات أو مجاميع أشياء متفاوته ، ليس على أساس امتلاكها لصفةٍ أوخاصية أساسية وجوهرية تميز كل أفراد تلك الفئة أو المجموعة كما يحدث فى التصنيفات العلمية ، وإنما على أساس الترابطات الرمزية التى تقوم بينها ؛ وإن كان من الملاحظ مع ذلك أن كل وحدة أوعنصر يدخل فى فئة واحدة لابد أن يكون مالكا لخاصية أو صفة من الصفات مهما تكن بعيدة . ومع أن ذلك قد يعنى أن التصنيفات البدائية تفتقر إلى منطق عام شامل إلا أن قواعد التفكير البدائى هى فى أساسها قواعد عقلية تقوم على القدرة على (مقابلة) أو معارضة الحدود إحداها بالأخرى ، وإقامة تصنيفات على أساس من التقسيمات الثنائية التى تؤلف ماسبق أن أشرنا إليه تحت اسم "*التقابلات الثنائية* *opposition binaires*" . وبذلك فليس من الضرورى أبداً أن تكون التصنيفات البدائية مانعة exculusive ، إذ كثيراً ماتتداخل بعضها مع بعض ، لأن المهم هو أن تكون شاملة وجامعة exchaustive على مايقول سايمون كلارك(١٦) .

ولكن على الرغم من كل مايقال من أن التفكير البدائى تفكير (عقلى) فإنه ليس تفكيرا (تحليليا) وانما هو تفكير رمزى يعمد إلى الصور المشخصة العيانية للتعبير عن الأفكار والتصورات المجردة . وكتاب *التفكير الوحشى* نفسه يمكن اعتباره دراسة فيما يسميه ليفى ستروس "منطق المحسوس" بل إن الفصل الأول من ذلك الكتاب يظهر تحت عنوان "علم المشخص العيانى" أو "علم المحسوس" أو علم المادى La science du concret وهو فى مجموعه محاولة للتدليل على أن تفكير الرجل البدائى تفكير منطقى ، بنفس المعنى ونفس الطريقة مثل تفكير الرجل المتحضر الحديث ، على مايقول هو نفسه صراحةً (فى صفحة ٣٥٥) .

والمهم هنا هو أن ليفى ستروس أفلح فى كتابه *التفكير الوحشى* فى أن يجعل النزعة العقلية البنائية structuralist intellectualism – كما يقول كلارك– تحل محل الوظيفية الاجتماعية فى تحليل الظواهر الثقافية . فقد نظر فى هذا الكتاب إلى الظواهر الثقافية غير اللغوية على أنها (أبنية) تتجاوب مع الحاجة اللاشعورية للنظام والترتيب ، وحللها على هذا الأساس ؛ أى على أنها مشكلات عقلية يثيرها اللاشعور أو الاسطورة . كما أنه استطاع أن يوسع من نظرته ، وبدلا من أن ينظر إلى المسألة من زاوية تصنيف الظواهر نظر إليها من مدخل أكثر اتساعا وهو منظور التفكير الوحشى" بوجه عام ، مع التركيز على تحديد "منطق" التصنيفات البدائية لكى يتمكن من إقامة أسسه ومقوماته العقلية (١٧) .

(٣)

استرعى نظام الطوطمية انتباه ليڤى ستروس فى وقت مبكر نسبيا ، فخصص للموضوع كتابا مستقلا ظهر عام ١٩٦٢ بعنوان *"الطوطمية فى الوقت الحالى"* ، ثم عاد إلى الموضوع مرة أخرى فى العام نفسه حيث أفرد له عدداً من الفصول فى كتاب *التفكير الوحشى* . وتعتبر معالجته للطوطمية مثالاً طيبا لتطبيق منهج اللغويات البنائية على الظواهر الثقافية غير اللغوية . كما أنها تعكس فى الوقت ذاته نظرته إلى العقل الإنسانى بوجه عام ، وإلى نسق التصنيف بوجه خاص .

ولقد كانت الطوطمية دائما من أهم النظم الاجتماعية التى عُنى بدراستها علماء الأنثروپولوچيا منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، اعتباراً من إميل دوركايم فى كتابه الهام *الصور الأولية للحياة الدينية* *Les formes élémentaires de la vie religieuse* ، إلى سيرچميس فريزر فى كتابه القصير *"الطوطمية Totemism* ثم كتابه الضخم ذى الأربعة مجلدات عن *الطوطمية والزواج الاغترابى Totemism and Exogamy* ، إلى رادكليف براون فى مقاله الفذ "النظرية السوسيولوچية عن الطوطمية The sociological theory of Totmism" (١٩٢٩)" حيث صحح بعض أخطاء العلماء السابقين بما فيهم دوركايم نفسه .. بل إن لفرويد كتابا من أمتع ماكُتب على الإطلاق فى هذا الموضوع ونعنى به كتاب *الطوطم والتابو Totem and Taboo* ، وفيه عالج الطوطمية والتحريمات المتعلقة بها من زاوية التحليل النفسى وفى ضوء نظريته عن عقدة أوديب ، وذلك بالإضافة إلى عدد آخر كبير من العلماء الأقل شهرة ومكانة . وكثير من هؤلاء العلماء نظروا إلى الطوطمية على أنها أصل الدين ، أو أنها تمثل إحدى المراحل المبكرة فى التطور البشرى . وقد وقف ليڤى ستروس من هذه الدعاوى والتفسيرات (التطورية) وأمثالها موقف النقد والمعارضة ، وأخذ عليها أنها ترتكز على بعض المعانى الغريبة للطوطمية وتنظر إليها نظرة ضيقة وأنها أخفقت فى أن تعالجها ضمن إطار واسع يشمل الكون بأسره . وفى ضوء هذه المآخذ والانتقادات جاءت دراسته للطوطمية على أنها نظام عام وشامل للتصنيف ، أو أنها بقول أدق مظهر من مظاهر قدرة الإنسان على تصنيف الكون من حوله .

والطوطمية – كما تظهر فى كل الكتابات الأنثروپولوچية – نسق معقد هو مزيج من عدد كبير من النظم ذات الطابع الدينى والاقتصادى والاجتماعى ، إذ

يمتزج فيه الاعتقاد بوجود علاقة خاصة بين الإنسان (أفراد عشيرة معينة) وبعض الكائنات الأخرى ، وبوجه خاص أنواع معينة من الحيوان أو النبات وإلى حد أقل بعض القوى الطبيعية . وتأخذ هذه العلاقة فى الأغلب شكل الاعتقاد بانحدار أفراد عشيرة معينة بالذات من حيوان معين بالذات أيضا ، ولذا فإنهم يحملون اسم (الطوطم) ، كما تفرض هذه العلاقة على أفراد العشيرة عددا من القيود والتحريمات والممارسات ، لعل أهمها هو تحريم الزواج بين أفراد العشيرة التى تنتسب إلى ذلك الطوطم لأنهم يُعتبرون جميعا إخوة وأخوات ، وبذلك فإن الزواج بينهم يكون نوعا من الزنا بالمحارم . ويترتب على هذه القواعد والتحريمات كلها أن يتزوج أفراد العشيرة الطوطمية من خارج عشيرتهم ، وبذلك يسود الزواج الإكسوجامى أو الاغترابى فى المجتمعات الطوطمية[١٨] .

ومنذ الصفحة الأولى من كتابه *الطوطمية فى الوقت الحالى*[١٩] . يرفض ليڤى ستروس هذه النظرة رفضا صريحا ويرى أن هذا النظام ، بالشكل الذى يتصوره هؤلاء العلماء ، ليس إلا وهماً ililusion قام هؤلاء العلماء بصياغته . بل إن الفصل الأول من الكتاب يحمل عنوان "الوهم الطوطمى" ، ويقول فى مطلع هذا الفصل إن قبول مناقشة موضوع يؤمن الإنسان بزيفه يحمل دائما فى ثناياه كثيرا من الخطر ، لأنه سوف يعنى أن المرء يؤمن إلى حد ما بذلك الوهم القائم حول حقيقة هذا الموضوع . وعلى الرغم من أنه قد يكون من الأفضل والأحكم إغفال مثل هذه النظريات الخاطئة "وعدم إيقاظ الموتى" إلا أنه لابد من التعرض لها حتى يمكن "الوصول إلى تفسير مختلف" . والظاهر أن هذا هو الذى يجعله يعرض لعدد كبيرجدا من الآراء والنظريات ويناقشها بطريقة تمتزج فيها آراء هؤلاء العلماء بنظرته هو الخاصة النافذة . ولكنه يصدر فى موقفه من اعتقاده أن كل تلك النظريات السابقة تقوم على مجرد جمع قدر كبير جدا من المعلومات بطريقة جزافية ثم وضعها كلها بعد ذلك تحت اسم (الطوطمية) ؛ وأن كل تلك النظريات نشأت فى الأصل نتيجة لعدم فهم هؤلاء العلماء لطبيعة ذلك النظام ، وخضوعهم لبعض المفهومات الخاطئة التى كانوا يسلمون بها مسبقا .

ولكى يتمكن ليڤى ستروس من تبديد (الوهم) ويكون منطقيا مع نفسه ومع منهجه البنائى كان لابد له من أن يرجع إلى الدروس المستفادة من لغويات دوسوسير ، وبوجه خاص إلى فكرة أن الظواهر الثقافية (لغات) ، ورأيه فى العلامة وعنصريها المكوِّنين (الدال والمدلول) ، والتقابلات الثنائية . وقد حرص ليڤى

ستروس على أن يتجنب الوقوع فى خطأ إثارة التساؤلات التقليدية التى تدور حول سبب ظهور النظام الطوطمى ، أو السبب فى اعتقاد جماعة معينة بالذات ، فى وجود علاقة خاصة تربطها بنوع معين بالذات من الحيوان أو النبات . فقد كان يرى أن مثل هذه الأسئلة لن تجد أبداً إجابات شافية ومقنعة لأن كل الإجابات سوف تقوم على افتراضات خاطئة عن انحدار أعضاء تلك الجماعة من ذلك الحيوان أو النبات ؛ أو افتراض وجود تشابه فى بعض الصفات أو الخصائص أو الطباع بين أفراد تلك الجماعة وأفراد ذلك النوع الحيوانى ، وما إلى ذلك من تفسيرات غريبة . وعلى حد قول الأستاذ دان سبربر "فإن تفسيرات السلوك الغريب بأفكار عالمية أكثر غرابة لايُعتبر تفسيراً على الإطلاق" [٢٠] . وعلى ذلك فنحن نجد ليفى ستروس بدلا من أن يسأل عن ماهيه الطوطمية أو عن أسباب ظهور النظام الطوطمى يسأل عن الطريقة التى يتم بها (ترتيب) الظواهر الطوطمية . ووضعه السؤال بهذه الطريقة يكشف لنا منذ البداية عن الموقف البنائى الذى يتخذه فى نظرته إلى الموضوع ، خاصةً وأن مثل هذا السؤال من شأنه أن يُبعده عن الوقوع فى خطأ التأملات والتخمينات النظرية التى انجرف فى تيارها العلماء السابقون ، ربما باستثناء رادكليف براون .

والواقع أن ليفى ستروس لم يحاول أن يقدم لنا (تفسيراً) لتلك الظواهر الطوطمية على الرغم من أنه كرّس كتاب *الطوطمية فى الوقت الحالى* لنقد النظريات السابقة عليه وتسفيهها وإظهار مافيها من عيوب ونقائص . بل إنه لم يكن يهتم على الإطلاق بتقديم أى (تفسير) ، إذ كان يرى أن الأجدى والأفضل هو الكشف - كما قلنا - عن الطريقة التى تترتب بها هذه الظواهر الطوطمية ، خاصةً وأنه كان يشير إليها أحيانا باسم "الشفرات الطوطمية" باعتبارها أساليب للاتصال ، مع تبيين "دلالة" هذه الشفرات بالنسبة لأعضاء المجتمع الطوطمى . وواضح هنا مدى التزامه بالمبادئ المستمدة من لغويات دوسوسير ، لأنه فى كل معالجته للموضوع كان يعطى أهمية بالغة لمسألة المعنى والدلالة فى تلك الظواهر ، كما أنه نظر إليها كجزء من "النسق البنائى" وهو ماعجز عنه العلماء السابقون على مايقول (صفحة ٢٥ من *الطوطمية فى الوقت الحالى*) .

والخطأ الذى وقع فيه العلماء السابقون - حسب مايقول - هو أنهم كانوا يخلطون بين مسألتين مختلفتين :

المسألة الأولى "تنشأ نتيجة لمحاولات المطابقة identification بين الكائنات

الإنسانية والنباتات أو الحيوانات" ؛ وهى مسألة عامة جدا وذات صلة بالعلاقات بين الإنسان والطبيعة ، وهى علاقات تدخل فى مجال الفن والسحر بقدر ماتدخل فى مجال المجتمع والدين ... وأما *المسألة الثانية* فهى مسألة "تحديد وتسمية جماعات تقوم على أساس روابط القرابة ، وذلك عن طريق الاستعانة بألفاظ وأسماء حيوانية أو نباتية وبطرق وأساليب مختلفة . وكلمة طوطمية تغطى فقط الحالات التى يتوافق فيها هذان الوصفان" [٢١] . ومن هنا كان ليڤى ستروس يرى أن الطوطمية بهذا المعنى فكرة "مصطنعة لاتوجد إلا فى أذهان الأنثروبولوچيين ولاتجد لها مايماثلها تماما فى الحقيقة والواقع" (صفحة ١٤) . ولذا كان يحرص على أن يذكر صراحة أنه حين يستخدم كلمة (طوطمية) فهو يفعل ذلك تمشياً فقط مع هؤلاء العلماء الذين يناقش نظرياتهم ، وأنه قديكون من غير المناسب أن يضع كلمة "طوطمية" طيلة الوقت بين علامتى تنصيص أو أن يتبعها بكلمة "المزعومة" كوسيلة لتحديد موقفه وتوضيح وجهة نظره إلى المسألة (صفحة١٧) .

من هنا يبدأ ليڤى ستروس تحديد المعالم العامة "للمجال الدلالى Sémantique" الذى توجد فيه كل تلك الظواهر المختلفة التى يطلق عليها كلمة "طوطمية" ويلاحظ :

"أن كلمة طوطمية تغطى العلاقات التى يُعتقد فى قيامها بين فئتين متمايزتين ؛ إحداهما طبيعية والأخرى ثقافية . فأما الفئة الطبيعية فتتألف من أصناف catégories وآحاد indidus ، بينما تتألف الفئة الثانية من جماعات groupes وأشخاص personnes . ويتم اختيار كل هذه الأطراف بطريقة اعتباطية ، وبذلك يمكن التمييز داخل كل فئة بين نمطين من الوجود: وجود اجتماعى ووجود فردى . كما يمكن تجنب الخلط بين هاتين الفئتين . ويمكن فى هذه المرحلة الأولية استخدام أى ألفاظ بشرط أن تكون متمايزة ومختلفة" (صفحة ١٨) .

ويترجم ليڤى ستروس هذه العبارة فى جداول لامحل للتعرض لها هنا ، ولكنه يلجأ إليها لكى يبين الحالات التى تنشأ فيها الطوطمية نتيجة للعلاقات بين مكونات هاتين الفئتين . ويلاحظ باختصار أن الطوطمية تقتصر على تلك الحالات التى تقوم فيها علاقات بين الأشخاص (الثقافة) وبين أصناف (ولكن ليس بين آحاد) حيوانية أو نباتية (الطبيعة) . وعلى ذلك فالمسألة ليست مسألة علاقة عشيرة واحدة معينة بالذات بحيوان معين أو نبات معين بالذات أيضا ، وإنما المسألة تتعلق

بالأحرى بكل مجموعةالعلاقات الثنائية التى تقوم بين فئة الجماعات الإنسانية وفئة الأصناف أو الأنواع (حيوانيةً كانت أو نباتية) التى تدخل فى الاعتبار، وبذلك تتعدى نظرة ليفى ستروس العلاقة المحددة بين عشيرة واحدة معينة ونوع حيوانى معين أيضا . وفى هذا تجاوزٌ كذلك لكل المحاولات القديمة التى كانت تقنع بتفسير الطوطم فى ضوء العلاقة الثنائية بين وحدات فردية (عشيرة ونوع حيوانى) ، أو فى ضوء العلاقة الثنائية بين (مجموعات) من تلك الوحدات الفردية . وبدلاً من ذلك كله نظر إلى الطوطمية فى ضوء العلاقة بين *كل فئة* الحيوانات التى يختلف كل صنف فيها عن الأصناف الأخرى فى مميزاتها وخصائصها الفيزيقية وأسلوب حياتها ، *وكل فئة* الجماعات الإنسانية التى تختلف كل جماعة فى داخلها أيضا عن الجماعات الأخرى فى المركز والدور الاجتماعى الذى تؤديه .

فالمسألة إذن ليست مسألة (التشابه) فى خصائص أوصفات أعضاء العشيرة وأفراد الطوطم ، وإنما هى بالأحرى مسألة (الاختلاف) داخل كل فئة من فئتى الطبيعة (متمثلةً فى الطوطم) والثقافة (متمثلةً فى الجماعات أو العشائر الإنسانية) . وأى تشابه يفترض التمثيل représentation الطوطمى بعد ذلك فهو تشابه "الاختلاف" بين هذين النسقين[٢٢] وذلك على أساس أن الاختلافات بين أى نوعين من شأنه أن يساعد على إبراز وتوكيد الاختلافات بين عشيرتين[٢٣] . والأمر هنا يشبه مايحدث فى اللغويات البنائية . فكثيرا مايساعد الاختلاف بين أى صورتين صوتيتين على إبراز وتوكيد الاختلاف بين فكرتين أوتصورين ، وأن الاختلاف هو الذى يساعد على إبراز وتحديد المعنى ، كما هو الحال مثلا بين (سَبَر) و (صَبَر) . ولكن هذه مسألة أخرى لاداعى للدخول فى تفاصيلها هنا .

وليس من شك فى أن نسق الاختلافات بين الأنواع الحيوانية أشد قوة ووضوحا من نسق الاختلافات بين الجماعات الإنسانية ، وذلك نظراً لتشابه أعضاء المجتمع الواحد فى كثير من الملامح الفيزيقية وأساليب الحياة وأنماط السلوك والقيم على الرغم من اختلاف التقسيمات إلى عشائر ، ومن تفاضل الأدوار والمراكز وما إلى ذلك . وهذا معناه أن الجماعات الإنسانية (تحاول) عن طريق النظم الطوطمية ليس مضاهاة نسقين من الاختلافات موجودين من قبل بالفعل ، وإنما إقامة أحد هذين النسقين بمساعدة الآخر . أى أن الجماعات الإنسانية لاتهدف عن طريق الطوطمية إلى التعبير عن التشابه بين العشائر والطواطم ، ولاحتى التعبير عن الاختلافات الاجتماعية بين هذه العشائر بعضها

ويعض فحسب ، وإنما هي تهدف إلى ماهو أبعد من ذلك ، ألا وهو (خلق) و (إيجاد) هذه الاختلافات والتفاضلات ، والعمل على تقويتها وترسيخها [٢٤] .

من هنا يمكن اعتبار الطوطمية مثالاً واحداً من الأمثلة العديدة التى تكشف عن قدرة العقل البشرى على فرض نوع من التنظيم أو الترتيب على تمثيلاته وتصوراته عن العالم . فالأنساق الطوطمية دليل على قدرة العقل البشرى بوجه عام ، وهى فى الوقت ذاته نتاج وحصيلة هذه القدرة ، وليست مظهرا من مظاهر عجز الشعوب (البدائية) أو قصور فهمها كما كان يتصور علماء القرن التاسع عشر . ونظرة ليفى ستروس إلى الطوطمية هى فى الحقيقة جزء من موقفه من الرموز ومن الأنساق الرمزية بوجه عام ، على اعتبار أن التصنيف الطوطمى هو مجرد مثال لهذه الأنساق الرمزية . ويسخر ليفى ستروس من تلك النظريات القديمة التى كانت تفسر الطوطمية فى ضوء النظرية التطورية أو التى كانت تعتقد أن الإنسان يختار طوطمه للفوائد الاقتصادية التى تعود عليه منها ، أو لافتقاره لنسق من الأسماء يمكن إطلاقها على تنظيماته الاجتماعيه والقرابية المختلفة . ويقول فى معرض هذه السخرية عبارة أصبحت مشهورة : "إن الأصناف الطبيعية يتم اختيارها ليس لأنها صالحة للأكل ، ولكن لأنها صالحة للتفكير" [٢٥] .

ويعبر الأستاذ سبربر عن هذه الفكرة بطريقة أخرى أبسط فيقول إن اختيار هذه الحيوانات الرمزية يتم "ليس لأنها طعام للجسم وإنما لأنها غذاء للفكر" [٢٦] . فالحيوانات الطوطمية أصبحت طواطم ليس لأنها "مجرد كائنات يخشاها الناس أو يحبونها أويتوقون إليها" ولكن لأن حقيقتها تسمح بقيام أفكار وعلاقات يمكن للعقل المفكر المتأمل أن يتصورها ويبنيها من المعلومات المتاحة ويتعمق فيها" [٢٧] إلى أبعد الحدود . وهذا هو ماكان يقصده من قوله إنها "صالحة للتفكير" . ومايصدق على الحيوانات الطوطمية يصدق على كل الرموز الثقافية الأخرى .

•••

والذى نخلص إليه من هذا العرض السريع هو أن ليفى ستروس كان يرى فى الطوطمية نوعاً من "الحساب المنطقى" البدائى الذى لايختلف عن العمليات العقلية عند الرجل المتحضر ، وأنها مثالٌ واحد لجهود ذلك العقل لتصنيف العالم . وإذا كان يصعب على الفكر الغربى فهم ذلك المنطق فذلك راجع إلى أن منطق (البدائيين) يعبر عن نفسه فى ألفاظ وحدود مادية مشخصة أو ملموسة ، وليس فى

حدود وتصورات مجردة . فالطوطمية فى نظر ليڤى ستروس هى محاولة عقلية لإقرار النظام الاجتماعى والمحافظة عليه عن طريق تصنيف الكون كله ، بما فى ذلك الجماعات الإنسانية ، ورؤية علاقات قوية بين مختلف الفئات . وربما كان هذا هو الذى جعله يقول فى نهاية الكتاب إنه ليس ثمة شئ فريد تماما فى الطوطمية ، وإنما هى أسلوب عام للغاية لتنظيم التجربة الإنسانية .

ومع ذلك فإن هناك من العلماء من يتساءل : إذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يُغرى (البدائيين) بأن يذهبوا إلى كل هذا الحد فى تصنيف الكون ؟ وما الذى يجعلهم يلجأون إلى تنظيم "شفراتهم codes" بهذه الطريقة المبالغ فيها ؟

ربما كانت الإجابة على هذا السؤال تظهر فى كتاب *التفكير الوحشى* الذى يؤلف – على أية حال – وحدة متكاملة مع كتاب *الطوطمية*. ففى هذا الكتاب تظهر التصنيفات الطوطمية على أنها وسيلة لتقسيم الناس وتمييزهم بعضهم عن بعض ، وأنها من هذه الناحية أشبه شئ بفكرة "القومية" فى المجتمع المتحضر الحديث . فكثير من الشعوب أو الأمم يطلق عليها – كما يقول الأستاذ روجر پول Roger Poole – اسم كناية تكون له علاقة بحيوان أو نبات له صلة بهذا الشعب أو تلك الأمة . وهذا نفسه قد يثير فى الذاكرة المثال الشهير الذى يضربه دوركايم فى هذا الصدد عن الجندى الذى يموت فى سبيل – العَلَم – . فكما يميز الرجل المتحضر نفسه عن الآخرين بفكرة القومية والعلَم وما إليهما كذلك يحب الرجل البدائى ، أن يميز نفسه عن غيره . وقد وجد أن من السهل عليه أن يتخذ الاختلافات الواضحة بين الكائنات الأخرى وبخاصة الحيوانات رموزاً يمكن لمختلف الجماعات أن تميز بها نفسها عن الجماعات الأخرى التى تشبهها فى كثير من الملامح والخصائص . فالرموز الطوطمية تستعار إذن من الطبيعة لكى يقيم الناس عن طريقها اختلافات وفوارق فيما بينهم . وإذا كان الأمر كذلك فإن النتيجة التى قد تثير الأسى – على ما يقول روجر پول – لدى الكثيرين هى أن تحليل العقلية التى نصفها بأنها عقلية (بدائية) ليست فى آخر الأمر إلا عقليتنا نحن [٢٨] .

(٤)

خلال الثلاثين سنة ونيف التى مضت منذ ظهور كتاب *الطوطمية فى الوقت الحالى* وكتاب *التفكير الوحشى* (عام ١٩٦٢) وحتى الآن كرّس ليڤى ستروس معظم جهوده لدراسة الأساطير ، وذلك إذا تركنا جانباً اهتمامه بإعادة نشر

مقالاته العديدة وجمعها معاً فى مجلدات متكاملة ظهر منها جزءان تحت عنوان *الأنثربولوچيا البنائية* ثم *الانثربولوچيا البنائية* رقم ٢ ثم ظهر بعد ذلك مجلد ثالث من المقالات تحت عنوان : *النظرة البعيدة Le régard éloigné* حيث يقول فى المقدمة إنه كان خليقا بأن يطلق عليه اسم *الأنثربولوچيا البنائية* رقم ٣ . ولكن مع ذلك فإن اهتمام ليڤى ستروس بدراسة الأساطير يرجع إلى تاريخ أقدم من ذلك . فقد ظهر له عام ١٩٥٥ مقال على جانب كبير من الأهمية بعنوان "الدراسة البنائية للأسطورة" . وقد ظهر المقال أول الأمر باللغة الإنجليزية تحت عنوان "The Structural Study of Myth" فى *المجلة الأمريكية للفولكلور Journal of American Folklore*, LXVIII ثم ظهرت ترجمته الفرنسية مع بعض تعديلات تحت عنوان "بناء الأساطير "Le Structure des mythes" وذلك فى الجزء الأول من *الأنثربولوچيا البنائية*(٢٩) . وقد أتبع هذا المقال بدراسته الشهيرة عن قصة أزديوال Asdiwal عام ١٩٥٩ بعنوان "Le geste d'Asdiwal" . وعلى أساس هاتين الدراستين الهامتين وبعض الدراسات الأخرى فى نفس المجال أقام دراسته الضخمة الشاملة التى تقع فى أربعة مجلدات تحمل كلها عنوان *أسطوريات Mythologiques* ، وفيها تحليل عميق لأساطير العالم الجديد فى ضوء منهجه البنائى ونظرته إلى التفكير الوحشى وتأثره بلغويات دوسوسير على السواء . ومن هنا تعتبر هذه الدراسة الضخمة قمة ما وصل إليه فكر ليڤى ستروس ، وخير تعبير عن موقفه ونظرته البنائية فى مجال الأنثربولوچيا .

وقد بدأ ليڤى ستروس هذه الدراسة بتحليل أسطورة واحدة من أساطير البوروورو Bororo ، ثم أخذ يتقدم فى تحليله ببطء وعمق متنقلا من أسطورة لأخرى ، ومن ثقافة لأخرى من ثقافات الهنود الحمر حتى غطت الدراسة كلها أكثر من ثمانمائة أسطورة من أساطير تلك القبائل فى الأمريكتين .. وقد بدأ الدراسة بكتاب عن *النىّ والمطبوخ Le Cru et le cuit* (١٩٦٤) ، وتلاه بالأسطوريات الثانية بعنوان *من العسل إلى الرماد Du miel aux cendres* (١٩٦٧) ، ثم ظهرت الأسطوريات الثالثة عام ١٩٦٨ بعنوان *أصل آداب المائدة L'origine des maniéres de table* لكى يُنهى السلسلة كلها بالأسطوريات الرابعة التى ظهرت عام ١٩٧١ تحت عنوان *الإنسان العارى L'Homme nu*. وقد استطاع أن يقدم كل هذا العدد الهائل من الأساطير (٨١٣ أسطورة) كنسق واحد تظهر فيه أساطير كل مجتمع على أنها تحولات أو تحويرات transformations

بنائية لأساطير الثقافات المجاورة [٣٠] .

وتحليل كل هذا العدد من الأساطير أعطى ليفى ستروس الفرصة لأن ينتقل بدراسته للمنطق التجريدى الذى يكمن وراء تفكير البدائيين فى المحسوسات إلى مرحلة أبعد بكثير مما حققه فى دراسته للطوطمية . كذلك يظهر تطبيق منهج التحليل البنائى هنا على مستوى أعلى بكثير مما نجده فى كل دراساته السابقة . وقد ساعد على ذلك فكرة التحول أو التحوير . فالأسطورة لغة شأنها فى ذلك شأن كل الظواهر الثقافية . ومن هذه الناحية تقوم الأسطورة بتوصيل رسائل معينة عن طريق العلامات القائمة بين عناصرها *التى* ترتبط *بعضها* ببعض فى شكل *لغة* أو حكاية أو سرد للأحداث .

وتتبُّع الأساطير باعتبارها تحويرات أو تحولات بعضها من بعض معناه أن الحكاية أو القصة يمكن التعبير عنها بطرق شتى عن طريق إعادة ترتيب وتركيب عناصرها . *فكأن تتابع الأحداث مسألة ثانوية بحتة بالنسبة للبناء* . ولذا فإن نفس البناء يمكن اكتشافه فى أساطير تنتمى إلى ثقافات مختلفة . فعناصر الأسطورة الواحدة تتحور إذن ، وبالتالى تتحول الأسطورة ذاتها إلى أسطورة أخرى وهكذا ، بحيث ينتج فى آخر الأمر مجموعة – أو منظومة ، تتميز بثبات بنائها واطراده رغم اختلاف وضع وترتيب عناصرها المكونة (الأحداث ذاتها) . وهذا معناه أن الأسطورة تتمتع بقدر من الاستقلال عن السياق الاجتماعى ، وأنه يجب لذلك دراستها على أنها ظاهرة متفردة بذاتها sui generis [٣١] وعلى هذا الأساس فلا يمكن للباحث أن يصل إلى أى معلومات دقيقة وصحيحة عن المجتمع من دراسة الأساطير ، كما أنه لا يمكن فهم الأسطورة ذاتها إلا بالنسبة إلى المجموعة أو "المنظومة" التى تدخل فى تكوينها وتنتمى إليها .

والوسيلة الوحيدة لفهم الخصائص الأساسية للأسطورة هى *(تفكيكها)* إلى أدق أجزائها وأصغر عناصرها المكونة .. وقد أطلق ليفى ستروس على هذه الأجزاء أو العناصر الصغرى كلمة "مثيمات *Mythémes*" – أى أصغر وحدة أسطورية – أسوةً بكلمة "مورفيم *morphéme*" أو أصغر وحدة صوتية . والنتيجة الأخيرة المنطقية من هذا كله هى أن كل ما يمكن للأساطير أن تكشفه لنا عن المجتمع أقل بكثير جدا مما تكشفه عن أعمال العقل ، وأن للأساطير معنى عقليا أكثر منه اجتماعيا ، لأنها تصدر عن المنطق العقلى الذى هو طبيعى ولا شعورى .

وأنا أدرك أننى قفزت فى الفقرة السابقة قفزات طويلة وبعيدة ، وأن كثيرا من القضايا التى تنطوى عليها هذه الفقرة غامضة وتحتاج إلى توضيح وبخاصة للقارئ غير المتخصص . ولكن كان لابد من أن أعرض فى سطور قليلة ومنذ البداية موقف ليفى ستروس حتى يمكن ضمن هذا الإطار العام - الذى يعانى مؤقتا بعض الغموض والإبهام - أن أعرض للأسلوب الذى اتبعه فى تحليل الأساطير وعرض منهجه البنائى .

• • •

فى بداية كتاب *النى والمطبوخ* أو على الأصح فى "الافتتاحية Overture" كما يسميها يقول ليفى ستروس :

"الهدف من هذا الكتاب هو تبيين كيف أن المقولات الأمبيريقية ، مثل مقولتى النى والمطبوخ ، والطازج والفاسد ، والرطب واليابس وما إليها من المقولات التى لا يمكن تعريفها بدقة إلا عن طريق الملاحظة الإثنوجرافية مع الأخذ فى الاعتبار وجهة نظر ثقافة معينة فى كل حالة ؛ يمكن أن تستخدم كأدوات فكرية تساعد على توضيح الأفكار المجردة وربطها معا فى شكل قضايا . (صفحة ٩) .

"والفرض المبدئى يتطلب لذلك أن نضع أنفسنا منذ البداية على أدنى مستوى محسوس ، أى فى قلب أحد المجتمعات المحلية أو فئة من هذه المجتمعات المحلية التى يقوم بينها قدر كافٍ من التشابه فى الظروف البيئية والتاريخ والثقافة .. وهذا احتياط ضرورى من الناحية المنهجية ، ولكنه لن يؤثر فى غرضى الأساسى أو يفرض أية قيود عليه ، لأننى أعتزم عن طريق الاستعانة بعدد صغير من الأساطير التى أختارها من المجتمعات المحلية الأصلية ، والتى ستكون بمثابة مختبر أو معمل أبحاث أن أجرى تجربة سوف يكون لها مغزى عام وشامل فيما لو نجحت ، لأننى أتوقع أن أبرهن فيها على أن ثمة نوعا من المنطق له مقومات محسوسة ملموسة ، وأن أبين كيف يعمل هذا المنطق وأكشف عن قوانينه . (صفحة ٩) .

"وسوف أتناول كنقطة بداية *أسطورة واحدة فقط* من مجتمع محلى *واحد* ، فأقوم بتحليلها بالإشارة الى السياق الإثنوجرافى ، وأنتقل بعد ذلك إلى الأساطير الأخرى التى توجد فى ذلك المجتمع نفسه . وسوف أقوم

بتوسيع مجال بحثى بالتدريج ، فأنتقل إلى الأساطير الموجودة فى المجتمعات المجاورة بعد أن أكون قد وضعتها هى أيضا فى السياق الاجتماعى الخاص بها ، ومن ذلك أتقدم خطوة بعد خطوة إلى المجتمعات المحلية الأكثر بُعداً ، ولكن بعد أن أكون قد تحققت من وجود الصلات الحقيقية ذات الطبيعة التاريخية أو الجغرافية ، أو على الأقل بعد أن أستدل بقدر كافٍ على وجودها . فالكتاب الحالى سوف يصف فقط المراحل الأولى من رحلةٍ طويلة خلال الأساطير الوطنية فى أمريكا الشمالية ... والخيط الذى يربط هذا كله هو إحدى أساطير هنود البورورو فى وسط البرازيل . ولا يرجع ذلك إلى أن هذه الأسطورة المعينة أقدم من غيرها من الأساطير التى سوف ندرسها هى أيضا فيما بعد ؛ ولا لأننى أعتبرها أكثر بساطة منها أو أشد اكتمالاً ، ولكنه يرجع إلى أن هذه الأسطورة استرعت انتباهى لأسباب عَرَضية إلى حد كبير ....

"والواقع أن أسطورة البورورو هذه التى سوف أشير إليها منذ الآن باسم *الأسطوره المرجعية* *mythe de référence* هى - كما سأبين فيما بعد - مجرد تحوير من أساطير أخرى نشأت إما فى ذلك المجتمع نفسه أو فى مجتمعات أخرى قريبة منه أو بعيدة عنه . وعلى ذلك فقد كان يحق لى أن أختار كنقطة بداية أى أسطورة أخرى تنتمى إلى نفس المجموعة على أنها تمثلها . كذلك لايرجع اختيار هذه "الأسطورة المرجعية" إلى أنها نموذج بقدر مايرجع إلى وضعها الشاذ فى المجموعة كلها ، ولأن مشكلات التفسير التى تثيرها تجعل منها مثالاً طيبا للتأمل والتفكير" [٣٢] .

ولقد آثرت أن أنقل إلى العربية هذا النص الطويل بدلاً من تلخيص الفكرة نظراً لأنه يعطينا صورة واضحة عن المنهج الذى يتبعه ليفى ستروس فى الأجزاء الأربعة كلها التى تؤلف كتاب *الأسطوريات* .. وواضح من هذا النص أنه يخرج عن الأسلوب المألوف فى تحليل الأساطير وتفسيرها ، خاصة وأن ثمة بعض العقبات التى تواجه الاتجاهات الدلالية semiological التقليدية لمعرفة معنى الأسطورة ، والتى لم تفلح هذه الاتجاهاتُ التقليدية فى حلها .

وربما كان أهم هذه العقبات ، من وجهة النظر البنائية ، هى أن الأسطورة الواحدة كثيرا ما يكون لها روايات عديدة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا بحيث يصعب إخضاعها كلها لنوع واحد من التحليل . ويرجع هذا التفاوت أو الاختلاف

إلى أن الأسطورة بطبيعتها نتاج اجتماعى ناجم عن الرواية الشفهية . ويقول فى ذلك فى كتابة *الإنسان العارى* :

"الفكر الأسطورى فى جوهره فكر قابل للتحوير transformatrice . فما أن تولد أسطورة من الأساطير حتى تخضع للتغيير بتغير الرواة ، سواء أكان ذلك يتم داخل الجماعة القبلية أو أثناء انتقالها من شعب لآخر ، فتسقط بعض عناصرها وتحل محلها عناصر أخرى جديدة ، كما قد يتغير ترتيب تتابع الأحداث . وينتقل هذا البناء المحرّف la structure distordue خلال سلسلة من الحالات ، ولكن مع ذلك فإن هذه التغيرات تظل محافظة على الطابع الجماعى . وليس ثمة حدود - من الناحية النظرية على الأقل - لهذه التحويرات ، كما أن الأساطير ذاتها كثيرا ما تموت وتختفى" (٣٣) .

فكل ما يستطيع التحليل التقليدى المعروف والسائد فى الكتابات الأنثربولوچية والسوسيولوچية أن يفعله هو أن يبين "تأثير المعنى" فى أى رواية واحدة فحسب . ولم يحدث أن واجهت هذه الاتجاهات التقليدية مشكلة اختلاف الروايات . كذلك فإن من الصعب الاكتفاء بأى رواية واحدة من تلك الروايات المختلفة التى تروى بها الأسطورة الواحدة بحيث نعتبرها هى الرواية (المعتمدة) - إن صح هذا التعبير . يضاف إلى ذلك الصعوبات الفائقة التى تواجة الأنثربولوچى الغريب والتى تقف حائلا دون التغلغل فى أعماق عقل الرجل البدائى بحيث يكتسب ذلك النوع من الحدس الذى يتمتع به الإنسان (البدائى) فيما يتعلق بأمور ثقافته ولغته ومعنى الأسطورة وما تضفيه من اختلافات فى بعض الألفاظ أو ترتيب الأحداث من معانى مختلفة على الأسطورة التى تبدو واحدة لأول وهله (٣٤) .

ويذكر ليفى ستروس أن عالم الإثنوجرافيا ليبكايند Lipkind الذى عاش بين قبائل الكارايا Caraja فى أمريكا الجنوبية لاحظ هذه المسألة وأبدى دهشته من أن الأسطورة الواحدة تُروى بطرق مختلفة باختلاف الرواة ، وأن ثمة قدراً كبيرا من الاختلافات الهامة فى التفاصيل ، ولكن ذلك لم يكن يثير اهتمام الأهالى أنفسهم ولا الإخبارى الذى كان يرافقه والذى يبدو أنه كان يتقبل كل تلك الروايات ويصدقها جميعا رغم إدراكه للاختلافات والتباينات الشديدة بينها (٣٥) . ومن هنا فإن ليفى ستروس يرى أن المهم هو الكشف عن البناء الذى يظل ثابتا ومستمرا رغم اختلاف وتباين الروايات عن الأسطورة الواحدة . فهذه الاختلافات إذن مسألة معقولة ومقبولة مادامت الأساطير تنتقل عن طريق المشافهة . إلا أن هذه

الاختلافات تعطى " المعنى السطحى" ، فقط . ورغم أهمية هذا المعنى فإن ليڤى ستروس كان يهدف إلى شئ أعمق من هذا بكثير ، وهو شئ يمكن أن نرد إليه المعنى الحقيقى على ما سنرى .

ويعترف ليڤى ستروس بأن "التحليل الميثولوچى لا يهدف ، ولا يمكن أن يهدف ، إلى تبيين كيف يفكر الناس" ، كما يتساءل عما إذا "كان الأهالى الأصليون فى أواسط البرازيل يدركون أنساق العلاقات المتبادلة التى نحاول نحن أن نرد إليها أساطيرهم" . وقد دفعه ذلك إلى القول" إن كل ما أستطيع أن أدّعيه هو أن أبين ليس كيف يفكر الناس فى أساطيرهم وإنما كيف تتخلّق هذه الأساطير وتعمل فى عقول الناس على غير وعى منهم . [٣٦] . ويكرر ليڤى ستروس هذا الحكم ويؤكده أكثر من مرة وبأكثر من طريقة ، ويحرص على أن يذكر "أن ما يهمنى هو أن أوضح ليس ما هو موجود فى الأساطير ، وإنما أن أكشف عن الشفرة التى تضفى معنى مشتركا على الصيغ اللاشعورية التى هى من صنع العقول والمجتمعات والحضارات المختلفة ، ورغم ما قد يكون بينها من تباين شديد . وهذه الشفرة ليست اختراعا أو شيئا مجلوبا من الخارج ، وإنما هى موجودة فى الأسطورة ذاتها" [٣٧] ، وأن عمله بذلك يقتصر على الكشف عنها . فالأساطير ، على العكس من بقية الظواهر الثقافية الأخرى ، لاتخضع لأية ضغوط أو محددات إيكولوچية أو سوسيولوچية ، وإنما هى تخضع - بحكم انتقالها شفاهة فقط - للمحددات العقلية وحدها . بل إن هذه المحددات ذاتها مسألة نسبية وتتمتع بدرجة عالية من المرونة . ومن هنا كان ليڤى ستروس يعتبرها - كما سبق أن ذكرنا - مثالا طيباً للطريقة التلقائية التى يعمل بها العقل الإنسانى [٣٨] .

وهنا قد يحسن أن نعطى مثالاً يوضح لنا كيف كان ليڤى ستروس يعالج الأساطير ويحللها لكى يكشف لنا عن *البناء العميق* الثابت المستمر وراء التحويرات المختلفة التى تتخذها الأسطورة الواحدة .

(٥)

والمثال الذى نضربه هنا هو دراسته التحليلية لبعض أساطير الوينباجو Winnebago . ونحن نختار هذه الدراسة أولاً لقصَرها ، على عكس الحال بالنسبة لكتاب *أسطوريات Mythologiques* ، كما أنها تكشف بدرجة عالية من الوضوح عن خطوات المنهج الذى اتبعه حتى قبل أن يعكف على الجزء الأول من هذا

الكتاب الضخم (فقد ظهر كتاب *النىّ والمطبوخ* عام ١٩٦٤ أى بعد ظهور المقال بأربع سنوات) . وفى هذا المقال يعرض ليڤى ستروس بالتحليل البنائى لأربع أساطير كان قد سبق للأنثروپولوچى الأمريكى پول رادن Paul Radin أن جمعها من بين قبائل الوينباجو وكتب عنها دراسة عام ١٩٤٩ بعنوان "ثقافة الوينباجو كما يصفونها بأنفسهم "The Culture of the Winnebago as Described by Themselves.

ولكن ليڤى ستروس حين تناول هذه الأساطير الأربعة ذاتها ضمن الكتاب الذى قام بتأليفه عدد من الأنثروپولوچيين تكريما لرادن أمكنه أن يبين أن العلاقات بين هذه الأساطير الأربع أقوى بكثير جدا عما تصوره رادن نفسه . والطريف فى الأمر أن ليڤى ستروس اعتمد فى إظهار قوة هذه العلاقات بتحليله للأسطورة الرابعة التى كان رادن يعتقد أنها لاتتلاءم ولاتتماشى مع الأساطير الثلاثة الأخرى .

والأسطورة باختصار تدور حول صبى يتيم يعيش مع جدته ويمارس قنص الحيوان مثل أبيه فى الطرف البعيد من القرية ، وشاهدته ابنة رئيس القرية فوقعت فى غرامه . ورغم أنها كانت تتوق إلى أن يكلمها أو يقرب منها كان الصبى نفسه أصغر من أن يفعل شيئا لإشباع رغباتها ، ولم تجرؤ هى على مفاتحته بحبها ، ولذا وقعت مريضة الحب وماتت . وتراكمت فوق قبرها الأوساخ والقاذورات بحيث لم يعد فى الإمكان أن يتسرب شئ إلى القبر . وقرر رئيس القرية أن يهاجر هو وكل السكان أهل القرية حزنا على وفاتها إلى مكان آخر على بعد عدة أيام من السفر . ولكن الصبى لم يصحبهم خشية ألا يجد فى المكان الجديد مايمكنه صيده ، وسمح له رئيس القرية بالبقاء هو وجدّته حتى يشرفا على قبر ابنته . وقبل أن يتحرك رئيس القرية غطى أرض مسكنه بالروث حتى يحتفظ المسكن بالدفء ... وظل الصبى يطارد الحيوانات على مقربة من حدود القرية دون أن يجرؤ على الابتعاد عنها كثيرا . ولكن حدث ذات يوم أن ابتعد عن القرية وراء الفريسة أكثر مما ينبغى وتأخر فى العودة . وأثناء اختراقه للقرية بعد حلول الظلام لاحظ وجود ضوء فى مسكن الرئيس فدخله وشاهد شبح ابنة رئيس القرية أمامه، وأخبرته عن سبب موتها وقالت له : "إنه بسبب سلوكك كانت وفاتى ، ولكن شبحى لم يغادر ولم يذهب بعد إلى حيث تذهب الأشباح ، ولذا أرجوك أن تساعدنى هذه المرة" . وبيّنت له أن عودتها إلى الحياة رهن بأن يمضى الصبى أربع ليالٍ فى

البيت بشرط أن يظل متيقظاً طول الليل ، وأخبرته بأنه حين يغلب عليه النعاس فسوف يشعر بأجسام غريبة تزحف على بدنه وتسبب له بعض الآلام ولكنها حذرته من أن يحاول إبعاد هذه الأجسام الغريبة عن نفسه أو أن يلمس مواقع الألم مهما زادت .. وأفلح الصبى فى تحمل الألم ونجح فى الامتحان واستعاد الفتاة إلى الحياة ، وحملها إلى منزله حيث تزوج منها . وحين سمع الفلاحون القصة عادوا إلى القرية .. ووضعت الزوجة ولداً ذكراً ، وحين كبر الابن وأمكنه هو أيضا أن يمارس الصيد قال الزوج لزوجته :"مع أننى لم أبلغ الشيخوخة بعد ، فقد عشت على ظهر الأرض مايكفى . ومع ذلك فلن أموت مثلما فعلتِ أنت ، ولكننى سوف أرجع إلى المكان الذى أحب فحسب" . واختارت الزوجة أنَ تذهب معه . وتحولا إلى ذئبين ، وعاشا تحت الأرض . ومن حين لآخر يخرجان إلى سطح الأرض لكى يباركا الهنود أيام صيامهم .

هذه باختصار هى الأسطورة الرابعة من مجموعة الأساطير التى جمعها پول رادنِ ونشرها . وكما هو الحال فى كل الأساطير فإن الأحداث تتتابع واحدة بعد الأخرى دون أن يكون هناك رابطة قوية بينها ودون أن يكون أحد الأحداث سببا أو علة بالضرورة للأحداث التالية له . ومع ذلك فإن ليڤى ستروس يرى أن الأسطورة فيها بناء أقوى بكثير من مجرد تتابع الأحداث ، وأن هناك نسقا متكاملا من الصلات والروابط بين عناصر الأسطورة إلى جانب الترتيب الزمنى أو التاريخى [٤٠] . والتحليل الذى يقدمه ليڤى ستروس يكشف لنا عن ذلك "التقابل الثنائى" الذى أشرنا إليه من قبل والذى يعتمد عليه فى تحليل الأساطير والطوطمية وكثير من المظاهر الثقافية الأخرى . فهناك نوع من التماثل الواضح بين المواقف المختلفة لشخوص وأحداث الأسطورة . ويظهر ذلك فى :

١ – الصبى اليتيم وابنة الرئيس يقفان على طرفى نقيض فى السلم الاجتماعى .
٢ – مع ذلك فإن الوضع أو المرتبة التى يشغلها كل منهما تنقلب تماما إلى العكس . فالفتاة تعجز عن أن تعبر عن مشاعرها وبذلك تصبح "كائنا إنسانيا عاجزاً وتنقصه إحدى الصفات الأساسية للحياة" كما يقول ليڤى ستروس . أما الصبى فهو صياد ماهر إلى أبعد الحدود ويتمتع "بعلاقات ممتازة مع العالم الطبيعى الذى هو عالم الحيوانات" .
٣ – الأسطورة تكشف عن المواجهة بين طرفى نسق واحد ، أحدهما ذكرٌ والآخر أنثى ، وكل منهما يتمتع بخصائص ومميزات غير عادية ، ولكنْ كلٌ منهما

على طريقته الخاصة مما يؤدى إلى نوع من عدم التوازن . *فالفتاة تموت* ميتة *طبيعية* بينما يظل الصبى حيا ووحيدا أى أنه يموت ميتة *اجتماعية*.

٤ – كذلك يتمثل التقابل فى اختلاف الأوضاع ، إذ توجد الفتاة فى *أسفل* (فى القبر) بينما يوجد الفتى فى *أعلى* (فى بيته) .

٥ – يزيد هذا التقابل أو التعارض وضوحا فى وضع الروث وتكويمه فوق القبر وعلى أرض بيت رئيس القرية مما يؤكد أيضا أن الفتى يحتل مكانة أعلى من الفتاة .

٦ – وأخيراً يتمثل هذا التقابل الثنائى فى ظاهرة أخرى تؤدى إلى نوع من إعادة التوازن . ففيما يتعلق بالفتاة يقول ليفى ستروس وهو يلخص موقفها "إن تلك التى عجزت فى الحياة لايمكن أن تموت" وذلك على اعتبار أن شبحها ظل يحوم فوق سطح الأرض بينما الفتى يقابل مصيرا مماثلاً ولكنه عكس مصير الفتاة ، ويصفه ليفى ستروس بقوله : "إن ذلك الذى قهر الموت أثبت أنه عاجز عن أن يعيش" وذلك على اعتبار أنه أحيا الفتاة ثم طلب إليها بعد ذلك أن يتركا هذه الدنيا ويتحولا إلى ذئبين يعيشان تحت الأرض .

ولكن هذا التحليل الذى يقدمه ليفى ستروس يمثل جانبا واحداً من طريقته فى النظر إلى الأساطير . فهو تحليل لأسطورة *واحدة من الداخل* . وقد سبق أن ذكرنا أنه يرى أن الاكتفاء بمثل هذا التحليل خطأ وقع فيه العلماء السابقون ، وأن الأمر يتطلب دراسة الأسطورة ضمن مجموعة من الأساطير التى تؤلف كلها نسقا واحدا متكاملا ؛ أى دراسة "*البناء الخارجى*" للأسطورة .

وقد كان العلماء السابقون يهتمون أشد الاهتمام بالبحث عن أوجه الشبه بين الأساطير المختلفة ويفسرون ذلك التشابه إما بأن هذه الأساطير نشأت من أصل واحد مشترك ، وإما بأنها ترجع إلى مراحل متماثلة من التطور الثقافى وإما بعمومية مقولات العقل البشرى [٤١] . وعلى الرغم من أن ليفى ستروس لم يغفل عنصر التشابه بين الأساطير أو يسقطه من الاعتبار إلا أنه كان يرى أن علاقة التشابه هى نوع واحد من العلاقات التى يمكن على أساسها تصنيف الأساطير، وأن هناك أنواعاً أخرى من العلاقات تصلح أساساً لذلك مثل الاختلافات التى تظهر باطراد وبطريقة منهجية بين تلك الأساطير [٤٢] . وقد نستطيع أن نفهم مايقصده ليفى ستروس بذلك إذا نحن نظرنا إلى أسطورة أخرى من تلك الأساطير الأربعة التى جمعها رادِن وقام ليفى ستروس بتحليلها .

وتدور هذه الأسطورة الثانية حول أحد أبناء الرؤساء الذى كان يتخذ من الصوم وسيلة للتقرب إلى الكائنات والقوى الإعجازية المقدسة كى يكسب رضاها ومؤازرتها له فى حياته ، وقد ارتبط بروابط صداقة قوية مع أحد شباب قبيلته وتعاهد الاثنان على الوفاق والوفاء أحدهما للآخر طيلة حياتهما .. وحدث أن أخذ الأب الزعيم فى الإعداد للحرب والإغارة على إحدى القبائل المعادية ، وأخبر ابنه بذلك ، وطلب إليه أن يحتفظ بالسر لنفسه . ولكن الابن أفشى السر إلى صديقه ، وانضم الاثنان إلى صفوف المحاربين وقاما معاً بكثير من أعمال البطولة والجرأة فى الحرب مما جعل القرية كلها تتحدث بأخبارهما وتحتفل بعودتهما من الحرب احتفالاً رائعا . وعاش الاثنان عيشة الأبطال فى مساكن خاصة بعيدا عن القرية بعد أن تزوجا . ولكنهما كانا زوران القرية من حين لآخر وبخاصة فى أثناء الاحتفالات والمهرجانات فيلقيان من القرية وأهلها نفس الترحاب . ثم حدث أن خرج الاثنان معاً - كعادتهما دائما - فى إحدى المهمات فوقعا فى كمين وقتلهما الأعداء بعد أن دافعا عن نفسيهما دفاعا مجيدا ؛ وتحولا إلى شبحين . وعاد الشبحان إلى القرية ولكن الناس لاتبصر الأشباح ولاتراها . وأحس الشبحان بخيبة الأمل والحسرة لأن القرية لم تقابلهما بالترحاب الذى تعودوا عليه أثناء الحياة . ولم يجد الشبحان أمامهما سوى أن يحضرا احتفال "يقظة الأيام الأربعة" حتى تتم رحلتهما إلى أرض الأشباح . ومع ذلك فإن الاحتفال ومظاهر الحزن والأسى فى القرية هزت مشاعر ابن الرئيس الذى صمم على أن يجد طريقة يستطيع بها العودة وصديقه إلى الحياة . وكان يتعين عليهما لكى يتم ذلك أن يمر الاثنان بعدد من الاختبارات القاسية فى مجتمع الأموات . فحين وصلا إلى أول قرية من قرى الأشباح . استقبلتهما الأشباح الأخرى بكثير من الحفاوة والرقص والموسيقى ، ولكنه أوعز إلى صاحبه بعدم المشاركة فى الرقص أو الاحتفالات مهما كان الإغراء والإغواء . ولم يكن ذلك بالأمر السهل الهين خاصة وأن الرقص والموسيقى وكل أنواع الغواية كانت تتزايد طيلة أربع ليال متتالية .. وأفلح الصديقان فى أن يجتازا الاختبار بنجاح . ولكنهما انتقلا إلى ثلاث قرى أخرى من قرى الأشباح حيث كانت تمارس أنواع وألوان أخرى أشد إغراء من الرقص والموسيقى لأربع ليال فى كل قرية . وحين نجح الاثنان فى كل هذه الاختبارات جاءهما الإذن بالرحيل إلى مساكن "صانع الأرض" الذى ترك لهما حرية اختيار المكان الذى يريدان الحياة فيه . واختارا قريتهما الأصلية ، وبذلك تمت ولادة كل

منهما من جديد في عائلتين . والتقى الطفلان الصغيران وتعرف كل منهما على صاحبه وارتبطا معاً طيلة حياتهما . وحين وصلا إلى سن الشباب كررا طريقة الحياة نفسها التى عاشاها من قبل .

ولكن ماعلاقة هذه الأسطورة التى تبدو مختلفة تماما بالأسطورة السابقة ؟

هناك بعض أوجه شبه بين الأسطورتين تتمثل فى الموت ثم البعث . ولكن التشابه يقف عند هذا الحد ، نظراً لاختلاف شخوص وأحداث وظروف كل من الأسطورتين . ولكن ليفى ستروس استطاع عن طريق التحليل أن يجد نوعا من الاتساق والتنسيق والمنهجية فى هذه الاختلافات ، وأن يكشف بين الأسطورتين نوعاً من التقابل المنهجى المطرد .

١ - فى الأسطورة الأولى يستسلم البطلان (الفتى والفتاة) تماما لمصيرهما المحتوم (الموت) بينما فى الأسطورة الثانية يحيا البطلان (الصديقان) حياة المجد والشرف والبطولة ويعملان على الاستزادة منها طيلة الوقت .

٢ - فى الأسطورة الأولى نوع من بطء الحركة والتردد (خوف الفتاة من الإفصاح عن حبها وعدم نضج الفتى) بينما فى الأسطورة الثانية سرعة الحركة والجرأة والإقدام والبطولة وإبداء مظاهر الرجولة الحقيقية منذ الصغر بحيث انخرط الصديقان فى سلك الأبطال المحاربين .

٣ - فى الأسطورة الأولى يعود البطلان إلى حياة القرية الهادئة حيث ينجبان طفلهما الذى حل محل أبيه فى قنص الحيوان : أما فى الأسطورة الثانية فإن البطلين يفضلان العيش بعيدا عن القرية حيث الحركة الدائمة والإغارات والحروب .

٤ - كلتا الأسطورتين تقومان على تكرار دورة الحياة . ولكن بينما فى الأولى يترك الأب (الذى كان ابناً يتيما) طفلا يتيما (بعد أن استقر رأى الوالدين على أن يعيشا فى العالم السفلى فى شكل ذئبين) فإن الوالدين فى الأسطورة الثانية يبدآن نفس الحياة الهانئة الصاخبة السعيدة من جديد .

وعلى العموم فإن الصفة الغالبة على الأسطورة الأولى هى البطء والحزن والاستسلام والهزيمة . بينما الصفة الغالبة على الأسطورة الثانية هى السرعة والتحدى والانتصار [٤٣] .

ويحاول سبربر Dan Sperber أن يلخص التناسق والأوضاع المتعاكسة فى الأسطورتين فى شكل جدول على النحو التالى . وقد رأيت أن أنقله بأكمله لما فيه

من طرافة ، ولأنه يبين بشكل مبسط أسلوب التحليل البنائي في الأساطير كما يمارسه الأنثروبولوچيون البنائيون من أتباع ليڤي ستروس [٤٤] .

- ابنة الرئيس تقع في الحب .
- الفتاة تصمت حيث كان يجب الكلام .
- كانت النتيجة أن الفتاة تعاني وتموت.
- القرويون يتركون البطلة ويهاجرون إلى مكان بعيد.
- في إحدى المرات يخرج البطل أبعد من المعتاد لمطاردة الفريسة .
- البطل يعود مساءً عبر القرية فيرى شبح البطلة .
- لكي يرد البطلة إلى الحياة كان يتعين على البطل أن يعيش في العالم السفلي أربع ليالٍ يخضع خلالها لاختبار قاسٍ في نفس المكان .
- يتألف الاختبار من مقاومة الإغراء لإبعاد الأشباح العدوانية التي كان لها مظهر وسلوك غير آدميين .
- ينجح البطل ، ويتم بعث البطلة للحياة ويعود سكان القرية .
- ينجب البطلان طفلا .
- على الرغم من ذلك البعث فإن البطلين يعجزان عن الاستمرار في الحياة ويتحولان إلى روحين على شكل ذئبين ويصبحان هما حماة الصائمين .

- ابن الرئيس يعقد صداقة .
- الفتى يتكلم حيث كان يجب عليه الصمت .
- كانت النتيجة أن الصديقين يحاربان ويقتلان.
- البطلان يتركان القرويين ويذهبان للحياة في مكان بعيد .
- في إحدى المرات يخرج البطلان أبعد من المعتاد ويقعان في كمين ويُقتلان .
- البطلان يعودان إلى القرية ولكن سكان القرية لايرونهما .
- لكي يرد البطلان نفسيهما إلى الحياة كان يتعين عليهما أن يمرا باختبارٍ لأربع ليالٍ ولكن في أماكن مختلفة .
- يتكون الاختبار من مقاومة إغراء الاشتراك مع الأشباح اللطيفة التي كان لها مظهر وسلوك آدميين إلى حد كبير .
- ينجح البطلان ويعودان هما نفسهما إلى القرية .
- البطلان يولدان من جديد في شكل طفلين .
- بفضل ذلك البعث يتمكن البطلان من أن يستأنفا حياتهما من جديد (وتتميز ولادة ابن الرئيس من جديد بصيام سكان القرية) .

وليست هذه التقابلات هي الوحيدة التي يمكن رصدها ، وإنما هناك تقابلات أخرى توصل ليڤي ستروس إلى إظهارها عن طريق مَدّ تحليله إلى الأسطورتين الأخريين اللتين تدخلان ضمن مجموعة الأساطير الأربعة التي يعالجها ليڤي ستروس في هذه الدراسة عن أساطير الوينباجو . وقد استطاع أن يبين في آخر الأمر من هذا التحليل فكرة الوينباجو عن الحياة الإنسانية والموت والخلود بطريقة لم تكن لتتيسر له لو أنه قنع بدراسة اسطورة واحدة منها ، أو أنه لم يقم بتتبع أنواع "التقابل الثنائي" بين مختلف أحداثها والتحويرات والتعديلات التي خضعت لها تلك الأحداث في الأساطير الأربعة ، وهو الأسلوب ، أو على الأصح المنهج الذي اتبعه فيما بعد في كتابه *أسطوريات* .

(٦)

ولقد سبق أن ذكرنا أن ليڤى ستروس يرى أن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى المعنى الحقيقى أو "المعنى العميق" للأساطير هى تفكيك الأسطورة إلى أصغر عناصرها المكونة ، أو إلى مايسمى بالميثيمات Mythémes . وربما لم تكن هذه الوسيلة واضحة فى المثال الذى ضربناه ، أعنى دراسته للأساطير الأربعة المستمدة من هنود الويناجو ، ولذا فقد يكون من المستحسن أن نشير إلى مثال آخر شهير ، ضمّنه ليڤى ستروس دراسته العامه المبكّرة عن "التحليل البنائى للأساطير" ويحب معظم الذين يكتبون عن ليڤى ستروس أن يستشهدوا به لبساطته ووضوحه ولأنه يعطى فكرة طيبة عن خطوات التحليل البنائى كما يراها وكما طبقها فيما بعد فى الأسطوريات . ومع ذلك فإنه نظراً لقدم الدراسة (عام ١٩٥٨) فيجب ألا نتوقع أن تكون كل خطوات منهج التحليل البنائى وفكرته عن التغيرات والتحويرات ظاهرة بنفس الدرجة التى نجدها فى كتاب أسطوريات .

والطريف هنا هو أن هذا المثال مستمد من الميثولوچيا اليونانية وليس من أساطير الجماعات البدائية . وهذا فى حد ذاته دليل على مدى صلاحية المنهج لدراسة الأساطير فى عمومها بصرف النظر عن نوع الثقافة أو المجتمع الذى تسود فيه .. يضاف إلى ذلك أن ليڤى ستروس يعترف صراحة أنه يهدف من هذه الدراسة أن تكون مجرد مثال لتطبيق طريقة أو أسلوب التحليل دون النظر إلى أية نتائج يمكن الوصول إليها ، وأن شأنه فى ذلك – على حد تعبيره – شأن البائع المتجول الذى يهتم بتبيين الطريقة التى تعمل بها إحدى اللعبات الميكانيكية التى يبيعها دون أن يهتم بالوصول إلى أى نتيجة محددة ملموسة [٤٥] .

ولكى يحقق ليڤى ستروس ذلك فإنه ينظر إلى الأسطورة كما لو كانت "نوتة" موسيقية مكتوبة للأوركسترا ، ولكنها مع ذلك تعتبر كما لو كانت مكتوبة فى شكل متتابعات على خط واحد ، وأن عليه بذلك أن يعيد ترتيبها بطريقة صحيحة . فلو افترضنا مثلا أن التتابع كان على النحو التالى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ... الخ ، فإن أول مايجب عمله لإعادة ترتيب هذه (الأنغام) هو تجميع كل الأنغام التى تحمل رقم ١ معاً ، وتجميع كل مايحمل رقم ٢ معاً ، وهكذا ، بحيث يظهر لنا الترتيب على النحو التالى مثلا :

١ ٢ – ٤ – – ٧ ٨
– ٢ ٣ ٤ – ٦ – ٨
١ – – ٤ ٥ – ٧ ٨
١ ٢ – – ٥ – ٧ –

وهذه العملية هى ذاتها التى يطبقها على الأساطير .

والأسطورة التى اختارها هنا هى أسطورة أوديبوس الذى قتل أباه دون أن يدرى ، وقتل الوحش (أبا الهول) لكى يخلص المدينة من شروره وتزوج أمه ... فكل رقم سوف يشيرإلى وحدة من تلك الوحـدات الأسطـوريـة الصغـرى أو *الميثيمات* . وعن طريق ترتيب هذه *الميثميات* فى شكل مصفوفات سوف يمكن بسهولة أن نرى الأسطورة ذاتها فى بنائها (الخطى) وبنائها (غير الخطىّ) فى وقت واحد . والعادة أن كل وحدة يرتبط فيها حادث أوفعل معين بشخص أوفاعل معين . وعلى ذلك فإن كل وحدة سوف تمثل علاقة محدودة ، وبالتالى فإن كل عمود سوف يمثل (حزمة) من العلاقات . ومهمة الباحث هى أن يكتشف كيف تتفاعل هذه العلاقات بعضها ضد بعض داخل الأسطورة . وهكذا نجد أن كل عمود يمثل مجموعة من العلاقات ذات المعنى ، بينما كل صف أفقى يمثل تتابعاً معينا فى أحداث الأسطورة ، أوربما يكشف عن معنى كلمة معينة بالذات ، تساعد على فهم بعض جوانب الأسطورة . وعلى هذا الأساس يعيد ليڤى ستروس ترتيب عناصر الأسطورة على النحو التالى :

كادموس يبحث عن أختـــه يوروبا التى اختطفها زيوس			
		كادموس يقتـل التنيـــن	
	الأسبرطيون يقتلون بعضهم بعضاً		
			لبداكوس (والد لايوس) = أعرج
	أوديبوس يقتل أبـاه لايـوس		
		أوديبوس يقتل الوحش	
			أوديبوس = ذو القدم المتورمة
أوديبوس يتزوج من أمه (يوكاسته)			
	أتيوكليس يقتل أخاه بولينيكس		
أنتيجونه تدفن أخاها بولينيكس رغم الحظر			

وواضح من هذا الترتيب أن ليڤى ستروس كان يبحث عن الأنماط داخل الأعمدة ، وذلك على عكس الحال فيما يتعلق بالسرد الأفقى التتابعى للأحداث وقراءتها سطراً بعد سطر . فالعمود الأول يكشف لنا عن روابط الدم القائمة بين أشخاص الأسطورة : (إخوة وأخوات ، أو أم وابنها .. الخ) وأهمية هذه الروابط والعلاقات ، والإعلاء من شأنها ، بينما نجد أن العمود الثانى يهدر من قيمة هذه الروابط ذاتها (قتل الأقارب بعضهم لبعض) . أما العمود الثالث فهو يكشف عن التنكر لأصول الإنسان الطبيعية وأنه ابن الطبيعة وابن الأرض ، وذلك لكى يتيح فرصة الحياة لبنى جنسه هو (سكان ثيبة) ؛ وأخيرا يؤكد العمود الرابع على العكس من العمود الثالث - العلاقة القوية بين الإنسان والطبيعة أو الأرض إذ تشير كل الأسماء فى ذلك العمود إلى وجود صعوبات فى المشى أو فى الوقوف وقفة معتدلة ... وثمة مايشير فى كثير من أساطير الهنود الحمر إلى أن الأشخاص الذين يولدون من الطبيعة أو الأرض يلقون صعوبة بالغة فى السير أو المشى المعتدل . ويعطينا ليڤى ستروس كثيرا من الأمثلة من أساطير تلك القبائل لتعزيز رأيه ، وبالتالى معانى أسماء بعض أبطال الأسطورة اليونانية وأنها تكشف عن خصائص عامة ومشتركة فى كل الأساطير .

وواضح من هذا الترتيب أيضا أن العلاقة بين العمودين ٤ . ٣ تماثل العلاقة بين العمودين ١ . ٢ وهى علاقة تعارض أو تضاد ، والأسطورة تحاول - على الأقل على المستوى الفكرى البحت - أن تحل التضارب بين النظرية القائلة بولادة الإنسان من الأرض وواقع ولادته من رجل وامرأة من بنى الإنسان .

ويتركز ذلك الحل فى محاولة المساواة بين علاقات الدم وعلاقات الأرض ، وبذلك يتعادل نوعا العلاقة رغم مايبدو من تناقضهما . والتناقض يظهر بين إذا ماكان الإنسان قد ولد من (واحد) هو الأرض ، أو من اثنين (رجل وامرأة) ، وبين إذا ماكان قد ولد من شئ مغاير (الأرض) أو من شئ مماثل له فى الطبيعة (أبوين آدميين) . وبقول آخر فإن ليڤى ستروس يرى أنه "على الرغم من أن التجربة تناقض النظرية فإن الحياة الاجتماعية تؤيد وتؤكد صحة الكوزمولوچيا بفضل تشابه بنائهما ، وبذلك فإن النظرة الكونية تكون صحيحة" (٤٦) .

وليس ثمة مايدعو إلى الذهاب فى التفاصيل إلى أبعد من هذا ، لأن المهم هو إبراز المنهج الذى اتبعه فى التحليل ، خاصةً وأن هذا التحليل يكشف عن نظرة فلسفية محددة إلى الإنسان وعلاقته بالكون . ولم يكن ليڤى ستروس يعطى أهمية

كبيرة لما يسميه "النمط الخطى" للأسطورة ، أى الأسطورة من حيث هى مجرد حكاية أو قصة تُحكى ويسمعها الناس ، وإنما كان يهتم فى المحل الأول بالكشف عن "الاستقطاب العميق" الذى يجد له تعبيرا فى "بناء التقابلات" فى الأسطورة (٤٧) .

ويتضح من تحليله لأسطورة أوديپوس مدى حرصه على تطبيق "النموذج اللغوى" وهذا ظاهر فى اهتمامه بالكشف عن "التقابل الثنائى" من ناحية ، وفى عمومية التحليل من الناحية الأخرى .. ولقد رأينا صور أو أنواع التقابل الثنائى مثلاً بين العمودين ٢.١ وبين العمودين ٤.٣ ، وكذلك التقابل الذى تحاول الأسطورة أن تجد له حلاً والذى يتعلق بأصل الإنسان وولادته . ولكن هذا التحليل له فى الوقت ذاته صفة العمومية لأنه أفلح فى أن يضع الحدود التى تتضمنها هذه التقابلات فى لغة مفهومة من الجميع . فعلاقات الدم معروفة فى كل أنحاء العالم . وفكرة الإنسان ابن الطبيعة أو ابن الأرض هى أيضا فكرة عامة وشائعة فى كل الثقافات . ومن هنا أمكن تطبيق هذا التحليل على أساطير تنتمى إلى ثقافات متفاوته ومتباعدة تفاوت الثقافة اليونانية وثقافة البويبلو Pueblo وتباعدهما . وليس غريبا إذن أن نجد بعض أشخاص أسطورة أوديپوس عاجزين عن المشى المستقيم السوى .

وواضح مرة أخرى من هذا كله أن المنهج الذى يتبعه ليفى ستروس فى التحليل هو المنهج "الافتراضى الاستنباطى" وليس المنهج الاستقرائى . فالاكتفاء بالملاحظات البسيطة لاتستطيع - مهما تعددت وكثرت - أن تكشف عن نوع البناء الذى عثر عليه ليفى ستروس فى أسطورة أوديپوس ؛ وإنما يمكن فقط العثور على مثل هذا البناء فى ضوء فرض افترضه الباحث مقدما . فوجود مثل هذا الفرض هو الذى يساعد الباحث على أن يرى فى دفن أنتيجونه لأخيها إعلاءً لشأن علاقات الدم ، بينما يؤخذ قتل الإسبرطيين بعضهم بعضا على أنه إهدار لهذه الروابط . وينبع هذا الفرض من موقف محدد يملى على صاحبه أن يبحث عن "التقابلات الثنائية" فى كل أسطورة يعمد إلى تحليلها ...إنه "يأمر الباحث بضرورة إيجاد هذا التقابل . فينفذ الأمر" (٤٨) .

الهوامـش والمراجـع

١ – انظر فى ذلك : C. R. Badcock, *Lévi-Strauss: Structuralism and Sociological Theory*, Hutchinson, London, 1975, p. 63.

٢ – Lévi-Strauss, *La Pensée Sauvage*, Plon, Paris, 1962, p. 3.

٣ – Lévi-Strauss; *Le totemisme aujourd'hui*, Presses Universitaires de France, Paris, 1962, p. 44.

٤ – Jonathan Culler, *Structuralist Poetics, Structuralism, Linguistics and the Study of Literature*, R. K. P., London, 1975, p. 41.

٥ – Lévi-Strauss, *La pensée sauvage*, op. cit., pp. 100-101; *Miriam Glucksmann, Structuralist Analysis in Contemporary Social Thought: A Comparison of the Theories of Claude Lévi-Strauss and Louis Althusser*, R. K. P., London 1979, p. 6.

٦ Loc. cit.

٧ – *La pensée Sauvage*, p. 126.

٨ – انظر فى ذلك كتابنا عن *"تايلور"* – مجموعة نوابغ الفكر الغربى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ ولقد كان تايلور يفرق بين العلم وما يسميه بالعلم الزائف قاصدا بذلك السحر .

٩ – *La pensée sauvage*, p. 21.

١٠– Ibid., pp. 60-61.

١١– Ibid., p. 52

١٢– Dan Sperber, "Lévi-Strauss" in John Sturrock (ed); *Structuralism and Since* , Oxford U. P., London 1949, p. 27.

١٣– *La pensée sauvage*, p. 12.

١٤– Ibid., pp. 49-50.

١٥– Ibid., p. 32; Simon Clarke, *The Foundations of Structuralism*, Harvester Press, Susser, 1981, p. 193.

١٦– Ibid., pp. 191-192.

١٧– Ibid, p. 189.

١٨– راجع فى ذلك كتابنا *"البناء الاجتماعى – مدخل لدراسة المجتمع"* – الجزء الثانى "الأنساق" القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .

١٩– سوف يكون اعتمادنا هنا وكل إشاراتنا إلى الطبعة الفرنسية التى سبق الإشارة إليها .

٢٠– Dan Sperber, op. cit., p. 31.

٢١– *Le Totemisme.*, p. 14.
ويمكن للقارئ أن يرجع هذا كله لمقدمة الكتاب وبخاصة الفقرة رقم IV باكملها .

٢٢– *Le Totemisme*, p. 111; Dan Sperber, op. cit., p. 31.

٢٣– David Pace, *Claude Lévi-Strauss: The Bearer of Ashes*, R. K. P., London 1983, p. 175.

٢٤- Dan Sperber, op. cit., p. 32.

٢٥- *Le Totemisme*, p. 128.

٢٦- Dan Sperber, op. cit., p. 32.

٢٧- *La pensée sauvage*, p. 5.

٢٨- Roger G. Poole; "Introduction" to Lévi-Strauss, *Totemism*, (English Translation by Rodney Needham) pp. 62-63.

٢٩- Lévi-Strauss; *Anthropologie structurale*, Plon, Paris 1958, pp. 226-255.

٣٠- David Pace, op. cit., p. 162.

٣١- Miriam Glucksmann, op. cit., p. 78.

٣٢- Lévi-Strauss; *Le cru et le cuit*, Plon, Paris 1964, pp. 9-10.

٣٣- Lévi-Strauss; *L'Homme nu*, Plon, Paris 1971, pp. 603-604.

٣٤- Philip Pettit, *The Concept of Structuralism: A Critical Analysis*, California U. P., Berkeley and Los Angelos, 1977, pp. 71-72.

٣٥- *Le cru et le cuit*, p. 20.

٣٦ Loc. cit.

٣٧- Loc. cit.

٣٨- Dan sperber, op. cit., p. 34.

٣٩- الإشارة هنا إلى مقال "Four Winnebago Myths, A Structural Sketch" وقد ظهر المقال أولاً فى كتاب: Stanley Diamond (ed), *Culture and History, Essays in Honour of Paul Radin*, Columbia U. P., N. Y. 1960, pp. 351-362.
ثم ظهر المقال فيها بعد فى ترجمة فرنسية فى الجزء الثانى من كتاب ليفى ستروس : *Anthropologie structurale* II, Plon, Paris 1973, pp. 235-249.
ويعتبر هذا المقال من أفضل الأمثلة على التحليل البنائى عند ليفى ستروس أنظر أيضا : Dan Sperber, op. cit., p. 34-40 .

٤٠- Sperber, op. cit., p. 35.

٤١- انظر فى ذلك كتابنا عن "*البناء الاجتماعى*" الجزء الأول : *المفهومات* .

٤٢- Sperber, op. cit., p. 37.

٤٣- Lévi-Strauss, *Anthoropologie structurale* II, op. ci t.

٤٤- Dan Sperber, op. cit., p. 39.

٤٥- Lévi-Strauss, *Anthoropologie structurale* I, pp. 230-234.

٤٦- Ibid., pp. 236-242; Pettit, op. cit., pp. 83-84.
ولمعرفة المزيد عن أسطورة كادموس وقتل التنين وعلاقة ذلك بظهور الإنسان من الأرض يمكن الرجوع إلى مقالنا عن "التحليل النفسى للأساطير" - *مجلة علم النفس*- دار المعارف ، القاهرة، ١٩٤٦ .

٤٧- Pettit, op. cit., p. 84.

٤٨- Ibid., p. 86.

Abstract

STRUCTURALISM AND SYMBOLIC THOUGHT:
CLASSIFICATION - TOTEMISM - MYTHOLOGY

Ahmed Abou-Zeid

Of all the French Structuralists, the Anthropologist Claude Lévi-Strauss stands on his own for his consistency of method and faithfulness to the structural linguistics of Ferdinand de Saussure and his insights into language, and more particularly to his concept of the linguistic sign as the basic unit of any language. Saussure looked at Language as a form and not a substance. Consequently, Lévi-Strauss studied social phenomena as if they were linguistic systems and this led him to speak about systems of kinship, of totems and of myths; the three main subjects in which he took real and deep interest. He endeavoured to prove that under the vast diversity of empirical facts one can detect a universal mental structure and that the relations between the different units in any of these systems show that the function of what might at first sight appears to be the same unit varies with the relations it enters into with other units. He therefore had to examine this "hypothesis" not only with regards to the more "concrete" systems of kinship (which he indeed did in his famous book on *Les structures élémentaires de la parenté*) but also with regards to the more abstract or rather symbolic systems of totems and myths where a symbol acquires its significance from the different relations into which it enters with other symbols.

Lévi-Strauss's study of Totemism in his short book about *"Totemisme aujourd'hui"* is particularly important for it laid the basis of his "theory" about the classificatory activities of the Human Mind. A profound and serious application of this "theory" can be found in his important article on the analysis of myths, and at a later stage his *chef-d'oeuvre "Mythologiques"* with its four volumes.

أسلوب المناقشة الجماعية
التعريف والمشكلات المنهجية والتطبيقية

نجوى خليل*

إن أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية يختلف عن أساليب التفاعلات الجماعية الأخرى مثل دلفى والمجموعات الصغيرة والإثارة الفكرية ، التى تبحث أساساً عن الاتفاقات الجماعية فى الرأى لدى الخبراء وذوى المعرفة والخيال الإبداعى بهدف الوصول إلى حلول محددة للمشكلات . أما أسلوب المناقشة الجماعية ، فيستخدم بغرض تحديد التصورات والإدراكات والمشاعر والاتجاهات والآراء لدى الناس . ويعنى بإبراز أية اختلافات أو تمايزات أو اتفاقات ، وأية حلول مقترحة للمشكلات بالإضافة إلى إبراز التجانس الداخلى للتعليقات وتبدل الآراء الفردية أثناء المناقشة . وهو أسلوب من الأساليب الكيفية التى تعتمد على التفاعل والتلقائية فى إبداء الرأى وفى التأثر بالآخرين . وتوجد بوادر راهنة للجوء إلى التكميم عند استخدامه . إلا أنه يستخدم أساساً كدراسة استطلاعية لبحث كمى يمكن الباحث الأكاديمى من صياغة التعميمات .

مقدمـــــة

بالرغم من أن الباحثين فى العلوم الاجتماعية المهتمين بمناهج البحث قد تعرضوا بالدراسة لغالبية هذه المناهج والأساليب . إلا أنه يمكن القول أن المناقشات الجماعية باعتبارها أسلوبا منهجيا متميزا، لم ينل مايستحقه من عناية واهتمام - ويشهد على ذلك ندرة الدراسات العربية التى تعرضت لهذا الأسلوب .

ويتمثل الهدف من دراستنا فى تعريف أسلوب المناقشة الجماعية ، والتأريخ لبدايات استخدامه ، وتحديد الميادين التى طبق فيها ، وإبراز القضايا والمشكلات المنهجية والتطبيقية التى تظهر عند استخدامه ، بالإضافة إلى رسم الخطوات المنهجية التى يلزم وضعها فى الحسبان عند تطبيقه .

* خبير أول ، قسم بحوث وقياسات الرأى العام ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الثلاثون ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٣ .

تعريف أسلوب المناقشة الجماعية والمصطلحات الشائعة الاستخدام فى إطاره

هناك مصطلحات علمية يستخدمها العلماء لوصف أسلوب المناقشة الجماعية . منها : الاستبارات أو المقابلات البؤرية Focussed interviews ، والمجموعات البؤرية Focus groups ، والمناقشة الجماعية البؤرية The focus group discus- sion . بالإضافة إلى المناقشة الجماعية The group discussion .

وعلى الرغم من كثرة وشيوع استخدام مصطلح المقابلة البؤرية والمناقشة البؤرية والمناقشة الجماعية البؤرية على المستوى الأكاديمى ، إلا أنه يندر استخدام هذه المصطلحات عند تطبيق هذا الأسلوب وتوجيه الدعوة للمشاركين فى المناقشة ممن يطلق عليهم الجماعات المستهدفة The target group ، حيث يفضل عندئذ استخدام مصطلح المناقشة الجماعية .

ذلك يرجع إلى أن مصطلح المقابلة البؤرية أو المجموعة البؤرية يمكن أن يحد من التعليقات التلقائية للمشاركين . بينما دعوة المشاركين للاشتراك فى مناقشة جماعية ، ولمشاركة الأفكار مع آخرين ، من شأنه أن يعكس الطبيعة غير الرسمية للمناقشة [1] .

وقد طرح ريتشارد كروجر Richard Krueger تعريفا للمجموعة البؤرية باعتبارها تصميما للمناقشة مخططا بعناية للحصول على إدراكات عن ميادين اهتمام محددة ، وذلك فى مناخ يتسم بالهدوء وعدم التوتر، وتنفذ بواسطة باحث قائم بالمقابلة ، ماهر وقادر على إدارة النقاش مع مجموعة مكونة من أشخاص يتراوح عددهم بين سبعة وعشرة أشخاص ، على أن يتيح مناخ المناقشة للمشاركين فيها مشاركة بعضهم البعض فى الأفكار والإدراكات بشكل مريح وممتع . وأوضح كروجر أن المجموعة البؤرية هى :

نوع خاص من المجموعات من حيث الغرض منها ، والحجم ، والتركيب ، والإجراءات . فهى إجراء بحثى لجمع المعلومات ، يختلف الغرض من الاعتماد عليها عن غيرها من التفاعلات الجماعية مثل عمليات دلفى Delphi Processes والمجموعات الصغيرة جدا Nominal Groups وأسلوب الإثارة الفكرية Brainstorming ، حيث إن الغرض من الاعتماد على هذه التفاعلات الجماعية يتمثل أساساً فى الوصول إلى الاتفاقات الجماعية فى الرأى ، التى تمكن الباحث من الخروج بتوصيات أو اتخاذ القرارات بين البدائل المطروحة ، والوصول إلى حلول محددة للمشكلات .

كما أن هذه الأساليب الثلاثة ، دلفى والمجموعات الصغيرة والإثارة الفكرية ، تتكون مجموعاتها أساساً من الخبراء وذوى المعرفة والخيال الإبداعى للحلول الضمنية التى يمكن الإهتداء إليها ، على الرغم من أن هذه الأساليب تتماثل مع أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية من حيث ضرورة توافر مناخ الحرية والتلقائية فى المناقشات . أما المجموعة البؤرية ، فإنها تستخدم لغرض محدد هو تحديد التصورات والإدراكات والمشاعر وجوانب التفكير لدى المستهلكين للخدمات والفرص ، ولاتعنى بالوصول إلى اتفاقات أو اتخاذ قرارات بصدد أية مسالك للعمل ينبغى تبنيها . وهو أسلوب يقوم أساساً على التفاعل بين الناس للوصول إلى اتجاهاتهم ومواقفهم وتصوراتهم المتعلقة بالبرامج والخدمات والمنتجات . ذلك على أساس أن الناس ماهم إلا نتاج بيئاتهم ، حيث يتأثرون بالآخرين المحيطين بهم . ومن ثم فإن الكثير من الناس بحاجة إلى الاستماع لآراء أشخاص آخرين قبل تشكيل آرائهم ووجهات نظرهم الخاصة . وبينما تبرز بعض الآراء بسرعة وتظهر بشكل مؤكد ومطلق ، فإن بعض الآراء الأخرى تتسم بالديناميكية . وتدل الشواهد الناتجة عن استخدام أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية أن الناس يتأثرون بتعليقات الآخرين ، حيث يمكن أن تتبدل آراؤهم الفردية فى سياق المناقشة الجماعية . ومن ثم يستطيع الباحث المحلل أن يكتشف الكثير عن كيفية حدوث التغير فى الآراء وطبيعة العوامل المؤثرة عليها .

ويستخدم أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية أيضا بغرض الوصول إلى معلومات تفيد صانعى القرار وترشدهم قبل وأثناء وبعد تنفيذ أية برامج أو خدمات . فهو أسلوب يفيد فى رسم وتصميم البرامج ووضع استراتيجيتها من البدء . كما يفيد أثناء تطبيق البرنامج فى إطار التقييم للبرنامج القائم بالفعل . ويفيد أيضا بعد الانتهاء من تطبيق البرنامج تماما ، حيث يكشف عن الأخطاء التى وردت فى التطبيق [٢] .

وطرحت چين فارلى تمبلتون Jane Farley Templeton تعريفا إجرائيا للمناقشة الجماعية البؤرية ، مؤداه : أنه الأسلوب الذى يبدأ من الدوافع التى تحث الباحث لتشكيل بعض المجموعات . وأكدت أن المناقشة تكون مناقشة حرة وغير مقننة ، تجرى مع مجموعة صغيرة من الأفراد ، ولاتقوم على السؤال المقنن والجواب . وأن المجموعة البؤرية فى جوهرها ، هى جماعة وقتية صغيرة تشكلت بهدف الوصول إلى نتائج بناء على عمل تعاونى ، على أن تتوافر بعض الاهتمامات

المتبادلة لدى المجموعة . ويتسم الاستبار الجمعى أو المقابلة الجماعية Group Interviewing بكونها تجرى بين الناس ليس كأفراد وإنما كمجموعات [٣] .

ويمكن أن يمد هذا الأسلوب الباحث برؤية ثرية متعمقة عن السلوك البشرى وفهم لأسباب تبنى آراء بعينها ، ونوعية الدوافع التى تدفع الناس نحو سلوكيات محددة ولتبنى معتقدات ومشاعر بعينها [٤] .

بدايات استخدام أسلوب المناقشة الجماعية وتطوره

نجد لزاما علينا أن نقوم بتأصيل نشأة استخدام أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية، وتطوره المتسارع قبل أن نحدد الوضع الراهن لاستخداماته .

فقد تبين لنا من مسح التراث العلمى لاستخدام هذا الأسلوب ، أن الباحثين فى مجال العلوم الاجتماعية وبحوث التسويق ، هم الرواد الذين اهتموا بتطبيق أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية .

بدأ استخدام أسلوب المناقشة الجماعية فى المجموعات البؤرية فى مجال بحوث التسويق بعد قيام الحرب العالمية الثانية كنوع من أساليب بحوث الدافعية Motivation Research ، وقد كانت بدايات استخدامه تتسم بالتشتت ، حيث كانت تجرى بالصدفة كنماذج متاحة للتطبيق فى مجال التسويق . مما أثار دواعى النقد العلمى له كأسلوب بحثى غير علمى وغير موثوق به منهجيا [٥] .

ومن الواضح أن ممارسة أسلوب المناقشة الجماعية قد تمت فى مجال التسويق قبل تحديد دواعى استخدامه ، واكتشفت فوائد استخدامه عند التطبيق . أما كيف ولماذا كان مفيدا تماما ، فهو أمر كان لزاما اكتشافه . وقد ظهرت فى هذا المجال تقارير تتضمن تطبيقات للمناقشة الجماعية البؤرية فى الستينيات ، وقد كانت تطبيقات متباينة وغير منتظمة . وكان كل باحث فى هذه المرحلة المبكرة يعتبر محاولته فى استخدام المجموعات البؤرية كاكتشاف ينسب إليه وحده . ففى هذا الوقت المبكر لم تكن هناك محاولات منهجية حقيقية تراعى الخطوات المنتظمة التى يلزم مراعاتها عند استخدام الأدوات والأساليب العلمية للوصول إلى تفسيرات لها دلالتها . كما تم إغفال إمكانية استخدام طرق القياس الكمية لدعم هذا الأسلوب الذى يصنف فى مجال البحوث الكيفية .

وبعد عشر سنوات أخرى ، أى فى السبعينيات ، أتاحت التسهيلات العلمية البحثية منهاجا واحدا يوفق بين التباينات التى كانت سائدة عند استخدام المجموعات البؤرية .

وفى الثمانينيات صارت المناقشة الجماعية البؤرية هى الأسلوب الشائع الاستخدام فى كثير من المراكز والمؤسسات التى تعنى ببحوث التسويق ، مثلها مثل أسلوب الاستبار المتبع فى المسوح التقليدية التى تستخدم الاستبيان ، بل أنها صارت فى نهاية الثمانينيات الأسلوب العلمى الأكثر شيوعا لدى الباحثين الأكاديميين فى مجال التسويق ، والمعروفة لدى الأفراد من غيرالباحثين كالأسلوب البحثى فى مجال التسويق . وصارت منحى مثيراً للاهتمام كوسيلة إقناعية وجذابة ، يسهل استخدامها ، وتتيح صورة أفضل مما يظهره الاستبيان . ويمكن القول أن بحوث التسويق المعتمدة على أسلوب المجموعات البؤرية قد أصبحت ذات دلالة ومعان متعددة ، وتتصف بكونها بحوثا تمارس بواسطة باحثين مدربين على كتابة التقارير العلمية وصياغة التفسيرات Rapporteurs من نوى الخبرة فى المجال الاجتماعى والنفسى . بالإضافة إلى استخدامها بواسطة باحثين تدريبهم الأساسى أو الوحيد فى بحوث التسويق. كما أنها تمارس بواسطة مؤسسات تجارية ، حيث يقوم بها شخص غير مدرب على إدارة المناقشة الجماعية ولايعى المجال التفسيرى للمجموعات البؤرية [٦] .

وبالرغم من الجدل الذى ظل دائرا حول استخدام المجموعات البؤرية فى مجال التسويق ، فإن هذا الأسلوب يستخدم على مدى واسع جدا فى هذا المجال [٧].

وكانت بداية استخدام أسلوب المناقشة الجماعية والمجموعات البؤرية فى مجال علوم الاجتماع والاتصال والرأى العام فى أواخر الثلاثينيات ، عندما ظهرت الحاجة والضرورة لاستخدامه . ففى هذه الفترة من الثلاثينيات بدأ علماء الاجتماع التحقق من قيمة المقابلة الفردية غير الموجهة كأسلوب مفيد لجمع المعلومات ، وأثاروا الشك فى دقة الأساليب التقليدية لجمع المعلومات ، من حيث النفوذ المفرط للقائمين بالمقابلة ، ومحدودية وضع فروض مسبقة للاتجاهات . وأبرز العلماء مساوئ الاعتماد على الاستبيان المحدد بالأسئلة والمتضمن لإجابات اختيارية مغلقة النهايات ، مما يعكس محدودية الاستجابة بالاختيارات المطروحة فى الاستبيان . كما يمكن أن تكون الاستجابات متأثرة - بلاتعمد - بالقائم بالمقابلة Interviewer . فى حين أن المقابلة غير الموجهة Nondirective Interview تتيح لأفراد عينة البحث أن يستجيبوا للأسئلة المفتوحة النهايات دون حدود مقيدة بفئات الإجابات المتضمنة ، وتتيح أيضا فرصة التعليق على موضوع البحث والتفسير والمشاركة بالخبرات والاتجاهات [٨] .

ويعد ستيوارت أ. رايس Stuart A.Rice من الرواد الذين بدءوا الاهتمام بهذا الأسلوب فى مجال علم الاجتماع . ففى عام ١٩٣١ كتب ما مؤداه : أن المعلومات التى يصل إليها الباحث كناتج لاستخدام أسلوب المقابلة هى على الأرجح تضمين للأفكار المسبقة المتصورة مقدما لدى القائم بالمقابلة عن اتجاهات المبحوثين . وأن عيوب الاعتماد على أسلوب المقابلة المقننة والموجهة Structured directive interview تكمن فى أن السؤال المصاغ هو الذى يوجه المبحوث ، ويقوم بالدور الإيجابى ، وأن مسار المناقشة الذى تتبعه الأسئلة تحمل المبحوث على تتبعها دون تفكير، بينما قد تكون المعلومة أو وجهة النظر ذات القيمة البالغة هى التى لايكشف عنها [٩] .

ونتاجا لتشكك علماء الاجتماع فى دقة المقابلة الموجهة والمقننة ، فقد وضعوا فى اعتبارهم ضرورات منها ، أن يحد الباحث من دوره الموجه والمسيطر ، وأن تتاح فى الاستجابات إمكانية تعليق المبحوث على مجالات أو جوانب فى موضوع البحث يكون له رأى فيها . من هنا يتبين أن أسلوب المقابلة غير الموجهة يركز الاهتمام على الإجابات نفسها ، وتكون الاستجابات هى الأكثر أهمية .

وفى أواخر الثلاثينيات وحقبة الأربعينيات ، اهتم علماء الاجتماع وعلم النفس اهتماما واضحا بالمقابلة غير الموجهة . وكان من روادها روث ليسبيرجر Roeth-Lisberger وديكسون Dickson فى دراسة عن دوافع العاملين التى أجريت عام ١٩٣٨، وكارل روجرز Carl Rogers فى العلاج الطبى النفسى فى عام ١٩٤٢ . وازداد الاهتمام بأسلوب المقابلات البؤرية فى مجموعات Focused interviewing in groups خلال الحرب العالمية الثانية . وذلك يرجع إلى ازدياد الاهتمام بدراسات الروح المعنوية العسكرية . وقد وضعت الكثير من الإجراءات التى تم إقرارها وصارت شائعة فى الممارسات البحثية المنهجية لأسلوب المقابلات الجماعية البؤرية Focus group interviews على يد الرواد * : روبرت ميرتون Robert K.Merton ومارجورى فيسك Marjorie Fiske وباتريشيا كندال Patricia L. Kendall فى دراستهم الرائدة عن المقابلة البؤرية The Focused Interview فى عام ١٩٥٦ [١٠].

وقد طرح روبرت ميرتون تاريخ تطور الاهتمام بأسلوب المقابلة البؤرية والجماعات البؤرية بين الاستمرارية والانقطاع ، وذلك فى اجتماع عقدته الرابطة الأمريكية لبحوث الرأى العام AAPOR فى نيويورك فى يونيو عام ١٩٨٦ . وبين

أن الرواد فى تطبيق هذا الأسلوب هم : آلان مايير Alan Meyer وبول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld (وهو من الرواد الأوائل فى استخدام المجموعات البؤرية)[١١] .

وشارك روبرت ميرتون فى الاهتمام باستخدام هذا الأسلوب المنهجى ، بعد أن تعرض كملاحظ ثم كمشارك فى جلسات عمل قام بها بول لازارسفيلد بأمريكا فى نوفمبر ١٩٤١ ، بهدف إجراء اختبارات على استجابات جمهور المستمعين لبرامج الروح المعنوية المتعددة التى تبثها الإذاعة ، وذلك فى إطار البحوث التى تجرى عن عالم الراديو وكيفية قياس استجابات الجمهور .

وفى أعقاب ذلك قام ميرتون باستخدام أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية مع الجنود بالجيش الأمريكى لتحديد استجاباتهم إزاء أفلام تدريبية ، أطلق عليها وقتها ، أفلام الـروح المعنوية Morale Films . كما اشترك ميرتون وبات كيندال Pat Kendall فى الاهتمام باستخدام هذا الأسلوب فى عام ١٩٤٦ ، حيث نشرت لهما ورقة بحثية عن المناقشات الجماعية فى المجلة الاجتماعية الأمريكية The American Journal of sociology . ثم عاد ميرتون وفيسك Fiske وكيرتس Curtis فى عام ١٩٤٦ ثم فى عام ١٩٧١ لاستخدام هذا الأسلوب فى إطار الاهتمام بدراسة السلوك الجمعى Collective Behaviour والمضمون الاجتماعى فى سياق الإقناع الجماهيرى Mass Persuasion [١٢] .

وفى سنوات لاحقة فى السبعينيات (١٩٧٢و١٩٧٧) ، تبنت هاريت زاكيرمان Harriet Zuckerman أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية ، وأجرت عددا من المقابلات البؤرية التى توافر بها التحليل والتأويل أكثر من مجرد التدوين والتأريخ الذى يسود فى حالة تدوين التاريخ الشفهى لسير مشاهير الدولة . ومن الرواد البارزين أيضا فى مجال استخدام هذا الأسلوب ، جوديث لانجر Judith Langer التى كتبت عن الوضع الراهن لاستخدام المناقشات الجماعية ، وسام ستاوفر Sam Stouffer وكارل هوفلاند Carl Hovland . والأخير قام بإجراء دراسة تجريبية كعالم من علماء النفس التجريبيين للتعرف على تأثيرات الاتصال الاجتماعى Social Communication . فقد قام باجراء تجارب مضبوطة ضبطا منهجيا على استجابات الجنود المدربين والأفلام الخاصة بالروح المعنوية . وقد يعتقد البعض أن الاستخدام التجريبى للاختبار والجماعات الضابطة تعد من العلامات الكافية للتعرف على تأثير الأفلام . ولكن كارل هوفلاند أدرك بحكمة واقتدار أن الأمر ليس كذلك . فهذا الاستخدام التجريبى لايتيح معلومات وبيانات كيفية محددة كالمعلومات التى يمكن أن تمدنا بها المناقشات الجماعية البؤرية [١٣] .

وفى مرحلة الثمانينيات وضع الكثيرون أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية فى اعتبارهم كخطوة حاسمة عند تحديد استراتيچية التسويق للمنتجات والخدمات. فقد وجدت بربرا كوى Barbara Coe وچيمس ماكلاشلان James Maclachlan عام ١٩٨٠ ، أن المجموعات البؤرية Focus Groups هى أكثر الأساليب استخداما لتقييم التليفزيون التجارى بين سبع وثلاثين من أكثر الشركات المستخدمة لإعلانات التليفزيون . وفى الغالب تستفيد الحملات الإعلانية من نتائج المقابلات الجماعية البؤرية ، حيث تكشف عن رأى المستهلك فى الخدمة والمنتج من جوانبهما المختلفة . كما تفيد فى مجال جعل الخدمات والمنتجات أفضل . وفى أواخر الثمانينيات صار هذا الأسلوب من الأساليب العلمية المفيدة فى مجال الإعلان [١٤] .

كما أظهر روبرت ڤيكاس Robert Vichas فى عام ١٩٨٣، أنه يستفاد أيضا من استخدام هذا الأسلوب فى مجال الأفلام ، بهدف اختبار ردود فعل الجمهور على النهايات الممكنة للأفلام الجديدة .

وذاعت شعبية هذا الأسلوب فى مجال بحوث التسويق لدى الباحثين فى مجال التسويق ، وذلك يرجع إلى أنه أسلوب يقدم نتائج مفيدة بتكاليف معقولة . كما ذاعت شعبيته لدى آخرين ممن ينشدون المعلومات ، مثل : علماء الاجتماع والقائمون بالتقييم Evaluators ، والمخططون ومتخذو القرارات ورجال التعليم ، وبخاصة عندما يكون الهدف هو شرح الكيفية التى ينظر بها الناس إلى الخبرة والفكرة والحدث [١٥] .

وقام أيضا رولاند بيترسون Roland Peterson وجيرى ميجلر Jerry Migler بدراسة فى عام ١٩٨٦ عن التعليم المهنى الحرفى . وأفادا أن التوصيات التى استخلصت من استخدام أساليب المسح عند تطبيقها لم تحقق الهدف المرجو وهو زيادة أعداد الملتحقين بهذا التعليم . فى حين أن الباحثين عندما استخدما أسلوب المناقشة الجماعية استطاعا أن يصلا إلى نتائج عندما طبقت أدت إلى زيادة هذه الأعداد بما يوازى عشرة أمثال . كما قام قسم خدمات الوسائل التعليمية بمدارس منيابوليس العامة The Eductional Media Service Department of the Minneapolis public schools بإجراء مجموعات من المقابلات البؤرية ، اشترك فيها المتخصصون فى الوسائل التعليمية لاقتراح مناهج وبرامج دراسية جديدة . وقد حقق لهم هذا الأسلوب المنهجى فوائد تعليمية جمة فى إطار تطوير المناهج [١٦] .

وبعد أن كانت معظم التطبيقات لأسلوب المناقشة الجماعية البؤرية تسود فى مجال بحوث التسويق ، فقد أعاد علماء الاجتماع اكتشاف أسلوب المجموعات البؤرية ، بعد أن ظل العمل الرائد لميرتون بخصوص هذا الأسلوب فى سبات فى العلوم الاجتماعية طوال عدة عقود . ويرجع تأخير حركة تطور المجموعات البؤرية كأسلوب يستخدم فى البحوث الكيفية بعامة ، لأسباب عدة منها : الانشغال بالإجراءات الكمية ، والاتجاه الاجتماعى الذى لايعتقد إلا فى الأرقام . فقد ظل لعدة عقود بندول تقييم البحوث مرجحا كفة البحوث الكمية ، وبخاصة البحوث التجريبية بما تتضمنه من جماعات ضابطة وعشوائية فى اختيار العينات (١٧) .

كما قام نورمان برادبيرن Norman Bradburn وكارى مايلز Carrie Miles فى عام ١٩٧٩ باستعراض ممتاز للبحوث المبكرة التى أسهمت فى استخدام الكلمات بدلاً من الأرقام . ويتضمن إسهامات ثلاثة عشر باحثا طوال ستة وثلاثين عاما . فهذه البحوث المبكرة تعاملت مع موضوعات متباينة تتضمن استخدام صيغ لغوية (مثل : قليل جدا) ، كما تغطى مجموعة واسعة من المقاييس بدءا من الاتجاهات إلى المعتقدات وتواتر الآراء عبر الزمن . ومعظم هذه الأبحاث تعاملت مع معدل الحدوث عبر الوقت أكثر من أعداد الناس المشاركين فى المجموعات .

وتجرى محاولات راهنة لدراسة سبل إجراء تقديرات كمية ثابتة لنتائج المناقشة الجماعية البؤرية . منها الدراسة التى طرحها ستيفن دايتز Stephen Dietz فى مؤتمر الرابطة الأمريكية لبحوث الرأى العام AAPOR فى عام ١٩٩٢ (١٨) .

ومن واقع التأصيل النظرى لاستخدام أسلوب المناقشة الجماعية ، تبين أن بحوث التسويق تستخدم نتائج المناقشة كنتائج نهائية يتم التعميم على أساسها . ذلك على عكس الدراسات الأكاديمية التى تستخدمها فى إطار كونها دراسة استطلاعية لبحث كمى .

ومن هنا نخلص إلى أن استخدام أسلوب المناقشة الجماعية فى بحوث التسويق يعيبها أنها تستخدم هذه المناقشات كمصدر للبيانات ، وكأساس للنتائج بغير تطبيق الإجراءات المنهجية اللازمة للتحقق من صدق هذه النتائج باستخدام أساليب البحث الكمى ، والتى تراعى فى العادة الإجراءات المنهجية الخاصة بالثبات والصدق (١٩) .

لذا نرى أنه لزاما علينا القول إنه فى تطبيق أسلوب المناقشة الجماعية فى

البحوث الأكاديمية ينبغى اعتبارها - أساسا - وسيلة لبلورة الأفكار والفروض المتعلقة بمشكلة البحث ، والتى ينبغى أن تخضع بعد ذلك لإجراءات البحوث الكمية حتى يمكن صياغـة التعميمات على ضوئها ، ملتزمين فى ذلك بالإجراءات المنهجية المعروفة .

موضع أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية بين أساليب البحث الكيفى ومحاولات التكميم

يعد القيام بعمل بحثى كيفى على عينة صغيرة كأساس لصياغة استبيان مقنن ، من الأمور الشائعة الاستخدام ، وهذا من شأنه أن يساعد على تحديد نوعية الاتجاهات والسلوك والموضوعات المتصلة بموضوع البحث ، ويساعد أيضا على تجنب وضع استجابات إجبارية مقننة تقنينا زائفاً وغير متصل بالموضوع . فإن البحوث الكيفية أساساً هى بحوث غير مقننة ، وتعتمد على مدخل مرن للنقاش ، يسمح بظهور أوسع قدر متاح من الآراء والنماذج .

ويستخدم فى البحوث الكيفية أسلوبان رئيسيان هما : المناقشة الفردية المتعمقة والمناقشة الجماعية . فبالنسبة للأسلوب الأول ، تكون المناقشات غير مقننة أو شبه مقننة ، ويقوم به باحث مدرب تدريبا خاصا . وبدلا من استخدام الاستبيان ، يكون لديه قائمة بالموضوعات التى تقوم عليها المناقشة . وتعطى له حرية استخدام الأسئلة والكلمات التى من شأنها تشجيع المبحوثين للتحدث بحرية عن الموضوعات المحددة وفى إطارها . كما يقوم القائم بالمقابلة بترشيد المناقشة وقيادتها نحو موضوعات جديدة من وقت لآخر . أما الأسلوب الثانى ، وهو المناقشة الجماعية ، فيقوم به باحث مدرب يقوم بتوجيه النقاش بين مجموعة صغيرة من المبحوثين ، ويعتمد أيضا على قائمة الموضوعات بدلا من الاستبيان المقنن .

ويسمح الأسلوبان بأن يتحدث المبحوثون كما يريدون ، سواء من حيث الوقت المستغرق أو اللغة المستخدمة أو مستوى الفهم . ومن ثم فإن المناقشة يمتد نطاقها بحرية بحيث قد تتضمن موضوعات تنشأ تلقائيا ، وقد تبدو غير ذات صلة بموضوع النقاش . وتتوافر الفرصة للقائمين بالنقاش وقادة المجموعات كى يصلوا إلى تفسيرات وإيضاحات مسهبة .

وفى مرحلة مبكرة من القيام بالعمل الكيفى ، يمكن أن يبدأ الباحث بمناقشة أو بمناقشتين من المناقشات غير المقننة كلية . ويستخدم دليلا واسعا لموضوع

البحث فى مناقشات قليلة . كما يستخدم أسئلة مباشرة قليلة قدر الإمكان ، ومن ثم يشجع المبحوثين على التحدث . هذا النوع من الأساليب البحثية يفيد الباحث فى صياغة أفكار أكثر وضوحا عن مضمون البحث وأكثر تفصيلا بحيث يمكنه إجراء المزيد من العمل الكيفى . وهذا بدوره يسمح للباحث أن يعين ويحدد المجموعات السلوكية الرئيسية Behavioural Groups فى العينة ، وأسلوب التعبير أو اللغة والمفاهيم التى يستخدمها المبحوثون ، وتباينات الرأى فى الموضوع ، والأبعاد والاتجاهات ذات الصلة بالموضوع ، بالإضافة إلى استنباط وتكوين الفروض المبدئية المتعلقة بالدوافع وراء السلوك والاتجاهات .

باختصار ، فإن الباحث يستخدم المعلومات الكيفية كمثير لأفكاره ، بحيث يمكنه أن يستنبط إطاراً للبحث قابلا للتطبيق . ولاشك أن البحث الكيفى بعامة يسهم إسهاما كبيرا ، حيث يمكن الباحث من وضع إطار مفاهيمى أفضل للبحث.

عند القيام ببحث كيفى محدد ، يتم استخدام قائمة الموضوعات نفسها فى كل محادثة أو مناقشة ، ولكن من المحتمل أن تختلف طرق تغطية هذه الموضوعات وأنواع المعلومات التى تستخرج منها . ويكون على الباحث أن يستنبط مما يسفر عنه استخدام أسلوب المناقشة الجماعية ، بنية الاستبيان الأساسى الذى سيقوم بتطبيقه فى القياس الرئيسى . وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار اختلاف أنواع المعلومات التى سوف يتم الحصول عليها وأهداف الدراسة ككل . وهذا يتطلب من الباحث أن يتسم بمزيج من التفتح وسرعة تلقى الأفكار ، والموضوعية ، والإبداع .

وهناك خطوتان أساسيتان تتبعان عند إجراء هذه النوعية من البحوث :

الخطوة الأولى : تتمثل فى تحديد المجموعات المتميزة الفارقة . وبناء عليها يمكن المقارنة بين سمات واتجاهات هذه المجموعات فى حالة القيام بالتكميم فى مرحلة تالية . (أحيانا تظهر أعداد كبيرة من المجموعات ، مثلا عند دراسة عادات الناس فى ادخار النقود . وهكذا فإنه عند تصميم الاستبيان الأساسى ينبغى صياغة سلسلة من الأسئلة المرتبطة التى تميز أعضاء كل مجموعة من هذه المجموعات) .

أما الخطوة الثانية : فإنها تتمثل فى استخدام المعلومات الكيفية لاستنباط وتكوين الفروض [٢٠] .

وفى الثمانينيات صارت المناقشة الجماعية والمجموعات البؤرية موضوعا خلافيا بين معسكرى أصحاب الاتجاه الكمى وأنصار الاتجاه الكيفى [٢١] .

فعلى الرغم من أن أساليب البحث الكيفى يمكن أن تبتعد نهائيا عن محاولات التكميم ، إلا أنها أحيانا تحتوى على تكميمات ضمنية . وهذا بدوره يقابل بهجوم من الباحثين الكميين من منطلق تأكيدهم على ضرورة الاعتماد على الأسئلة المقننة لعينة ممثلة كقاعدة أساسية للتكميم . بينما يؤكد الكيفيون أن الذى يعنيهم أساساً هو الوصول إلى القضايا المتقابلة باستخدام مقياس يعتمد على أفكار محددة وردود الفعل والآراء ، مما يكون من شأنه كشف الموضوع الخاضع للبحث بتنوعاته المتعددة والمعلومات المتشابكة داخله . إلا أن بعض الباحثين الكيفيين يعترضون على محاولات استخدام الأساليب الكمية لتكميم مايرد من استخدام الأساليب الكيفية ، وبخاصة أسلوب المناقشة الجماعية الذى يستخدم الأسئلة مفتوحة النهايات الموجهة للمشاركين فى المجموعة البؤرية ، ويستند اعتراضهم إلى :

١ - إنه لاداعى لرصد كم مرة وردت أية وجهة نظر أحادية .
٢ - إن سمات المناقشة الجماعية التفاعلية تتطلب أساساً من عدم التكميم المحدد بإحكام . وأن هذا المستوى من التكميم يكفى لاستخلاص أنواع القرارات التى ينبغى أن تؤخذ . (إن سمات التفاعل والنقاش اللتين يتسم بهما أسلوب المناقشة الجماعية يحاول تجنبهما الكثير من الباحثين الذين يبتغون معلومات كمية من المشاركين فى المناقشة) .
٣ - إن التكميم عملية بطيئة من شأنها إعاقة صنع القرار .
٤ - إن النتائج المستخلصة من التكميم ليس لها داع ، لأنها تعجز عن كشف الأبعاد الحقيقية المتشابكة والمتعلقة بموقف المستجيب [٢٢] .

وينادى البعض الآخر بضرورة التعاون والتقريب بين الباحثين الذين يستخدمون أساليب البحث الكيفى والاستطلاعى وبين الباحثين المصممين للاستبيانات والمسوح . مع العلم بأنه من الصعوبة الجمع بينهما ، لاختلاف مناحى المعرفة والعادات المتبعة فى إجراءات عمل كليهما . فإن المدى الزمنى للبحوث الكيفية غير محدد ، ويثير كثيرا من المشكلات غير المتوقعة . إلا أن الباحثين الذين يعتمدون على الاستبيان فى أبحاثهم يمكن أن يعاونوا الباحثين الذين يتبعون أسلوب المجموعات البؤرية باستبيان أولى . كما أن حرية القائم بإدارة مجموعة النقاش فى توجيه سؤال للمبحوث مؤداه : ماذا تعنى بالضبط بما تقول ؟ يعد نافعا ، ويعمق الفوائد الناتجة عن استخدام أساليب البحث الكيفى [٢٣] .

كما أن نتائج استخدام أسلوب المناقشة الجماعية البؤرية وغيرها من أساليب البحث الكيفى تفيد كثيرا فى تفسير وتأويل نتائج البحوث الكمية التى تطبق على عينة ممثلة لمجتمع البحث من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعين فى الوصول إلى فروض جديدة تستحق إجراء المزيد من البحث الكمى عليها والمزيد من البحوث التجريبية لاختيار الفروض [٢٤] .

وقد أدرك هؤلاء الباحثون المعنيون بالتقييم المنهجى الفوائد التى يمكن أن يجنيها الباحث من الاعتماد على الاساليب الكيفية والكمية معاً ، لما فى ذلك من إيجابيات بالنسبة لتصميم البحث .

ويمكن أن يستخدم أسلوب المناقشة الجماعية فى المجموعات البؤرية ، مع الاعتماد أيضا على الأساليب الكمية ، سواء قبل إجراء الدراسة الكمية أو أثناء إجرائها أو بعد القيام بها أو بمفرده مستقلا عن استخدام أية أساليب كمية . ونفصل ذلك فى النقاط التالية :

١ - أن يقوم الباحث باستخدام المجموعات البؤرية كأسلوب كيفى استطلاعى يسبق استخدام الأساليب الكمية ، مما يمكن الباحث من كشف أنماط التفكير والآراء والكلمات التى تمثل الجمهور المستهدف . ومن شأن هذه الرؤية المتعمقة أن تكشف عن كيفية رؤية الجمهور المستهدف للواقع واتجاهات وآراء الناس فى مواقف طبيعية تفاعلية . وهذا بدوره يساعد على تطوير أساليب البحث الكمى بحيث تكون أكثر كفاءة .

٢ - أن يستخدم المجموعات البؤرية كأسلوب كمى فى الوقت نفسه ، وذلك باستخدام أكثر من أسلوب بحثى لقياس الموضوع نفسه بهدف الحصول على معلومات ثرية ومتعمقة ، وللتأكد من النتائج التى يتم التوصل إليها .

٣ - يمكن أن تستخدم المجموعات البؤرية عقب استخدام الباحث للأساليب الكمية ، الأمر الذى يؤدى إلى تعميق المعانى المستخلصة من النتائج وتفسيرها ، إلى جانب اقتراح استراتيجيات عمل لمواجهة المشكلات التى اهتم الاستبيان بكشفها .

٤ - يمكن الاكتفاء باستخدام المجموعات البؤرية دون الاستعانة بأساليب بحثية أخرى ، عندما تكون التصورات والرؤى المتعمقة والتفسير أهم للباحث من الأرقام الفعلية التى تعكس حجم الآراء أو المفاهيم [٢٥] .

ولكن هناك سؤالا منطقيا كثيرا مايثار عند الوصول إلى النتائج الكيفية ،

وهو : مامدى شيوع رأى ما ؟ أو ، كم عدد الناس الذين لديهم هذه الخبرة ؟ وهذا بدوره أدى إلى إجراء بعض القياسات لتكرارات تواتر الآراء المتعددة بين الأفراد المشاركين فى المناقشة الجماعية [٢٦] .

وفى كثير من الأحوال ، يتجنب الباحث المحلل لنتائج استخدام أسلوب المجموعات البؤرية إجراء أية تقديرات عددية ، ويفضل اللجوء إلى مصطلحات مثل : قليل من أفراد العينة يتبنون هذا الرأى أو بعضهم أو كثير منهم أو أغلبهم . فهناك اتجاه مفهوم لتجنب صياغة تقديرات كمية على مستوى المجموعة (مثلا كأن يقال أن سبعة من عشرة من أعضاء المجموعة يؤيدون القانون الجديد) ، أو على مستوى مجتمع البحث كله (كأن يقال ٧٠٪ من كل الناخبين يؤيدون القانون الجديد) ؛ وذلك لأن الجماعات البؤرية عادة ماتتشكل على أساس عينات صغيرة مأخوذة من عينة حصصية ملائمة .

وعلى الرغم من لجوء الباحثين القائمين بإدارة مناقشات المجموعة البؤرية Focus Group moderator إلى الصفات الكمية (مثل بعض وقليل وكثير) عند كتابة التقرير النهائى للبحث ، مما يجعل شكل التحليل مجرد تحليل كيفى بلا أعداد أو نسب مئوية . إلا أنه غالبا ماتترجم هذه الصفات المكممة إلى أعداد أو أرقام تقريبية من قراء هذا التقرير .

وقد حاول جون هويت John S.Hoyt فى عام ١٩٧٢ البحث عن إجابة للسؤال الذى مؤداه : هل الصفات الكمية تعنى الشئ نفسه لدى كل الناس ؟ . فقام بدراسة بجامعة منيسوتا الأمريكية ، وأثبت الكيفية التى يقوم الناس بناء عليها بترجمة الصفات الكمية إلى أرقام وأعداد . فقد أجرى هويت مسحاً ، سأل فيه المستجيبين أن يضع كل منهم درجة من إجمالى مائة درجة ، بحيث يمثل فهمهم لكل صفة . وبينما كانت نتائج هذه الدراسة مساعدة فى فهم كيفية قيام الناس بإحلال القيم العددية محل الصفات الكمية ، فإن بعض التعديلات استلزم إدخالها على المجموعات البؤرية التى تتكون عادة من عشرة أشخاص فى المجموعة الواحدة (فى مقابل مائة شخص فى بحث هويت) . وهكذا فإن صفة "الزوجين" A couple ينبغى أن تأخذ قيمة ٢ أيا كان حجم المجموعة ، عشرة أو مائة . وبالرغم من أن "الأغلبية" A majority ينبغى أن تكون واحدا وخمسين أو أكثر فى المجموعة المكونة من مائة ، ولكنها تكون ستة أو أكثر فى المجموعة المكونة من عشرة أشخاص .

كما أجرى ستيفن دايتز Stephen Dietz مسحا على ثلاثين من القائمين بإدارة المجموعات البؤرية Moderators ، بغرض الوصول إلى مزيد من الفهم لمعنى الصفات الكمية فى تقارير المجموعات البؤرية . وسأل كل مستجيب أن يضع علامة تدل على التفسير الرقمى لكل من أثنتى عشرة صفة كمية تشرح مجموعة صغيرة مكونة من عشرة أشخاص .

وقد أبرزت نتائج هذا المسح أن هناك اتفاقا قويا معقولا على التقدير الرقمى لهذه الصفات بين المستجيبين لهذا المسح .

وأكد الباحث هويت أنه على الرغم من صغر العينة ، إلا أن النتائج تعكس اهتمام الناس بالمقاييس الرقمية للصفات الكمية مثل بعض وقليل وكثير إلى آخره ، وأن هذه التأويلات الرقمية متجانسة تجانسا معقولاً من شخص لآخر(٢٧) .

وهذا بدوره يعكس لنا الفوائد المتحققة من استخدام العينات الحصصية غير الاحتمالية .

ويمكننا القول ، إن المحاولات التى تجرى فى الوقت الحالى ، لدراسة سبل إجراء تقديرات كمية للنتائج التى تم استخلاصها من التعبيرات الكيفية التى استجاب بها المشاركون فى المناقشات الجماعية للمجموعات البؤرية . يقابلها عزوف الكثيرين ممن يمارسون أسلوب المجموعات البؤرية عن استخدام التقديرات الكمية . وهى واحدة من الإشكاليات المنهجية التى تواجه الباحثين عند تطبيق هذا الأسلوب الكيفى أساساً .

المشكلات المنهجية والتطبيقية التى تظهر عند استخدام أسلوب المناقشة الجماعية . وطرق مواجهتها

إن حركة تطور الاعتماد على أسلوب المناقشة الجماعية والمجموعات البؤرية كأسلوب من الأساليب الكيفية المهمة ، والتى تمد الباحث بوفرة فى المعلومات وبتكاليف معقولة ، من خلال تفاعلات جماعية Synergism بين الناس تعكس الحياة الواقعية The real-life ، وتسمح للباحث بالوصول إلى اتجاهات المشاركين فى المناقشة وآرائهم وإدراكاتهم بما لا تتيحه الأساليب العلمية الأخرى ، يتوقف مستقبلها على الاعتراف الصحيح بحدود استخدام هذا الإجراء العلمى . فعلى الرغم من ميزاته ، إلا أنه ينبغى التحذير من إمكانية إساءة إستخدامه كأسلوب علمى(٢٨) .

فهناك تحيزات عديدة قد تظهر فى المراحل المتعددة لاستخدام أسلوب

المناقشة الجماعية والمجموعات البؤرية . المرحلة الأولى : مرحلة وضع خطة استخدام هذا الأسلوب ، وما يتضمنه من احتمالية سيادة مزاج التسليم بصحة افتراضات معينة لدى الباحث من البداية وكأنها حقيقة مقررة ، وتحديد العينة . والمرحلة الثانية : مرحلة المقابلة الجماعية ذاتها ، التى تتضمن إدارة المناقشة ، والقائمين بإدارتها والمساعدين وأفراد المجموعة المدعوون للمناقشة الجماعية . والمرحلة الثالثة : مرحلة البيانات الناتجة عن المناقشة الجماعية فى المجموعات البؤرية . وتعد قضية الجدية التى تؤخذ بها هذه البيانات هى القضية الأكثر شيوعاً ، حيث تثير موضوعا حاسما ألا وهو اعتبار البحث المعتمد على هذا الأسلوب بحثا علميا صحيحا [٢٩] .

بداية ، ليس هناك تحديد قاطع لعدد الأفراد المثالى الذى ينبغى أن يكون عند استخدام أسلوب المناقشة الجماعية فى المجموعات البؤرية . ولكن يمكن القول أن أكثر من عشرة أشخاص يجعل من الصعوبة بمكان ضبط المجموعة والتحكم فيها ، وأقل من خمسة أشخاص يجعل من الصعوبة تواجد نقاش بتاتا ، وأن ثمانية أفراد يعد عدداً مفضلاً . وبعامة ، فإن التقليل فى عدد أفراد المجموعة البؤرية هو الأفضل لإعطاء الفرصة لكل شخص للتحدث . وحيث إن من المحتمل عدم استجابة كل من يتم دعوتهم للمشاركة فى المجموعة ، فيفضل توجيه الدعوة لعشرة أو أحد عشر فردا عسى أن يحضر منهم ثمانية [٣٠] .

كما أن المجموعات البؤرية تقوم عادة على عينة حصصية ملائمة . وهنا نثير أهمية نظرية العينات الاحتمالية لدى إحصائيى العينات ، من أجل الحصول على تقديرات غير متحيزة بخاصة ، وذلك يرجع إلى إمكانية حساب خطأ العينة . إلا أن هناك بعض الميزات لاستخدام العينات غير الاحتمالية . وقد ذهب جراهام كالتون Graham Kalton إلى أن التحيز الذى يمكن أن ينتج عن استخدام العينات غير الاحتمالية يعتبر ضئيلا بالنسبة للعينات الصغيرة ، مستندا إلى أن التباين فى تقديرات العينة الاحتمالية يتسع كلما صغر حجم العينة [٣١] .

أما التحيزات التى تظهر فى المرحلة الثانية ، فإنها تتمثل فى : أن الأفراد الذين يتفاعلون فى مجموعة النقاش قد يعوقون فرصة إعطاء الفرد الخصوصية فى إعطاء استجابة أو تعليق أو رأى مستقل [٣٢] .

وتظهر هذه المشكلة بخاصة عندما تتكون المجموعة البؤرية من أفراد يتفاعلون بانتظام فى العمل أو اجتماعيا . وفى هذه الحالة قد يستجيب المشاركون

فى المجموعة البؤرية بناء على خبرات ماضية معروفة ، أو أحداث أو مناقشات ، مما يؤدى إلى إعاقة الآراء والاستجابات التى يمكن أن يكشف عنها [٣٣] .

وهناك معوقات تقف أمام النقاش الصريح ، هى :

١ - محاولة المبحوثين ذكر الأسباب والآراء المنطقية فقط متجاهلين اتجاهاتهم ومعتقداتهم ومشاعرهم الوجدانية .

٢ - احتمالية عدم توافر القدرة لدى المبحوثين للكشف عن مشاعرهم وآرائهم بموضوعية حتى لأنفسهم .

٣ - قد يتجنب المبحوثون الحديث عن آرائهم واتجاهاتهم وسلوكياتهم غير المتجانسة مع صورتهم الذاتية ، وذلك يرجع إلى أن الناس عادة يميلون إلى قول ما يعتقدون أنه ينبغى فعله أكثر من الذى يتم فعله فى الواقع ، وكمثال فمن الصعب الحصول على معلومات عن الأحوال والعادات الصحية الشخصية .

٤ - قد يتسم المبحوثون بالخجل أو القلق الشديد لترك انطباع على القائم بالمناقشة الجماعية ، فقد يشعرون أن آراء بعينها هى آراء متوقعة أو مرغوب فيها ، ومن ثم يستجيبون طبقا لهذه الآراء . إلا أنه فى بعض الحالات يتلاشى الخجل عندما يجد المبحوث أن الآخرين المشاركين فى المجموعة يتحدثون بصراحة وبتلقائية ، فإن المجموعة تساعد على تحديد الاتجاهات وكشف الآراء المختلفة ، والتى قد تعد غير مقبولة اجتماعيا[٣٤] .

فمن الملاحظ أن المجموعات البؤرية قد تؤدى إلى نتائج متحيزة ومضللة فى حالة شيوع الرغبة لدى المشاركين فى الإدلاء بالآراء التى قد يعتقدون أنها آراء الباحث القائم بإدارة المناقشة الجماعية ، وبخاصة عندما يكون هذا الباحث دمث الخلق وجذابا ويتسم بطباع الطيبة ، مما يلزم القائم بكتابة التقرير المفسر أن يتناول الجوانب الوجدانية بحذر [٣٥] .

وأخيراً التحيزات التى تظهر فى مرحلة معالجة البيانات الواردة فى المناقشة الجماعية ، حيث يكون الوضع بالغ السوء - كما يحدث من حين إلى آخر - عندما لا يبين القائم بإدارة المناقشة كافة الأقوال التى أدلى بها أعضاء المجموعة بالفعل ، ويركن إلى إظهار تفسيراته الذاتية على ما قيل [٣٦] .

كما تظهر فى هذه المرحلة مشكلة تعقد إجراء المقارنة بين الاستجابات المختلفة ، مما يلزم الباحث المحلل بضرورة المقارنة بين الكلمات المستخدمة فى

الاستجابة (كلمات متماثلة Identical أم متشابهة Similar أم مرتبطة related أم غير مرتبطة ومختلفة) ، وأن يقارن بين سياق التعليقات وما إذا كانت قد وردت فى إطار التشابه أم الاختلاف ، وما إذا كانت الاستجابات تتحدث عن الشئ نفسه أم لا [٣٧] .

فإن البيانات التى تنتج عن المناقشة الجماعية تسمح لكل شخص فى المجموعة البؤرية بالمشاركة فى مناقشة كافة الموضوعات الجزئية ، وتكون مناقشة تفاعلية جماعية ، مما يجعل الكثير من الباحثين يبتعدون عن استخدام التقديرات الكمية .

فإنه للحصول على تقديرات كمية موضوعية ، يلزم التأكد من الحصول على إجابات مستقلة ، بمعنى أن ترجع إلى المشارك فى المجموعة البؤرية الواحدة دون التداخل مع إجابات المشاركين الآخرين .

كما أنه من المحتمل ظهور مشكلة بصدد مصطلح «ذكرت» ، حيث يكون أمرا مضللا أن يكتب الباحث تقريرا بصدد عدد أو نسبة من الناس «ذكرت» الأراء إلا إذا كان واضحا أن كافة المجيبين قد سئلوا وأجابوا عن السؤال نفسه . أما تقرير أن عددا أو نسبة من الناس ممن بادروا بذكر بعض التعليقات فهو من الأمور المضللة . باختصار ، فإن تقرير الأعداد أو النسب أو الصفات الكمية التى تحدد بعض الآراء والمعتقدات والممارسات بدون تقرير عدد الذين أجابوا بالفعل ، من الممكن أن يضلل تضليلا كبيرا [٣٨] .

السمات الأساسية لمنهجية المناقشة الجماعية فى البحوث الأكاديمية

تبرز أهمية العمل على توافر الأسس المنهجية لأسلوب المناقشة الجماعية فى المجموعات البؤرية عند ممارسته على المستوى الأكاديمى بخاصة . ومن المعايير الأساسية التى ينبغى وضعها فى الحسبان أن تتكون المجموعات البؤرية من أفراد متجانسين ومتشابهين تبعا للغرض من الدراسة ، على أن يتم إعلام المشاركين فى المناقشة الجماعية بشأن تلك العوامل المشتركة بينهم قبل البدء . ويكون أعضاء المجموعة فى العادة من أفراد لا يعرفون بعضهم البعض ، أو غير مألوفين لبعضهم البعض ، ويتم اختيارهم على أساس أن لديهم خصائص شائعة Characteristics متصله بموضوع المناقشة الجماعية [٣٩] .

كما يتطلب إجراء مناقشة جماعية فى المجموعات البؤرية توافر كفاءات من

الخبراء فى إجراء المقابلات والمفسرين . وهنا نفرق بين الباحث الذى يقوم بإدارة المناقشة وتلخيص ما قيل فيها Moderator وبين الباحث القائم بكتابة التقرير وتفسير ما جاء فيه Rapporteur [٤٠] .

ويحدد التراث العلمى لتطبيقات أسلوب المناقشة الجماعية أو المجموعة البؤرية ، خطوات يهتدى بها الباحث المسئول عن التطبيق من أهمها :

١ - أن يصمم خطة العمل للبحث القائم أساسا على المناقشة الجماعية ، محدداً لما سوف يقوم به قبل الحصول على موافقة الجهة التى يجرى لها البحث ، ويوضح فى خطة مشروع البحث :

أ - نوعية البيانات التى يهتم بتسجيلها بهدف استخدامها فى التقرير التفسيرى (بيانات واقعية Factual أم وجدانية Emotional) .

ب - تحديد الأهداف الرئيسية والفرعية ، التى بناء عليها يضع قائمة القضايا المختارة للمناقشة والأسئلة الأساسية المفتوحة النهايات ، وبالتالى تحقق أغراض البحث .

جـ - تصميم دليل المناقشة . وهو عبارة عن مذكرة تتضمن خلاصة لقضية أو لمسألة محددة تمثل موضوع البحث ، ومجالات المناقشة التى ينبغى أن يشملها النقاش الجماعى . وهو أيضا عبارة عن نظرة عامة تمهيدية عن طريقة السير الفعلية التى يمكن أن تسير عليها المناقشة الجماعية . ولا يوجد نموذج موحد لدليل المناقشة يمكن أن يلتزم به فى كافة الأبحاث التى تطبق أسلوب المناقشة فى المجموعات البؤرية . فيمكن أن يأخذ شكلا موجزا تمهيديا أو سردا كاملا للنقاط التى ستناقش ، والمقدمات التى يتطلبها مسار المناقشة لكافة جوانب الموضوع ، وتحديد احداهما يعد أمراً اختياريا يقرره الباحث بنفسه .

د - تحديد حجم عينة المشاركين فى المناقشة الجماعية .

هـ - ماهية الباحثين المساعدين فى تطبيق الأسلوب (قائمون بإدارة النقاش ، ملخصون يدونون ما يقال فى المناقشة ، مسجلون لما يدور ، قائمون بكتابة التقرير ومفسرون) .

و - تحديد الفترة الزمنية التى يستغرقها تطبيق هذا الأسلوب .

ز - تحديد التكلفة المالية المطلوبة للعمل [٤١] .

٢ - إجراء المقابلة وتطبيق المناقشة الجماعية

ينبغي على الباحث القائم بإدارة المناقشة الجماعية فى المجموعة البؤرية أن يكون قادراً على جعل المبحوثين المشتركين فى المناقشة يشعرون بالارتياح ، وبأن كافة وجهات النظر أو أنماط السلوك تعد مقبولة ومثيرة للاهتمام . وأن يشجع المبحوثين للتحدث بتلقائية بحيث يعبرون عن معتقداتهم وقيمهم وآرائهم وسلوكياتهم الواقعية التى تمثلهم بالفعل ، كما يمكن أن يستخدم تعبيرات بسيطة تشير إلى تفاهم واهتمام (مثل : ها ، آه ، نعم ، هذا مثير للاهتمام ، أحب أن أسمع منك أكثر عن هذا) مما من شأنه تحقيق الإسهاب فى نقاط محددة يبتغيها الباحث . ويمكن أيضا أن يسأل المبحوث أن يقارن بين شيئين أو نقطتين أو عن شعوره عندما سمع عن موضوع ما لأول مرة ، أو بإعادة تعبير وجدانى ذكره المبحوث للتعبير عن رأى معين بحيث يدفعه للاسهاب فى ملاحظاته [٤٢] .

وبعد تحديد الباحث لمجموعة المشاركين فى المناقشة الجماعية ، يبدأ المقابلة كما يلى : يقدم نفسه وقواعد المناقشة المحددة ، ثم يتحدث بإيجاز عن موضوع البحث أو القضية المثارة للمناقشة . ثم يركز على الموضوع الرئيسى للمقابلة. ويمكن أن يطرح على المشاركين أية إنجازات أو إجراءات خاصة بالموضوع الذى تتناوله المناقشة لإعطائها حيوية . مع وضع تعليمات لهم بالالتزام بآرائهم الخاصة وذلك بكتابة رأيهم عند البدء فى مناقشة أية جانب من جوانب الموضوع ، ثم الإدلاء بهذا الرأى لمناقشته مع المجموعة . ويستمر اتباع نموذج كتابة الرأى الخاص ثم مناقشته مع الآخرين لحين الانتهاء من مناقشة كافة الجوانب المعنية ، ثم يفتح باب المناقشة بين المجموعة حول القضية الشاملة برمتها .

وفى نهاية المناقشة يلخص الباحث كل ما قيل فى المجموعة البؤرية ، ويطلب من كل مشارك كتابة توصياته فى نهاية جلسة المناقشة [٤٣] .

ومما لا شك فيه أن كتابة عضو المناقشة لرأيه الخاص فى بطاقة بيانات صغيرة أثناء انعقاد المجموعة البؤرية قبل مناقشة كل موضوع جزئى جديد ، هو ضمان للتأكد من الحصول على إجابات مستقلة . وهو ما أكد عليه أيضاً "ستيفن دايتز" كشرط رئيسى للحصول على تقديرات عددية Projectable Numerical Estimates بمعنى أن تعليقات المشارك فى المجموعة البؤرية الواحدة وإجاباته يجب ألا تكون متأثرة بإجابات المشاركين الآخرين . مؤكداً أن الحفاظ على بطاقة البيانات الصغيرة لن تؤثر على ديناميكية المجموعة وتدفق المناقشة

سلبا . بل على العكس ، تكون المناقشة ذات قيمة حيث يشرح المشاركون إجاباتهم العددية المكتوبة . وفى الوقت نفسه يكون المشاركون الآخرون مهتمين بالاستماع إلى ماكتبه بعضهم الآخر . وأشار أنه يمكن أيضا الحصول على الإجابات المستقلة بإرسال بطاقة البيانات الصغيرة بالمعلومات أو استبيان قبل انعقاد المجموعة البؤرية (٤٤) .

٣ - مرحلة كتابة التقرير النهائى

هناك مستويان للبحوث التى تعتمد على أسلوب المناقشة الجماعية والمجموعات البؤرية ، يقوم المستوى الأول على المناقشة فقط ، وكتابة تقرير تلخيصى يتضمن الاقتباسات الممثلة لمجموع الآراء التى طرحت عن كل سؤال تضمنته المناقشة . بينما يقوم المستوى الثانى على كتابة تقرير تفسيرى ، حيث يكتب الباحث كافة إجابات المشاركين فى المناقشة الجماعية بتفصيلاتها، سواء كانت إجابات صريحة أو مجرد تعبيرات انطباعية . ويمكن أن يكون التقرير مجرد تجميع اقتباسات حرفية من إجابات المشاركين فى المناقشة الجماعية عن كل نقطة أثيرت فى دليل المناقشة . كما يمكن أن يفسر الباحث ما يرى أنه قد حدث فى المناقشة الجماعية (لفظيا أو غير لفظى) ، ثم يصيغ فروضا بناء على النتائج التى استخرجها .

ويمكننا أن نقسم التقارير النهائية إلى تقرير مسهب وتقرير موجز . ويكمن الفارق بينهما فى عدد الصفحات وقلة التفصيلات المكتوبة فقط ، ولا يتعلق الأمر بالدقة . وكاتب التقرير فى الحالتين يستمع إلى كافة التسجيلات التى دارت فى المناقشات فى المجموعات المتعددة ، إلا أنه غير ملزم بكتابة اقتباسات أو التعمق فيما يتعلق بالبيانات التفسيرية . ففى حالة التقرير الموجز غير المفصل ، يعتمد الباحث المحلل فى الغالب على تفسيراته فقط ، بينما يعتمد الباحث فى التقرير المسهب المفصل على الاقتباسات المتضمنة فى المناقشة . ويمكن أن يزداد التقرير طولاً كلما ازداد عدد المجموعات البؤرية التى طبق عليها أسلوب المناقشة الجماعية ، وكلما طالت فترة انعقاد المقابلة البؤرية ، حيث تزداد المشكلات والتداخلات ، وهذا بدوره يؤدى إلى الوصول لنتائج محددة . كما يندر أن يتحدث المشاركون فى المناقشة الجماعية بصوت موحد Univocal ، مما يؤدى إلى إجراء تحليلات لأية اختلافات تكون بينهم ، وتكون الحلول المقترحة لمواجهة المشكلات واضحة جدا .

ويمكن النظر إلى تقرير المناقشة الجماعية من جانبين :

الأول باعتباره وثيقة مقسمة إلى أقسام ، حيث يتناول كل قسم أحد العناصر التى يتضمنها التقرير بدءا من تحديد المشكلة وانتهاء بالتوصيات .

الثانى باعتباره يعكس العملية التى تم بها استخدام أسلوب المناقشة الجماعية [٤٥].

ويجدر بالباحث المحلل أن يضع فى اعتباره جوانب التركيز والشدة فى تعليقات المجيب ، إلى جانب التجانس الداخلى للتعليقات ، والحالات التى يقوم فيها المجيبون بتغيير إجاباتهم فى مرحلة متأخرة أثناء المناقشة الجماعية ، ومدى قدرة المجيبين على طرح أمثلة عن موضوع النقاش . وعلى الباحث أيضا أن يضع فى اعتباره الأبعاد المركبة عند إجراء المقارنة بين الإجابات المتشابهة تشابها واضحا . فإن مهمة الباحث هو صياغة عبارة تعكس نتاج المناقشة الجماعية من واقع الشواهد المتاحة . على أن تكون شواهد محددة وسائدة فى أقوال المشاركين فى المناقشة ، وذلك بتحديد الاتجاهات الغالبة ، وكذا الآراء المتميزة التى ذكرت لمرة واحدة ، فقد تلقى الضوء على بعض الجوانب المهمة فى موضوع المناقشة ، رغم أنها لا تدخل فى صلب التقرير .

كما ينبغى أن يبين فى التقرير الأسباب التى يبنى عليها المشاركون فى المناقشة الجماعية آراءهم المختلفة ، ثم صياغة مجموعة من الفروض التى يمكن على أساسها القيام ببحث كمى بعد ذلك بهدف التعميم[٤٦] .

ومع ذلك فهناك بحوث كيفية عديدة اعتمدت على أسلوب المناقشة الجماعية فى المجموعات البؤرية ولم يعقبها بحث كمى . ويمكننا القول إنه على الرغم من الفائدة التى تبدو عند اللجوء إلى التكميم فى البحوث الكيفية ، إلا أن البحوث الكيفية فى حد ذاتها هى بحوث مهمة فى تحديد الاختلافات والتمايزات فى الموضوع الواحد .

المراجع

١ - Krueger, Richard A., Focus Groups. A Practical Guide For Applied Research, Sage Publications, The International Professional Publishers, U.S.A, 1988, p.14.

٢ - Ibid, pp. 23- 28-37.

٣ - Templeton, Jane Farley., Focus Groups. A Guide For Marketing and Advertising Professionals, Probus Publishing Company, Chicago, Illinois, 1987, pp. 3- 5.

٤ - Dietz, Stephen K., Quantitative Estimation Using Focus Groups, The Annual Meeting of the American Association of Public Opinion Research (AAPOR), MAy 18, 1992. p.1.

٥ - Templeton, op.cit., p. 4- 5.

٦ - Ibid, pp. 4- 5- 39- 40.

٧ - Bengston, Roger E., Despite Controversy, Marketing News, 19 September, 1980, pp.18-25.

٨ - Krueger, op. cit, pp.18- 19.

٩ - Rice, Stuart A., Methods in Social Science., Chicago, University of Chicago Press, 1931, p. 561.
Merton, Robert. K. & Fiske, marjorie & Kendall, Patricia L., The Focused Interview, Glencoe, IL: Free Press, 1956.

١٠ - Krueger, op. cit., p. 19.

١١ - Templeton, op. cit., p. 49.

١٢ - Merton, Robert K. The Focussed Interview And Focus Groups. Continuities and Discontinuities, Public Opinion Quarterly, Vol. 51, The American Association for Public Opinion Research, The University of Chicago Press, 1987, pp. 550-556.

١٣ - Ibid, pp. 550-556.

١٤ - Krueger, op. cit., p. 20.

١٥ - Ibid, p. 20.
Beck. Leif C., Trombetta, W.L., & Share, S., Using Focus Group Sessions before decisions are made. North Carolina, Medical Journal, 47 (2), 1986, p. 73- 74.

١٦ - Krueger, op. cit., p. 176.

١٧ - Ibid, p. 20- 21.

١٨ - Dietz, op. cit, p. 2.

١٩ - Merton, op. cit., pp. 557-558.

٢٠ - Williams, Jean Morton., Unstructured Design Work. In: Hoinville, Gerald and Roger, Jowell.,(eds.) Survey Research Practice, Heinemann Educational Books, London, 1978, pp. 9-12.

Teylor, S.J & Bogdan, Robert., Interoduction to Qualitative Research methods, A Wiley Interscience Publication, John Wiley & Sons, Second edition, New York, 1984, pp. 106-112.

٢١- Templeton, op. cit., p. 44.

٢٢- Belson, William A., Validity in Survey Research, Gower Publishing Company Limited, Great Britain, The University Press, Cambridge, 1986, pp. 531-533.

٢٣- Templeton, op. cit., p. 157- 158.

٢٤- Merton, pp. 555-557.

٢٥- Krueger, op. cit., pp. 37-39.

٢٦- Dietz, op. cit , p. 1.

٢٧- Ibid, p. 1- 2.

٢٨- Krueger, op. cit., 177.

٢٩- Templeton, op. cit., pp. 6-13.

٣٠- Williams, op. cit., p. 18.

٣١- Dietz, op. cit., p. 6.

٣٢- Belson, op. cit., p. 532- 533.

٣٣- Krueger, op. cit., p. 28.

٣٤- Williams, op. cit , p.18.

٣٥- Templeton, op. cit., p. 47, 48.

٣٦- Belson, op. cit.p. 532- 533.

٣٧- Krueger, op. cit., p. 109.

٣٨- Dietz, op. cit., pp. 6-11.

٣٩- Krueger, op. cit., p. 18- 28.

٤٠- Templeton, op. cit., p. 7.

٤١- Ibid, pp. 11- 16- 28.

٤٢- Williams, op. cit. p.18.

٤٣- Templeton, op. cit., pp. 28- 31.

٤٤- Dietz, op. cit., p. 8.

٤٥- Templeton, op. cit., pp. 33- 44.

٤٦- Krueger, op. cit., p. 109.

Abstract

THE FOCUS DISCUSSION TECHNIQUE: DEFINITION, METHODOLOGICAL AND APPLIED PROBLEMS

Nagwa Khalil

The focus group discussion technique differs from other group interactions techniques, e.g., delphi processes, nominal groups and brainstorming which search basically for the group consensus of experts and knowledgeables with the aim of reaching specific solutions for problems.

The focus group discussion technique is used to determine the opinions, feelings, attitudes and perceptions of the people.

It accentuates any differences, various agreements or any proposed solutions to the problems. It also shows the internal homogeneity of the comments, and the shift in individual opinions during the discussions.

It is one of the qualitative techniques which depend on interaction and spontaneity in expressing opinions and influencing others. There are current attempts to quantify it. Yet, it is basically used as a pilot study for a quantitative research that enables the academic researcher to make generalizations.

الوضع الحالى لفلسفة العلوم*

تحت إشراف جون هامبرجر

عرض نقدى

علا مصطفى**

أصدرت هذا الكتاب أكاديمية العلوم بباريس بهدف التقريب بين العلماء والفلاسفة ، ومحاولة الالتقاء فيما بينهم حول مجموعة من القضايا . وتدور هذه القضايا حول المناهج ، وقيمة المعرفة العلمية وحدودها . ذلك أنه لم يحدث إجماع بعد حول كثير من قضايا العلم التى تدخل فى إطار الإبستمولوچيا ، أو نظرية المعرفة ، ومن هنا أهمية الحوار بين العلماء والفلاسفة .

وقد اتخذ الكتاب شكلا غير تقليدى . فالعالم أو الفيلسوف يعرض آراءه حول قضية محددة ، ثم يدور النقاش بين مجموعة واسعة من العلماء والفلاسفة حول الموضوع ، يشترك فيه أيضا صاحب الآراء المطروحة . وقد يضاف إلى النقاش مراسلات متبادلة بين عالم أو فيلسوف وبين صاحب القضية المطروحة ، وبينهما وبين المشرف على نشر الكتاب .

ويبدأ الكتاب بتمهيد بقلم المشرف ، يعقبه مقالان لاثنين من العلماء . الأول عنوانه : "المنهج التجريبى : أسطورة فلاسفة العلم (والعلماء)" ، وكاتب المقال هو رينيه توم . والمقال الثانى عنوانه : "النظرية أم التجربة : جدل قديم" ، وكاتب المقال هو اناتول ابراجام . يلى ذلك مناقشات ومراسلات حول الموضوعين المطروحين . والمقالات الثلاثة التالية بقلم فلاسفة . المقال الثالث عنوانه : "تساؤل حول الفلسفة

* La Philosoplie des Sciences Aujourd'hui. Sous la direction de Jean Hamburger. Paris, Académie des Sciences, 1986.

** خبير أول ، قسم بحوث التعليم والقوى العاملة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

التحليلية للعلوم ؟ ، وكاتبه هو بيير چاكوب . والمقال الرابع عنوانه : "من أجل ابستمولوجيا للعمل العلمى" ، وكاتبه هو چيل چرانچيه . والمقال الخامس عنوانه : "علوم الإدراك" ، وكاتبه هو دانييل ادلر . وقد أعقب كل مقال من المقالات الثلاثة مناقشات حول كل موضوع مطروح . وينتهى الكتاب بمقال سادس وأخير عنوانه : "التجربة والمنهج" ، وكاتبه هو انطوان دانشان .

فى *التمهيد*الذى كتبه چون هامبرجر المشرف على إصدار الكتاب وعضو أكاديمية العلوم ، يوضح هدف الأكاديمية من التقريب بين العلماء وفلاسفة العلم من خلال الحوار والنقاش ، حيث أنه حدثت فرقة بينهما . كما يمكن للعلماء المعاصرين أن يقدموا معطيات جديدة للفلاسفة تصلح كموضوعات للتفكير ، وتصلح هذه المعطيات فى وضع القضايا الفلسفية التقليدية محل تساؤل . وفى رأى هامبرجر أنه توجد مشكلة أزلية هى : ما معنى المعرفة التى لدينا عن العالم الخارجى ، وما هى طبيعتها وما حدودها ؟

لقد بدأ تاريخ البحث العلمى المعاصر عندما تم وضع الهندسة الإقليدية والطبيعة النيوتونية محل تساؤل . وفى اليوم الذى نشأت فيه هندسة لا اقليدية ، وفيزياء النسبية ، وفيزياء الكم اتضح أن الواقع يمكن أن ينفصل عن الأبنية المرتبطة بإدراكاتنا ومقاييس حياتنا اليومية . فهناك عوالم تتحطم فيها المفهومات المكانية والزمانية للعالم المشترك أو العالم اليومى المرئى أمام العين المجردة . وكذلك تعرضت العلوم البيولوچية والطبية لهزة فكرية مشابهة . وهناك ملاحظة تبدو اليوم بديهية وهى أن الاستكشاف العلمى للعالم لاحدود له ، إلا أنه فى الوقت نفسه يخلو من أمل فى التوصل إلى "واقع" مستقل عن الملاحظ ، وعن مناهجه ، وعن مقاييس ملاحظته .

إن الفلاسفة والشعراء بينوا لنا العجائب التى نستطيع من خلالها أن نخترق حدود العقل ، ونجد إجابات على حاجتنا إلى التجاوز . والعلماء لا يقلون حساسية عن الآخرين ، والفلسفة الوحيدة التى تبدو لهم مبهمة هى التى تريد خلط كل أنواع المعارف . وإن كافة الألعاب ممكنة بشرط أن نقوم بتعريف قواعد اللعبة قبل اللعب . إن رجل العلم يخضع للمصادرات التى بدأ منها ، ومن هنا فهو لا يريد ادعاء أنه يتناول العلم عندما يكون بصدد بحث الحقائق المطلقة .

فى المقال الأول : "*المنهج التجريبى : أسطوره فلاسفة العلم (والعلماء)*" يوضح الكاتب أنه لايوجد منهج تجريبى وأنما توجد الممارسة التجريبية . وجذور

هذه الممارسة سابقة على العلم ، فقدا اهتمت البشرية مبكرا بالتأثير على بيئتها المحيطة ، كما مارس أسلافنا منذ العصر الحجرى شكلا من أشكال التجريب . هذه الممارسة التجريبية ليست فقط مشروعة وإنما أيضا لا يمكن تفاديها ، حيث تقع ضمن مراحل تطورنا ، وخاصة رغبتنا فى تحرير الجنس البشرى من معوقات البيئة المحيطة والوسط الخارجى .

ويتحدث الكاتب عن التجربة وخطوات تحقيقها حتى تصل إلى ما يسميه الواقعة التجريبية . وكى تكون هذه الواقعة علمية لابد من توفر معيارين : أن تكون التجربة قابلة للتكرار ، وأن تتضمن فائدة معينة . بالنسبة للمعيار الأول ، لابد أن تتضمن خطوات إعداد التجربة دقة وتفصيلات تسمح بإعادة التجربة فى أماكن أخرى وأزمنة أخرى . بالنسبة للفائدة التى لابد أن تحويها فتنقسم إلى نوعين : فائدة عملية ، وفائدة نظرية .

وتكمن المشكلة فى أنه لا يكفى أن يوجد لدينا هدف محدد بوضوح من أجل أن نصل إليه عن طريق التجريب وحده . ففى كثير من المواقف التكنولوجية نكون بصدد "إحداث" ظاهرة طبيعية ، أو على العكس "منعها من الحدوث" (فأحيانا - كما هو الحال بالنسبة للانصهار النووى - لابد من إحداث الظاهرة ومنعها من الانتشار ، وهما مطلبان متعارضان) . وسواء كنا بصدد "إحداث" ظاهرة أو منعها ، فإننا نواجه تحليلا سببيا لشروط وقوع الظاهرة . لقد ظن فرانسيس بيكون مؤسس المنهج التجريبى أنه يستطيع تأكيد استخدام التجريب كى يصل إلى التحليل السببى لكل ظاهرة ، وهو ما يرفضة رينيه توم ويعتبره وهما ، ذلك أن التجريب بمفرده غير قادر على اكتشاف أسباب الظاهرة : ففى كافة الأحوال لابد من إطالة الواقع بواسطة المتخيل ، وهذه القفزه نحو الموضوع الخيالى هى عملية ذهنية أساسا ، ولا يمكن التوصل إليها بواسطة أى جهاز من الأجهزة . وقد رأى كلود برنار هذا بوضوح . ويعنى هذا بعبارة أخرى أنه كى يكون للتجريب دلالة عملية فأنه لا يستغنى عن التفكير .

ويؤكد توم على أن المنهج الوحيد المقبول فى مجال التجريب لابد أن يمر بالتحليل السببى للظواهر المدروسة . ويوجد فى العلم نوعان من التحليل السببى : الأول نو منظور أرسطى يقوم على تفسير الظاهرة بواسطة عامل مسئول ، والثانى رياضى وفيزيائى يقوم على الإحالة إلى نسق يتحدد بواسطة شروط مسبقة .

ويصل توم فى النهاية إلى القول أن التجربة تحركها حاجة عملية مباشرة (مثلا اختبار خواص مادة ما ، فى ظل شرط أو آخر) ، أو يحركها فرض يكون ثمرة لخبرة عقلية ، والمراد التحقق من صلاحيته فى الواقع . ويعنى هذا أن كل تجربة هى إجابة على تساؤل أو سؤال ، وإذا كان السؤال سطحيا تكون الإجابة كذلك .

وفى رأى توم أنه إذا كان يوجد فى العصر القديم تقليد يقول إنه يجب إنقاذ الظواهر من الإتجاه الانطباعى غير المضبوط للعلماء ، فأنه حاليا لابد من إنقاذ الفكر من السلطة المبالغ فيها للتجريب .

وفى مواجهة المقال الأول يقف المقال الثانى بقلم اناتول ابراجام ، تحت عنوان : "*النظرية أم التجربة : جدل قديم*" . ويقول ابراجام منذ البداية أنه كان دائما متمردا على الفلسفة وعلى مناهجها ومفرداتها اللغوية ، ولذا لم يستشعر الحاجة إلى تعريف مفهومات التجربة والنظرية ، وهى تشكل وجوده اليومى والعلمى . فإذا اضطر إلى الافصاح فأنه يقول : إن التجربه نشاط يدور فى المعمل ، وتتمثل أساسا فى تأكيد أو نفى آراء مسبقة ، وإعطاء آراء جديدة ، وتحسين مناهجها وطرقها الخاصة . بينما تتمثل النظرية فى تنظيم مجموعة من الأفكار ، تتم مواجهتها مع التجربة ، أو سيتم ذلك فى مرحلة لاحقه .

ويعتقد المؤلف أنه لايوجد فى العلم الحديث صراع بين النظرية والتجربة : بعض الناس يتولى دراسة النظرية ، والبعض يتولى دراسة التجربة ، وقلة تتناول الاثنين ، والعلم يحتاج الجميع . ويقول مع كارل بوپر أن الفرض الذى لايمكن تصور إثبات خطئه عن طريق التجربة ليس بفرض علمى ، ويرى أن فلسفة بوپر لها قيمتها ، وهو مارفضه توم فى مقاله السابق مدعيا أن فلسفة بوپر محدودة .

ويواجه المؤلف - فى مقالة - رينيه توم ، فيحاول أن يثبت - من خلال تاريخ العلم الحديث - أن الدور المتواضع والمتدنى الذى نسبه توم إلى التجربة لايتطابق مع الواقع . وباعتباره فيزيائيا فإنه يتحدث عن الفيزياء التى يتقنها ، ويرى أننا إذا حللنا تاريخ التقدم فى الفيزياء ، ابتداء من عام ١٩٠٠ وحتى اليوم ، فسنجد أن النظرية والتجربة دائما مرتبطان . ويحدث أحيانا أن مجموعة نتائج تجريبية ، غير مفهومه فى إطار الأفكار السائدة ، تجبر المنظر على صياغة نظرية جديدة . ويعطى مثالا على ذلك بماكس بلانك عندما أعلن عن نظرية الكم التى قلبت الفكر العلمى للعصور الحديثة . ويذكر ابراجام أمثله أخرى لعلماء عديدين ، من أشهرهم اينشتين .

ويؤكد ابراجام على تلازم النظرية والتجربة فى تطور الديناميكا الكهربائية الكمية ، مما أدى إلى النجاح الكبير لفيزياء عصرنا الحالى . كما يعطى أمثلة أخرى من تخصصه الدقيق ، وهو المغناطيسية النووية ، حيث لايوجد مجال لأى نظرية لاتستطيع التجربة اختبارها . كما لايوجد مجال لنتيجة تجريبية يغيب فيها التفسير النظرى .

ويرى المؤلف أن رينيه توم ، فى مقاله السابق ، كان متحاملا بشكل كبير على العلماء الذين يقومون بالتجربة ، ويحذر من أن آراءه تغلب النظرية والقائمين بالتنظير وترفض القائمين بالتجريب . بينما يرى المؤلف أن نجاح علم الفيزياء الفرنسى يرجع فى المقام الأول إلى أن بعض العلماء احتكوا بالفكر الإمبريقى الانجلو ساكسونى ودرسوه لطلبتهم . ومن هنا فقد استطاعوا أن يواكبوا العصر الذى يعيشونه ، بينما فى رأيه أن دعوة رينيه توم تعيد عقارب الساعة إلى الوراء .

وقد دارت حول المقالين مجموعة من المناقشات والمراسلات ، بعضها يؤيد أحد الأطراف ، والبعض يؤيد الآخر ، ويضيف البعض آراء جديدة . وسنحاول أن نعرض أكثر هذه الآراء أهمية فيقول جان هامبرجر - وهو بيولوچى وطبيب - بأنه يشعر بالأسى ؛ لأن توم يريد منا أن نقبل فكرة أن المنهج التجريبى أسطورة . فهو يرى ، على العكس ، أن أى تطور عظيم حدث فى القرن العشرين ، فى مجال العلوم البيولوچية وبالنسبة للأطباء ، هو نتيجة ثورة عميقة فى مناهج البحث وفى مناهج التفكير . وقد عرف كلود برنار هذا فى كتابة : "مقدمة لدراسة الطب التجريبى" . وهذا هو ما أعطى للبيولوچيا والطب مكانة علمية لم تكن موجودة من قبل . وهذا المنهج التجريبى لايقتصر على إجراء التجربة ، لأن هذا سوف يعنى - كما قال توم - أننا بصدد ممارسة وليس منهجا ، فالفكر النظرى يلعب دورا لايقل أهمية عن دور التجربة .

ويود هامبرجر أن يضيف إلى عبارة توم التى تقول "إن المعطيات التجريبية لابد أن يكون لها معنى" عبارة أخرى : "إن نتائج التجربة لاتحمل معنى ، إلا إذا كانت إجابة على فرض نظرى سبق وضعه" . وهو يرى أن توم على حق فى نقده لمن يقوم بالتجارب دون تخطيط ، لمجرد الوصول إلى تراكم معطيات وقائعية . والمنهج الذى يقترحه هامبرجر يتمثل فى التزاوج بين المنظورين فى توازن . فالعلاقة هى حوار ، ولايتمثل هذا الحوار فى مجرد فرض نظرى تتبعه تجربة لمعرفة ما إذا كان الفرض على صواب أم لا ، وإنما نجد أن نتائج التجربة تؤثر

بدورها على مسار الفكر ، وتغيره ، وتوجهه ، وتقترح عليه تجارب جديدة تساهم بدورها فى تطوير المنحى النظرى المتعلق بالمشكلة . والحوار المشار إليه يضيف عاملا أساسيا متمثلا فى أن التفكير النظرى يفقد بعضا من غروره ، حيث يتعلم الباحث أن ينحنى أمام نتائج المعطيات التجريبية .

وإذا انتقلنا إلى عالم آخر نجد أن روجيه جوتريه يثير نقطتين متعلقتين بالموضوع الرئيسى . الأولى تتعلق بحدود النظرية ، وتدل الأمثلة على أنها ضيقة للغاية . فقبل اكتشاف النشاط الإشعاعى لم تكن أى نظرية قادرة على التنبؤ بأن هذا سيحدث ، وقد تحقق ذلك ، كما توجد أمثلة أخرى من البيولوچيا . ذلك أننا نجد ، فى تاريخ العلم ، حالات كثيرة ، حيث شكلت الاكتشافات نتيجة ما أسماه كلود برنار "التجارب غير المتوقعة من حيث النتائج" ، والخالية من الأفكار المسبقة . وعلامة العبقرية أن يجد المرء شيئا لم يبحث عنه . والنقطة الثانية التى يثيرها تتعلق بحدود التجريب والتأويلات التى تنشأ عنه . فأحيانا يقوم الفيزيائيون بتجارب معقدة للغاية ولايستطيعون تأويلها ، فيحدث أن توضع تأويلات غير موثوق منها . ويتوقع جوتريه أن يختفى هذا مستقبلا ، ومانتعلمه اليوم هو أن نكون متواضعين فيما يختص بالنظرية والتجريب .

وفى خطاب أرسله بول چيرمان ، يعرض رأية إزاء المقالين وإزاء المناقشات. فيثير فى البداية المشكلة الابستمولوچية ، فيتحدث عن المنهج التجريبى مبينا انه ليس معيارا على الاتجاه العلمى ، إلا أنه أداة ضرورية فى مرحلة ظهور نظام علمى لم ينضج تماما بعد . أى أن المنهج العلمى لايضمن دقة القوانين فى نسق ما (مثلا فيزياء القرن العشرين) . ويفهم چيرمان بواعث رينيه توم عند رفضه لإمكانية وجود معيار للعلمية ، كما يتفهم رغبته فى إعلان وحدة المعارف الإنسانية واستمراريتها . إلا أنه يجد أن هذه الرغبة مصدر للغموض ، وممكن أن تؤدى إلى نتائج وأخطاء خطيرة . ففى رأية أن كل مجال لابد أن يتحدد ويتعين مكانه وسياقه ، مما يشير إلى ضرورة وجود معيار ، حتى لو كان تقريبيا .

ثم يثير بول چيرمان موضوعا آخر هو أهداف النشاط العلمى . فهنا يؤيد رينيه توم ، ذلك أن توم قد بين أن أهداف العلم ليس هو تراكم المعارف بقدر ما هو الوصول إلى إنشاء أشكال جديدة وأبنية جديدة للفكر . ومن هنا فإن البحوث العلمية تهدف إلى الاستجابة لمطلبين : الأول هو اكتساب المعارف كى تشبع حاجات البشر ، والثانى هو تكوين جسم نظرى . وهذا لايتعارض مع الطريقة

الشخصية التى يرى بها الباحثون الأشياء .

أما الموضوع الثالث الذى يثيره بول چيرمان فهو نتائج الجدل حول السياسة العلمية . فهو يرى أنه يمكن التوفيق بين الاتجاهين . فإذا كان توم يحذر من الإغراق فى البحوث التجريبية وينصح الباحثين الشباب بالالتفات إلى الأهداف الحقيقية للبحث ، والتى لاتنحصر فى مجرد تجميع النتائج ، وإذا كان ابرجام رأى أن موقف توم يتضمن خطورة على الباحثين ، حيث إنه قد يوجههم نحو أنشطة نظرية خالصة تجعلهم يفقدون الاتصال بالتجربة ، فإذا كنا بصدد هذين الموقفين ، فإن بول چيرمان يقبل التحذيرات التى يطلقها الاثنان ، ويقول بالتكامل بين الموقفين .

وقد أضاف جون هامبرجر فى الخطاب الذى أرسله إلى بول چيرمان توضيحا آخر يتعلق بالمنهج التجريبى . فالأمر لايتعلق فقط بإجراء التجارب ، وإنما نحن بصدد دراسة مناهج دقيقة للتفكير وتطبيقها . والتفكير يمكن أن ينشأ عنه تجارب أو يكون نتيجة لتجارب تم إجراؤها . ففى رأى هامبرجر أن المنهج التجريبى هو فن من فنون الذكاء ، دقيق وصعب ، ويحتاج وقتا لدراسته وتدريسه . وهو فن أتاح للبيولوچيا والطب الفوز فى جميع المعارك ، ومن الخطأ أن نعتبر هذا النجاح نتيجة وحيدة لتراكم التجارب .

وفى مقال بيير چاكوب وعنوانه : "*تساؤل حول الفلسفة التحليلية للعلوم*" ، يطرح المؤلف سؤالا هاما للغاية بالنسبة لفلسفة العلوم ، وهو : كيف نحدد فى صورتنا عن العالم الجزء الذى يرتبط بالعالم والجزء الذى يرجع إلينا ؟ ويلاحظ المؤلف أن هناك نوعين من الإجابات : إجابة سلبية ، وأخرى إجابية . الأولى منشؤها نفعى برجماتى ، وترجع إلى عالم المنطق فيلار فان أورمان كوين . وتقف وجهة نظر كوين الطبيعية ضد فلسفة المنطق والرياضيات الخاصة بأصحاب الوضعية المنطقية ، وخاصه كارناب ، الذين يرون أن هناك اختلافا أساسيا بين القضايا المنطقية والرياضية بين جهة ، وقضايا العلوم التجريبية من جهة أخرى . والإجابة الثانية ومنشؤها واقعى ، فإنها تصدر عن عالم المنطق سول كريبك ، وتستند إلى كل ماتقدمه فلسفة اللغة . وتقف نظرية كريبك ضد وجهة النظر التى يتبناها معظم الفلاسفة منذ فريجة ، وراسل (مؤسس الفلسفة التحليلية) ، حيث يؤكد كريبك على وجود علاقة مباشرة بين بعض أجزاء اللغة الإنسانية وبعض مظاهر الواقع .

ويرى المؤلف أن التراث المثالى الألمانى ، ابتداء من الحرب العالمية الثانية ، وضع الفلاسفة الفرنسيين أمام معضلة تتمثل فى : الثورة ضد العلم أو الإخلاص للتاريخ وعلم الاجتماع . بينما كان حلم أنصار الوضعية المنطقية هو التوفيق بين دور التجربة والملاحظة فى علوم الطبيعة وبين وجود الحقائق المنطقية والرياضية . ويرى چاكوب أن فلسفة العلوم الحديثة قد تأثرت بشكل كبير ومفيد بفلسفة اللغة . فإذا كانت مرحلة مابعد الكانتيه قد قسمت الفلاسفة إلى نوعين ، يسميهم چاكوب الرومانسيين من جهة والعقليين من جهة أخرى ، فإنه يؤيد المجموعة الثانية . إذ أنه يرى أن هؤلاء الفلاسفة كانوا حريصين على تبادل المناقشات العقلية ، وعلى ارتقاء علم الدلالة .

وإذا كان علم الدلالة يقدم للفلاسفة إطارا منهجيا إلا أنه لايضمن الاتفاق حوله . فنجد فريقين : الأول ، مثل فنجشتاين وكارناب يقولان بوجود ثنائية بين الفلسفة والعلوم ، أو بين الموضوعات المتعلقة باللغة والموضوعات المتعلقة بالعالم . وهنا يكون دور علم الدلالة هو استبعاد الخلط المنطقى الناشئ عن الميتافزيقا . بينما الفريق الثانى ويمثله راسل واوستن وكوين ، فإنهم يرون أن الفلسفة تقع فى المنطقة الأقل اهتماما بالتجارب فى نطاق العلم ، ولذا يميلون إلى النظر إلى علم الدلالة باعتباره يقدم أدوات علمية تتيح الموضوعية . ويعطون مثالا بمساهمة اينشتين فى الفيزياء ومبدأ النسبية .

ويطرح چاكوب مشكلة المنهج التجريبى . وقد اعتبر الفيلسوف دافيد هيوم هو أبو فلسفة العلوم المعاصرة ، ويرجع إليه فضل صياغة وطرح المشكلة الاستقرائية ، حيث بين أن الاستقراء ليس له تبرير منطقى . وكانت هذه نقطه انطلاق الفلسفة الحديثة للعلوم ، كما أوضح أهمية المقدمة الاستنباطية . ويعتبر كارل بوبر من أهم الفلاسفة المعاصرين المؤيدين للمقدمة الاستنباطية ، حيث رأى أننا نفكر دائما بطريقة استنباطية (من النتيجة إلى المقدمات) ، وليس بطريقة استقرائية (من المقدمات إلى النتائج) . كما أن بوبر اهتم بالمنهج السلبى القائم على تفنيد النظريات العلمية ، وهو مايضعه فى مواجهة الوضعية المنطقية .

ويعتبر توماس كون وبول فيراباند ورثة التيار الذى أسسه كارل بوبر . ويرى چاكوب أن غياب فلسفة اللغة لديهم هو السبب فى ضعفهم . ويؤكد أن التيار التجريبى الذى أسسه ودافع عنه هيوم يستمر مع أنصار الوضعية والتجريبية المنطقية . ويؤكد هؤلاء على أن معرفتنا بالعالم الخارجى تشتق من الخبرة

الحسية ، بينما الحقائق الخاصة بالمنطق والرياضيات لاتدين بشئ لتلك الخبرة الحسية .

وقد استعرض چاكوب نظرية المراجعة لدى كوين . لقد راجع كوين اتجاهات وتيارات استقرت منذ القرن السابع عشر . فمنذ الثورة العلمية فى القرن ١٧ ميز الفلاسفة بين نوعين من الحقائق : الأولى هى الحقائق الضرورية التى يشكل نفيها تناقضا . وهى الحقائق الصادقه فى العالم الواقعى وكل العوالم الممكنة ، كما يمكن معرفتها "قبليا" ، دون الرجوع إلى التجربة والخبرة . وتتمثل هذه فى حقائق المنطق والرياضيات . بينما تضم الفئة الثانية الحقائق المحتملة التى لايشكل نفيها أى تناقض ، والتى يتم التأكد منها بالرجوع إلى الخبرة والتجربة ، وهى التى يمكن معرفتها "بعدياً" ، كما أن صدقها ليس راسخا مثل حقائق الفئة الأولى . وقد أسماها ليبنز حقائق الواقعة ، وهى تلك الحقائق التركيبية الخاصة بالعلوم التجريبية . وقد رأى كوين أن كافة القضايا قابلة للمراجعة ، حيث إن هذه المراجعة تدخل تبسيطا على النسق العام للعلم . ويعنى هذا أن الحقائق المنطقية تخضع لما تخضع له الحقائق الكونية أو البيولوچية .. أى لايوجد اختلاف بين ماهو قبلى وما هو بعدى .

وباختصار فإن المؤلف يرى أن الفلسفة التحليلية لم تأخذ مكانتها فى فرنسا ، فمن ناحية يتشكك فيها العلماء باعتبارها تضع مشكلات غير قابلة للحل ، ومن ناحية أخرى ينظر إليها الفلاسفة باعتبارها تخلت عن الأسئلة الهامة . ولكن چاكوب يرى أن الوقائع التى تتعامل معها الفلسفة التحليلية ليست لها صلابة الوقائع التجريبية ، إلا أنها تتمتع بدقه الخبرات الفكرية . وفى كافة الأحوال تستحق الاهتمام من جانب الفلاسفة والعلماء .

وفى المناقشات المثارة حول هذا المقال يتساءل اناتول ابراجام ما إذا كان الفلاسفة يميزون بين المعطيات الإمبريقية والتجريبية من جهة ، والاستدلالات المنطقية من جهة أخرى ، وكيف يمكن تبرير هذا التمايز ، أليس المنطق نتاجا للمخ ، الذى هو بدوره من المعطيات الإمبريقية ؟ ويتحدث چان ليرى باعتباره عالم رياضة عن العلاقات بين العلوم التجريبية والعلوم الرياضية . فيعترض على مايقال من أننا لانحتاج إلى الرياضيات كى نعلن أن الضؤ ينتشر فى خط مستقيم ، فهو لايفهم كيف يقال هذا بينما الخط المستقيم مفهوم رياضى . إنه يرى أن الملاحظات والرياضيات بينهما روابط لاتنفصم ، ويحدث أحيانا أن يخصص المرء

وقته لمجال منهما ، إلا أن الوضع فى غالبية الأحوال هو الارتباط بين العلوم التجريبية والعلوم الرياضية .

وفى مقال بعنوان "*من أجل ابستمولوچيا للعمل العلمى*" يحدد چيل جرانچيه هدفه ، وهو تقديم تصور لفلسفة العلوم ، ولايدعى أنه التصور الوحيد السليم ، ولكنه يزعم بأنه يتفادى سلبيات التصورات الأخرى . ويعرف جرانچيه فى هذا السياق "العمل" ، ولايعنى به أشكاله المحددة اجتماعيا ونفسيا بناء على معرفة موضوعية ، وإنما يقصد به خلق مواجهة بين الشكل والمضمون داخل خبرة لم تكتمل بعد وتحتاج لهذه المواجهة . وبهذا المعنى تكون الأعمال العلمية والأعمال الفنية نتاجا لهذا المفهوم ، ويكون العمل نوعا من الألعاب الجادة ، ويكون دور الابستمولوچيا هو وصف الأجزاء المتعاقبة ، واستخراج القواعد الكامنة واقتراح المعنى .

ويرى المؤلف أن فلسفة العلوم لاتختلط بتاريخ العلوم ، فهى تنظر إلى العلم باعتباره واقعة ، ولاتنسب إليه صورة مثالية أو توالى لأمثلة منفصلة عن سياقها . ومن الملائم دائما ألا نوحد بين الواقعة الابستمولوچية الخالصة والوقائع الخاصة بعلم النفس والتاريخ الحميم للعالم . كما أن سرد الاكتشاف العلمى لايعتبر من الأولويات التى تهم الإبستمولوچى ، بل أن اهتمامه يتركز حول كشف البنية التصورية لنظرية معينة أو أعمال معنية ، ليست جلية باستمرار ، ولا حتى بالنسبة لمبدعها . إن التاريخ هام ، وتاريخ العلوم لايعتبر تسلسلا خارجيا لوقائع متتالية ، وإنما يوجد جدل داخلى بين الأنساق العلمية . ومما لاشك فيه أن حركة العلم وتطوره يعتمد على الظروف الاقتصادية والسياسية والأيديولوچية السائدة فى مجتمع معين . وهى ظروف تقف على حدود العمل ، حسب المعنى الموجود لدى الرياضيين ، فلا تحدد تتابع المفهومات أو شكل النظريات ، ولكن تحدد ظهورها .

ويطرح المؤلف فكرة أخرى فى فلسفة العلوم هى : إلى أى مدى يمكن أن نتحدث عن وحدة العلوم تحت أشكالها المختلفة وتفاوت مستوياتها ؟ فإذا كانت الوحدة تدور حول الموضوع ، فإن التحليل المنطقى التاريخى للأعمال العلمية لن يتغير . أما إذا كان الحديث عن الوحدة يتناول سبل الوصول إلى موضوعات العلم ، فسنجد تعارضا بين الواقعة والمناهج المتعددة ، وفشل فى محاولات الانتقال من مجال إلى آخر فى عالم الظواهر . والوحدة إذن هى وحدة الهدف ، وهى مفتوحة على المناهج المختلفة ، وتعمل الابستمولوچيا على كشف خصائصها .

ويوجد أكثر من طريقة لتناول نفس المجموعة من الظواهر ، ووضع طرق الملاحظة ، وإقامة النماذج المجردة ، كما توجد طرق عديدة لإقامة الموضوعات الرياضية .

وفى مواجهة وحدة العلم ، ظهر حديثا تيار يقول بالفوضى المنهجية وحسب هذا التيار فإن كل الطرق لتقديم الوقائع وتفسيرها صالحة ، ولابد للمجتمع أن يؤيدها . ومن ضمن ممثلى هذا التيار فيراباند . ويرى جرانچيه أن قضية وحدة العلم التى يقدمها لاتغفل إطلاقا تعدد الموضوعات والمناهج ، بل تستدعى ابستمولوچيا مقارنة . وتقف هذه الابستمولوچيا المقارنة فى مواجهة نظرية النماذج paradigmes ، التى ترى أن حالات العلم تتتابع ، فتحل حالة محل أخرى، بحيث لايوجد أى اتصال ممكن بينها . فمثلا لايوجد أى صلة بين الميكانيكا التقليدية والميكانيكا النسبية . ويرجع إلى توماس كون - بعد چاستون بشلار - الفضل فى التأكيد على الطابع الشمولى لتحول النظريات الكبرى ، وعلى المعنى الجديد تماما التى تتخذه المفهومات عندما تعمل كجزء من نسق جديد . ولكن چرانچيه يتساءل : كيف يمكننا أن نقبل أن تقوم نظرية جديدة على أنقاض نظرية قديمة مقطوعة الصلة بها بحيث لايمكن لمفهومات النظرية القديمة أن تترجم وتؤول فى النسق الجديد ؟

ويرى چرانچية أن الابستمولوچيا بالرغم من أنها تتناول العلم ، إلا أنها لاتصلح أن تكون علما للعلم فتتعامل معه كموضوع ، ذلك أنها تبحث عن المعنى ، فهى تسعى إلى إلقاء الضوء على مايتعالى على الخبرة أو يسبقها بشكل ما ، وتهتم بما يقوله العلم عن العالم من حيث إنه يرجع إلى موضوعات وليس إلى انطباعات وهنا يتبلور دور الابستمولوچى إزاء العمل العلمى فى محاولة تأويل آثار المتعالى ، وهنا يكون عمل الفيلسوف مشروعا تأسيسيا . وبناء على هذا كله فإن فيلسوف العلم لايقوم بدور القاضى أو المستشار أو النبى ، فهو لايستطيع سوى أن يحاول فهم معنى المعرفة العلمية ، ثم طبيعة المخاطر التى تواجهها ، ومحاولاتها التغلب عليها .

ولم تؤد المناقشات التى تناولت هذا المقال إلا إلى بعض الإضافات البسيطة . فمثلا جوستاف شوكية يرى أن المشروع الذى قدمه چرانچية ليس سوى نموذج بلغة العلم الحديث . إلا أن چرانچية فى رده على هذا التعليق رفض اعتبار مشروعه نموذجا . فالمشاكل التى يواجهها العلماء لاتحل بواسطة نموذج

محدد ، وذلك دون التقليل من أهمية النماذج . وتناول چان ليريه موضوعا آخر فى المقال ، فقد رأى أن التمييز بين الفكر العلمى والفكر السابق على العلم هام ، وقد تناوله بشلار من قبل . إلا أن چرانچية فى هذا الصدد ، وضع الفكر الإقليدى فى مواجهة فكر أرسطو ، معتبرا الأول علميا والثانى ليس كذلك ، بينما يرى ليريه أن الفكر الأول والفكر الثانى يتصفان بالجمود ، وهو مازلنا نعانى منه حتى اليوم .

فى المقال الخامس بعنوان "*علوم الإدراك*" يعرف داينيل ادلر منذ البداية مشروعه الإدراكى أو المعرفى . والظواهر الإدراكية تعالج فى مجالات عديدة ، نذكر منها علوم الجهاز العصبى ، والفيزياء النفسية ، وعلم النفس ، واللغويات ، والإعلام ، والميكانيكا ، وكذلك المنطق والفلسفة . ولكن منذ حوالى ثلاثين عاما شغل تخصصان المركز ، هما الذكاء الصناعى وعلم النفس الإدراكى ، وهذان الموضوعان هما موضوع المقال بأكمله .

وإذا كانت الفلسفة الغربية ترجع مصادرها إلى أفلاطون فإن أصول النظرية الإدراكية ترجع إلى هوبز الذى ينسب إليه أول صياغة لتلك النظرية ، فيقول : "إن التفكير هو الحساب" . ويرى المؤلف أن الفكر الإدراكى متأصل فى الفلسفة الحديثة . وإذا رجعنا إلى الوراء قليلا فسنجد أن النظرية الإدراكية المعاصرة نشأت بتأثير ثلاث أفكار رئيسية ابتداء من عام ١٩٣٠ . الأولى تختص باللغة أو النسق الشكلى ، وهى الموضوع الرئيسى فى المنطق الرياضى كما وضعه فريجه وراسل وهوايتهد وهيلبرت . ويعمل النسق الشكلى على مستويين : مستوى الشكل (علم النحو) ، ومستوى المعنى (علم الدلالة) . والفكرة الثانية التى قامت عليها النظرية الإدراكية تتمثل فى "آلة تورنج" machine de Turing ، وهى عبارة عن حاسب آلى . أما الفكرة الثالثة فهى الإعلام .

ويشغل الذكاء الصناعى مكانة هامة بالنسبة للعلوم الإدراكية . وهو مشروع علمى – تقنى هام ، بلغ درجات كبيرة من النجاح . ويرى البعض أن الذكاء الصناعى فى طريقه لإحداث أكبر انقلاب عرفه الجنس البشرى ، أحيانا ينظر إليه باعتباره مشروعا إدراكيا فى جملته ، فهو نظرية للإنسان ، ويتضمن الأنساق المهتمة بالظواهر الإدراكية ، مما يجعله يشكل علما شبيها بعلم الفيزياء . وأحيانا ينظر إليه باعتباره علم الأنساق الذى يتناول الإعلام . وأحيانا ينظر إليه على أنه تقنية أو فن أو علم خاص بالمهندس . وهنا يشكل مهارة إدراكية أو معرفية . ويرى ادلر أن الذكاء الصناعى – مهما كانت المدرسة التى ينتمى إليها أو الهدف الذى

يحركه – يخضع للوصف البسيط التالى : إنه يتمثل فى مهمة محددة يحتاج إنجازها إلى ذكاء إنسانى ، وهى عبارة عن كتابة برنامج يتيح للحاسب الآلى إنجاز المهمة ، بحيث يصل إلى نتائج شبيهة بالنتائج التى يتوصل إليها الإنسان . ويتمير البرنامج بأنه مزود بمجموعة من القواعد تتيح له إنجاز مراحل مختلفة ، بهدف الوصول إلى حل . ويقال عن مثل هذا البرنامج أنه كشفى .

وهكذا يتبلور الذكاء الصناعى فى ثلاثة فروض :

١ – يتمثل الموضوع الأساسى للنشاط الإدراكى فى حل المشكلات .

٢ – يوجد لدى الإنسان آليات عامة لحل المشكلات ، تنطبق على كل المجالات .

٣ – تظهر هذه الآليات من خلال ملاحظات أفراد يقومون بحل مشكلات مختلفة ، وعن طريق هذه الملاحظات توضع برامج كشفية تمكن الحاسب الآلى من أداء مهمته .

ويختلف علم النفس الإدراكى عن الذكاء الصناعى فى أن اللجؤ إلى الحاسب الآلى كأداة بحث ومراجعة ليس أمرا ضروريا أو مطلقا . وتقوم نقطة البداية فى علم النفس الإدراكى على ثلاث مصادرات :

١ – إنه توجد فى الواقع حالات عقلية ، وتدخل هذه الحالات فى عمليات عقلية .

٢ – للحالات العقلية وجود مادى ، باعتبارها حالات طبيعية ، مثلا عصبية .

٣ – يتبلور التفسير النفسى فى مستوى خاص به ، لايمكن أن يرد إلى مستوى التفسير الطبيعى (حتى لو كان هذا عبر البيولوچيا أو الكيمياء) ، فالقانون أو التعميم النفسى ينصب على العلاقات بين حالات عقلية محددة .

ويلاحظ المؤلف أننا عندما ننسب دورا تفسيريا إلى الحالات العقلية فإننا نعارض المدرسة السلوكية ، وعندما نؤكد على وجود مستوى للتفسير نفسى خالص فإننا نعارض مذهب الرد أو الإحالة الذى يحيل النفسى إلى الطبيعى . ويحدد أدلر مجموعة من الانتقادات التى تم توجيهها إلى النظرية الإدراكية ، وهى :

١ – إنها مفككة على المستوى التصورى .

٢ – إنها متعارضة مع الخبرة الفنومنولوچية (خاصة النتائج الخاصة بعلم النفس التجريبى ، وبالذات المستقاة من المدرسة الجشتالطية) .

٣ – إن النظرية الإدراكية متعارضة مع الواقع البيولوچى .

٤ – إنها متناقضة منطقيا .

وترتبط مشاكل النظرية الإدراكية بالمشاكل التى تعانى منها النظرية عامة . وبالرغم من ذلك فقد نتج عنها نشاط ابستمولوچى لدى العلماء والفلاسفة . بالنسبة للعلماء ، أكدت الدور الذى تلعبه المناهج فى تلك العلوم ، كما شجعت الاتصال بين المناحى المختلفة والتواصل فيما بينها . وبالنسبة للفلاسفة ، أدت إلى نوع من التجديد له أثره المستمر . وعلاوة على هذا فقد أكدت البحوث الإدراكية الاتجاه نحو التكامل والمنحى التكاملى . وهكذا فإن العمل الذى يقوم به باحثون مختلفون لايتجزأ إلى اجزاء نفسية أو لغوية أو بيولوچية أو فلسفية ..

وقد دارت المناقشات حول الذكاء الصناعى بصفة خاصة ، وإلى أى مدى يمكن للحاسب الآلى أن يقوم بدور فعال .

والمقال الأخير فى الكتاب بقلم انطوان دانشان ويحمل عنوان : "*التجربة والمنهج*" . وفيه يؤكد الكاتب على أن المنهج التجريبى موجود ، والنظرية لايمكن أن توجد بدون التجربة ، فلا معنى للتجريدات إلا فى علاقتها بالواقع الملموس الذى يؤسسها .

ويؤكد دانشان على أن التجربة والنظرية لاتنطلقان من فراغ . وقد تغيرت التجربة عبر التاريخ وغيرت من منهجها ، وعرفت كيف تستخدم مكتسبات الماضى ، سواء النظرى أم التجريبى . فلا يوجد تجربة بدون حد أدنى من النظرى .

ويوضح دانشان أنه على اتفاق مع رينيه توم فى أن المستوى الأول للتجربة هو مستوى استكشافى ، إلا أنه لن ينجح إلا إذا كان منهجيا . ويتمثل المستوى الثانى فى التصنيف ، وهنا أيضا لابد من وجود منهج معين . أما المستوى الثالث فيتمثل فى القياس ، ويمكن أن نبحث عن أصوله التاريخية لدى جاليليو .

إن الأحداث تتوالى فى التاريخ ، وهذا يجعلنا نقبل مؤقتا بعض الطرق الخاصة بإدراك الواقع وتصوره . ونطلق على الأسس المؤقتة التى نقيم عليها معرفتنا اسم المصادرات . إلا أن الواقع لايقبل الإدراك بشكل مباشر ، فيوجد دائما وسيط ، يتمثل فى البداية فى المعانى ، ثم فى اللغة . ويقع التفاعل مع الواقع فى شكل حركة مستمرة بين الوقائع والمعطيات الوقائعية وبين الصورة التى لدينا عن الواقع . ومن هنا فإن تأثيرنا على الواقع ، أى تجربتنا ، لابد أن تحدث بشكل منظم . ومن أجل ذلك نصوغ النظريات التى هى عبارة عن مجموعة من المصادرات والوقائع ، بالإضافة إلى النماذج . وفى هذه النماذج تؤل المصادرات

فى شكل مسلمات وتعريفات ، تنظم بدورها حسب قواعد المنطق أو نظرية الأعداد ، وتؤدى أحيانا إلى سرد للنظريات . ومن أجل الرجوع إلى الواقع مرة ثانية يتعين القيام بتأويل النظريات فى شكل تنبؤات تجريبية .

ومادامت نتائج التجربة لم تفند التنبؤ ، فإن النموذج يعد صورة مناسبة للواقع . ويلاحظ دانشان أن النموذج تأسس على الرياضيات لذا فإنه يكون إما على صواب أو على خطأ ، ولكن لايمكن تعديله أو إصلاحه . ولابد من الرجوع إلى المصادرات والمسلمات التى قام عليها . والخطأ الذى وقع فيه بوبر – من وجهة نظر دانشان – أنه خلط بين المصادرات والمسلمات ، وبين النظريات والتنبؤات التجريبية ، كما اعتقد أنه من الممكن تفنيد نموذج بواسطة برهنة منطقية .

ويؤكد الكاتب على ضرورة وجود الفلاسفة وأيضا المؤرخين . كما يوضح ضرورة مراجعة العلم "الوضعى" المعاصر ، ذلك أنه لا يمكن تصور مجتمع يخضع لطرق فى الحديث والفعل دون أن يخضع للنقد ، والنقد الذاتى على وجهه الخصوص .

وعقب العرض المفصل لواحد من أهم الكتب فى فلسفة العلم ، نقول أنه نجح بالفعل فى تحقيق الهدف الذى وضعه منذ البداية ، وهو إقامة حوار بناء بين العلماء وفلاسفة العلم ، حوار استطعنا من خلاله أن نتعرف على كثير من جوانب الموضوعات التى تشغل الساحة حاليا . فالعلم فى حركته المستمرة وتقدمه المطرد يقدم معطيات تتجدد باستمرار ، وتمثل تحديات جديدة أمام الفلاسفة . وإذا كان الخلاف بين المفكرين – كما رأينا – لم يحسم بعد ، فإن فى هذا إثراء وخصوبة لقضايا الابستمولوجيا وعلى رأسها قضية المنهج .

مسوح واستطلاعات الرأى :

فهم ما تقوله لنا

تأليف : نورمان م. برادبورن وسيمور سودمان *

عرض

إبراهيم البيومى **

ظهرت بحوث وقياسات الرأى العام فى المجتمعات الغربية المتقدمة منذ أكثر من نصف قرن . وقد مرت فى تطورها بعدة مراحل ؛ حتى أصبحت لها مناهجها وأدواتها ، وأساليبها الخاصة ، ومؤسساتها المتخصصة ، كما أصبحت لها - أيضا - أخلاقياتها التى من المفترض أن تحكم عملها ، وتضبط أداءها فى مختلف مراحله ؛ بدءاً من اختيار موضوع الاستطلاع ، وصولاً إلى نشر نتائجه بوسائل النشر المختلفة .

وقد تزايدت أهمية بحوث وقياسات الرأى ، والرأى العام ، باطراد فى سياق ماشهده العقد المنصرم من تطورات وتحولات شاملة على المستويات السياسية والاقتصادية ، ليس فى المجتمعات الديمقراطية المتقدمة فحسب ، وإنما فى بعض مجتمعات العالم الثالث ، وفى مجموعة الدول الاشتراكية (سابقاً) ، وخاصة بعد انهيار نظمها الشمولية ، واتجاهها نحو النظام الليبرالى التعددى ، وأخذها بسياسة التحول نحو القطاع الخاص أو مايطلق عليه سياسة الخصخصة .

ويعتبر كتاب "مسوح واستطلاعات الرأى" . من الكتب الأساسية ، التى تقدم خلفية عامة وشاملة حول ظهور وتطور بحوث واستطلاعات الرأى العام - على اختلاف أنواعها - فى المجتمعات الغربية المتقدمة ، وبصفة خاصة فى

* Norman M. Bradburn & Seymour Sudman: Polls & Surveys: Understanding What They Tell US, (San Francisco, London, Jossey-Bass Publishers, 1988).

** باحث بقسم بحوث وقياسات الرأى العام ، بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

الولايات المتحدة الأمريكية . فهو يتناول الجذور الأولى لظهور المسوح وقياسات الرأى ، والأغراض المختلفة لها ، والمؤسسات التى تقوم بها ، كما يناقش طرق وأساليب جمع البيانات واختيار العينات ، وصياغة أسئلة الاستطلاعات ، وغير ذلك من القضايا والمسائل المتعلقة بهذا الموضوع .

ويقع الكتاب فى ٢٤٩ صفحة ، وهو مقسم إلى مقدمة ، وأحد عشر فصلاً ، ومذيل بقائمة لأهم المصطلحات المستخدمة فيه ، وقائمة أخرى بالمراجع .

وتتناول فصول الكتاب الموضوعات التالية :

الفصل الأول : استطلاع رأى الجمهور : الغرض منه وكيف يجرى .
الفصل الثانى : تطور استطلاعات الرأى العام .
الفصل الثالث : الاستخدامات السلبية لمسوح الرأى وإساءة استخدامها .
الفصل الرابع : المنظمات والهيئات التى تقوم بإجراء استطلاعات الرأى .
الفصل الخامس : كيف يتم جمع بيانات استطلاعات ومسوح الرأى .
الفصل السادس : كيف يتم اختيار المستجيبين .
الفصل السابع : توجيه السؤال : كيف تؤثر كلمات السؤال على الاستجابات .
الفصل الثامن : ماذا تعنى الإجابات ؟
الفصل التاسع : فهم مصادر الخطأ .
الفصل العاشر : هل يتم حظر إجراء استطلاعات الرأى ؟
الفصل الحادى عشر: تأثير استطلاعات الرأى على الانتخابات والحكومات، والأعمال التجارية والاستثمارية ، وعلى وسائل الإعلام .

ومن المفيد قبل الشروع فى عرض الكتاب أن نقدم نبذة عن مؤلفَيْه :
نورمان م . برادبورن ؛ هو أستاذ بجامعة شيكاغو ، وعضو الرابطة الأمريكية لبحوث الرأى العام ، وزميل الجمعية الأمريكية للاحصاء ، إضافة إلى عضويته بعدد آخر من الجمعيات والهيئات العلمية والأكاديمية . وهو يشغل منصب مدير المركز القومى لبحوث الرأى العام (NORC) بجامعة شيكاغو . وله مؤلفات عديدة أهمها كتاب دراسات حول السعادة بالاشتراك مع د. كابلونتز ، وقد طبع سنة ١٩٦٥ . وكتاب البناء النفسى للسعادة المطبوع سنة ١٩٦٩ ، وكتاب تطوير منهج المقابلة ، وتصميم استمارة الاستطلاع بالاشتراك مع سيمور سودمان ، وهو منشور سنة ١٩٧٤ .

أما سيمور سودمان ؛ فهو أستاذ إدارة الأعمال ، وأستاذ الاجتماع ، وأستاذ باحث بمعمل بحوث المسح بجامعة إلينوى ، التى عمل بها منذ سنة ١٩٦٨. وقد كان مديراً لبحوث العينة ، والدراسات العليا بالمركز القومى لبحوث الرأى العام بجامعة شيكاغو فى الفترة من سنة ١٩٦٢ حتى سنة ١٩٦٨ . وهو أيضاً عضو بالعديد من الروابط العلمية المتخصصة مثل الرابطة العالمية لبحوث الرأى العام التى رأسها فى عامى١٩٨٢/٨١، والرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع . وله العديد من الدراسات والكتب : منها كتاب كيف تسأل الأسئلة ؟ المطبوع سنة ١٩٨٢، وكتاب المعاينة التطبيقية المطبوع سنة ١٩٧٦، فضلاً عن العديد من المؤلفات التى شارك نورمان برادبورن فى تأليفها .

ونقدم فيما يلى عرضاً مختصراً لأهم موضوعات الكتاب :

أولا : خلفية عامة حول ظهور وتطور مسوح وقياسات الرأى

يتناول المؤلفان فى الفصول الأربعة الأولى من الكتاب ؛ الخلفيات العامة حول المقصود بالمسح و الاستطلاع ، وماهى ظروف وملابسات نشأة وتطور المسوح والاستطلاعات ، وماهى الأغراض المختلفة التى تستخدم فيها ، والمؤسسات والهيئات التى تضطلع بمهمة إجرائها والإشراف عليها .

ونلاحظ أنهما يركزان – فى هذا الكتاب كله – على حالة الولايات المتحدة الأمريكية ، مع إعطاء بعض الأمثلة والإشارات الموجزة حول تجارب بعض الدول الأوربية فى مجال بحوث واستطلاعات الرأى العام .

ففى الفصل الأول يؤكد المؤلفان على أنه لاتوجد فروق جوهرية بين أنماط كل من الاستطلاع و المسح ، فكلاهما يشير إلى طريقة منظمة لجمع المعلومات من عينة مسحوبة من مجتمع أكبر (ص ٢) .

أما كلمة استطلاع Poll فهى مشتقة من الكلمة اليونانية التى تعنى المواطن وهى كلمة Citizen – وهذه الكلمة لها نفس جذور كلمة السياسة Politics – وقد تطور معنى كلمة poll عبر المراحل الزمنية المتتابعة ؛ إذ كانت تعنى الرأس فى العصور الوسطى ، وأصبحت فى هذا القرن تشير إلى عملية الإدلاء بالصوت فى الانتخابات ، ثم أصبحت الآن تستخدم لوصف استطلاعات الرأى فى القضايا العامة .

وأما كلمة مسح Survey فهى مكونة من مقطعين الأول هو Sur وهو

مشتق من كلمة Super ويعنى فوق ، والثانى هو Vey وهو مشتق من Videre وهى كلمة لاتينية ، وتعنى لِيرى . والمعنى التام لكلمة Survey هو الرؤية الشاملة لأى شئ .

ويخلص المؤلفان من هذا التحليل اللغوى إلى أنه قد يكون مصطلح Survey أكثر دقة وتحديدا من مصطلح Poll ، إلا أن المصطلحين يُستخدمان حالياً بمعنى واحد دون التقيد بالفرق بينهما .

ومن الناحية التاريخية ؛ بدأت استطلاعات الرأى العام تتم بطريقة منتظمة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى يوليو سنة ١٩٣٥ ، وذلك عندما نشرت مجلة Fortune Magazine أول استطلاع لها. وفى أكتوبر من العام نفسه ، بدأت مؤسسة چورچ جالوب فى تقديم خدماتها لـ ٣٥ صحيفة ، وأصبحت معروفة فى كل مكان باسم استطلاعات جالوب . وقد توالت التطورات فى هذا المجال بعد ذلك بطريقة مطردة ، وأسهمت كل من الصحافة وبحوث التسويق والمسوح الاجتماعية بجهود متفاوتة فى عملية تطوير استطلاعات ومسوح الرأى .

ويعتبر چورچ جالوب هو أكبر المدافعين عن استطلاعات وقياسات الرأى العام ، وذلك من خلال معهده الذى أسسه لهذا الغرض ، إضافة إلى مقالاته وأبحاثه وكتبه التى تناولت هذا الموضوع ، وأهمها كتاب : نبض الديمقراطية ، The Pulse of Democracy

وثمة مجالات متعددة ومتنوعة تستخدم فيها المسوح والاستطلاعات وأهمها هو المجال السياسى ، وخاصة فى مناسبات انتخابات الرئاسة الأمريكية . كما تستخدم أيضا بواسطة أعضاء الكونجرس ، وجماعات المصالح ، والحكومة الفيدرالية ، وفى مجال التسويق ، وكمادة خبرية فى وسائل الإعلام المختلفة ، وكمصدر من مصادر إقامة الأدلة والشواهد أمام القضاء وفى ساحات المحاكم ، وإلى جانب كل هذا ، فقد أصبحت المسوح والاستطلاعات من الأدوات الأكثر استعمالاً فى جمع المعلومات فى مجال العلوم الاجتماعية ، وخاصة فى ميادين علم الاجتماع والسياسة وعلم النفس .

ويناقش الكاتبان قضية الاستخدام المشروع وغير المشروع للاستطلاعات والقياسات فى تلك المجالات المذكورة . وخلاصة رأيهما هو أن مسوح واستطلاعات الرأى والرأى العام شأنها شأن غيرها من الأدوات العلمية التى قد تستخدم بكفاءة ولأغراض مشروعة ، وقد يساء استخدامها أو يتم توظيفها

لأغراض غير مشروعة أو لا أخلاقية . وهما يعتقدان أن أكثر الاستخدامات إثارة للجدل والتساؤل عما إذا كانت مشروعة أو لا ؛ هو استخدامها لأغراض دعائية من ناحية ، والإفراط فى استخدامها فى القضايا السياسية - وخاصة فى المنافسات الانتخابية - من ناحية أخرى .

وعلى أية حال ، فقد أصبحت استطلاعات الرأى ، والرأى العام ، جزءًا أساسيًا من الحياة السياسية - والحياة الاجتماعية بصفة عامة - داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وخارجها أيضًا ، وخاصة فى المجتمعات الديمقراطية المتقدمة . ويؤكد المؤلفان - مرة أخرى - على أنها أصبحت أهم مصدر لمعرفة الرأى العام فى الولايات المتحدة ، بخصوص مختلف القضايا ، وخاصة تلك المتعلقة بالشئون السياسية والاقتصادية . ولكنهما يحذران من ميل وسائل الإعلام إلى السرعة فى إجراء الاستطلاعات ، على عكس الباحثين الميدانيين المختصين الذين يميلون بدرجة أكبر إلى الاهتمام بالقضايا محل الاستطلاع بشكل يتسم بالعمق والتكامل ، ويهتمون بدرجة أقل بالسرعة فى الإنجاز . ويرى الكاتبان أن على وسائل الإعلام أن توازن بين حاجتها إلى تقديم أخبار ساخنة ، ومن ثم إلى السرعة فى إنجاز الاستطلاعات ، من جهة ، وحاجة المجتمع إلى الفهم المتكامل لقضاياه ومشاكله التى يعانى منها ، ويسعى لإيجاد حلول لها .

ولكن ماذا عن المؤسسات والهيئات التى تقوم بعمل المسوح والقياسات ؟ إن الفصل الرابع من الكتاب (ص ٦٨ - ص ٩٣) يعرض لأهم تلك المؤسسات أو الهيئات . مثل : الصحف ، وشبكات الإذاعة والتليفزيون ، والمؤسسات الخاصة ، ومكاتب الحكومة الفيدرالية ؛ أو تلك التى تطلب منها الحكومة الفيدرالية القيام بإجراء قياسات واستطلاعات لحسابها ، ومراكز الجامعات ، ومنظمات أبحاث التسويق والدعاية .

وهذه المؤسسات ، المختلفة ، تقوم بعمل استطلاعات وقياسات ذات أنماط متباينة ، ويؤكد المؤلفان على أن ماتقوم به وسائل الإعلام ليس إلا أحد الأنماط الفرعية من تلك الأنماط .

ونظراً لانتشار مراكز ومعاهد قياس الرأى العام فى كل الدول المتقدمة ، وفى بعض الدول النامية أيضًا - بغض النظر عن علاقتها بالنظم الحاكمة فى تلك الدول - فقد أصبحت هناك حاجة ملحة للتواصل بين الباحثين فى هذا الميدان من مختلف أنحاء العالم ؛ وهو ما بدأ يتحقق

بالفعل عن طريق الرابطة العالمية لبحوث الرأى العام World Association for Public Opinion Recearch , (WAPOR) ، أو عن طريق المشاركة الاجتماعية الدولية وبعض البحوث المقارنة بين الدول . وعلى سبيل المثال نشير إلى المسح الاجتماعى العام (GSS) الذى بدأ فى الولايات المتحدة الأمريكية ويطبق حالياً فى العديد من الدول منها بريطانيا ألمانيا واستراليا .

ثانياً : اساليب المعاينة وادوات المسوح واستطلاعات الراى

لقد تبلورت مجموعة من القواعد والأسس العلمية التى تقوم عليها استطلاعات وقياسات الرأى بمختلف أنواعها ، وذلك من خلال التجارب والجهود المستمرة من قبل الباحثين والعلماء والمراكز المتخصصة فى هذا الميدان . ويناقش المؤلفان فى ثلاثة فصول - من الخامس إلى السابع - أهم تلك القواعد والأسس المتعلقة بالأساليب والأدوات المنهجية لمسوح واستطلاعات الرأى (الفصل الخامس من ص ٩٤ إلى ص ١٠٩) واختيار العينة ، (الفصل السادس من ص ١١٠ إلى ص ١٣٩) وصياغة الأسئلة (الفصل السابع من ص ١٤٠ إلى ص ١٥٥) ولكننا سوف نبدأ بعرض خلاصة المشاكل المتعلقة باختيار العينة ، ثم نعرض لعملية وضع استمارة الاستطلاع ، والأساليب المستخدمة مسوح واستطلاعات الرأى .

١- العينة واختيارها

من بدهيات الأمور أن العينة التى سيطبق عليها الاستطلاع يجب أن يتم اختيارها وفقاً لقواعد علمية دقيقة ومنضبطة ، وذلك لأسباب تتعلق بقضية منهجية أصيلة وهى قضية التعميم ، أو الانتقال من الجزئى إلى الكلى ؛ فخلاصة الاستطلاع أو نتيجته إنما تعنى - فى جوهرها - الوصول إلى مقولات عامة عن الجمهور ، أو المجتمع ، بناءً على معلومات مأخوذة من عينة صغيرة - نسبياً - من أفراد هذا الجمهور ، أو المجتمع الأصلى .

وتنبع الحاجة إلى اختيار عينة من اعتبارين أساسيين هما : الوقت والتكلفة ؛ إذ يصعب جداً القيام بتطبيق الاستطلاع أو المسح - فى وقت معقول - على كل أفراد المجتمع ، كما أن مثل هذا التطبيق الشامل يتطلب نفقات باهظة ، قد لاتتناسب معها قيمة النتائج النهائية للاستطلاع .

وبما أن العينة يجب أن تكون - بحكم التعريف - عينة لشئ ما أكبر منها ، فإن على باحثي الرأى العام - كما يرى المؤلفان - أن يحددوا الجمهور الأصلي لها ، أو مايمكن تسميته مجتمع العينة الذى يتم سحبها منه ، وأن يصفوه وصفاً دقيقاً وشاملاً ، لأن العينة السليمة يبدأ اختيارها بتعريف تفصيلي لجمهورها أو مجتمعها الأساسي ، على أن يكون لكل أفراد هذا الجمهور الفرصة لكي يتم اختيارهم فى العينة ، وليس شرطاً أن تكون هذه الفرصة متساوية بالنسبة لكل الأفراد وإن كان لابد أن تكون فرصة الاختيار معروفة سلفاً ، ومع ذلك فإن معظم العينات تقوم على أساس إعطاء فرص متساوية لهم . ويتم استخدام الكمبيوتر - بدلاً من الطرق اليدوية - للقيام بالعمليات الإحصائية اللازمة للتأكد من أن كل شخص له نفس فرصة الظهور كأحد مفردات العينة ، وذلك لضمان أكبر قدر من الدقة فى عملية اختيارها .

ولا تكفي الدقة فى اختيار العينة حتى تكون النتائج سليمة ، بل إنه من الضرورى أيضاً - كما يؤكد المؤلفان - أن يتم تنفيذ الاستطلاع بعناية ، وهذا يتطلب أن تكون لدى الباحثين الميدانيين خبرات ومهارات خاصة ، تمكنهم من إتمام مقابلاتهم مع أفراد العينة بنجاح ، كما يتطلب فى الوقت نفسه أن تكون لدى أفراد العينة الرغبة فى التعاون ، والحماس لموضوع الاستطلاع ، والمشاركة بما لديهم من آراء ومعلومات .

ب - استمارة الاستطلاع

من الأقوال المأثورة قولهم : سَلْ سؤالاً رديئاً ، تحصل على إجابة رديئة . وإذا أخذنا هذا القول وطبقناه على مجال مسوح واستطلاعات الرأى العام فإنه يمكن القول أن الأسئلة الجيدة هى العنصر الأساسي الذى لاغنى عنه فى الاستطلاع أو القياس الجيد .

إن الاستطلاعات تقوم على أساس توجيه سؤال أو قائمة من الأسئلة لأفراد عينة تم اختيارها بدقة - كما أشرنا آنفاً - ثم يتم استخدام إجاباتهم للوصول إلى مقولات أو تعميمات بخصوص قضية ما من منظور المجتمع الأصلي الذى سحبت منه تلك العينة . وفى بعض الأحيان يكون اختيار العينة قد تم بدقة فائقة ، وتكون الاستجابات قد تم تحليلها بأساليب متطورة ودقيقة أيضاً ؛ ومع ذلك فقد تكون النتيجة النهائية لكل هذا المجهود لا قيمة لها ؛ إذا كانت الأسئلة المستخدمة

فى الاستطلاع خاطئة فى حد ذاتها ، أو غير ملائمة بالنسبة لموضوع الاستطلاع أو لأفراد العينة .

وقد يحدث الخطأ فى السؤال بأحد معنيين : الأول هو ألا يكون متضمناً التساؤل عما يريد الباحث معرفته من المبحوث . والثانى هو أن تكون كلمات السؤال ، أو صياغته مؤدية إلى تحريف وتشويه استجابة المبحوث .

وتنقسم الأسئلة التى يمكن أن تتضمنها استمارة الاستطلاع إلى نوعين هما :

١ - أسئلة عن حقائق ومعلومات معينة أو أسئلة معرفية .

٢ - أسئلة تقويمية تسعى للتعرف على وجهات نظر المبحوثين وآرائهم بخصوص القضية موضوع الاستطلاع ، وأياً كان نوع الأسئلة فإنه يجب القيام باختبار صلاحيتها وملاءمتها على عينة محدودة قبل الشروع فى تطبيقها على العينة كلها ، ولكن السرعة فى إنجاز الاستطلاعات - وخاصة تلك التى تقوم بها وسائل الإعلام - غالباً مالاتسمح بالقيام بهذا الاختبار ، كما أن المولين للاستطلاع عادة مالاتكون لديهم رغبة فى الانفاق على مثل هذه الخطوة .

ومن أهم المشاكل التى يناقشها المؤلفان فى هذا الفصل - السابع من الكتاب - مشكلة تأثير كلمات السؤال ، وصيغته على إجابات أفراد العينة . وهما يميزان - بصفة مبدئية - بين نمطين من الأسئلة : الأول هو نمط الأسئلة المفتوحة مقابل الأسئلة المغلقة Open Versus Closed Questions والثانى هو نمط الأسئلة المزدوجة Double - Barreled Questions .

وفى كل الحالات فإن ثمة طرق متعددة يمكن من خلالها أن تؤثر صيغة السؤال تأثيراً سلبياً على الإجابات التى سيدلى بها المبحوثون ، ومن ثم على النتائج المستخلصة منها . ومن ذلك : أن يكون السؤال مصمماً بحيث يوحى بإجابة محددة يرغبها صاحب السؤال ، أو القائم بالاستطلاع ، وغالباً مايحدث ذلك فى نمط السؤال الذى يتضمن الاستفسار عن أمرين فى آن معاً ، وهو ما يطلق عليه السؤال المزدوج ، ومثاله : هل تؤيد العقوبات الاقتصادية ضد جنوب أفريقيا للقضاء على التمييز العنصرى ؟ أم تعارض تلك العقوبات ضدها حتى ولو كان ذلك يعنى تدعيم التفرقة العنصرية ؟ .

ففى مثل هذه الحالة ، نجد أن وسيلة العقوبات الاقتصادية مقرونة بغاية هى

القضاء على التفرقة العنصرية . فإذا افترضنا - جدلاً - أن المبحوثين يعارضون سياسة التفرقة العنصرية ولكنهم لايحبذون أسلوب فرض العقوبات الاقتصادية فلربما تؤدى بهم صيغة السؤال - على النحو المذكور آنفاً - إلى الاعتقاد بأن العقوبات هى الوسيلة الوحيدة لمعارضة التفرقة العنصرية ، ومن ثم فإنهم قد يوافقون على فرض العقوبات -رغم أنهم لايحبذونها من حيث الأصل - والتحريف الذى سينتج من ذلك فى نتائج الاستطلاع هو-كما يرى المؤلفان - مايريده واضع مثل هذا السؤال أو القائم بالاستطلاع (ص ١٤٨) .

وقد يحدث التأثير السلبى على إجابة المبحوث أيضا من خلال طريقة وضع وصياغة بنود الاستجابة التى ترفق بالسؤال كبدائل للإجابة عليه . أو من خلال اختيار تعبيرات غير محايدة ، مثل خطر محدق أو كارثة مروعة . أو من خلال افتراضات حول جانب واحد من جوانب المشكلة ، أو باستخدام كلمات ذات حساسية مرتفعة بالنسبة لبعض المجموعات أو الأقليات (الدينية ، أو العرقية ، أو المهنية ، ...) .

وقد تتأثر الاستجابات ، كذلك ، بنظام ترتيب الأسئلة فى استمارة الاستطلاع ، وكثيراً مايحدث هذا التأثير السلبى بالنسبة للقضايا التى لم تتبلور حولها الآراء بشكل جيد ، أو لا تكون معروفة لدى أكبر عدد ممكن من أفراد العينة . وقد يحدث التحريف والتشويه من خلال تحديد الإجابة بأحد أمرين : إما لا أعرف أو لا رأى له ففى هذه الحالة سوف تزداد نسبة لا أعرف بطريقة آلية ، وعادة مايعطى حوالى ٢٠٪ من أفراد العينة هذه الاستجابة متى وضع : لا أعرف أو لا رأى كأحد الاختيارات ، ومن ثم فإن ذلك قد يؤثر على الاستنتاجات والاستخلاصات التى يمكن التوصل إليها بعد ذلك .

ولكى يمكن معالجة مثل تلك التأثيرات السلبية التى تنجم عن كلمات وصياغات الأسئلة ، فإن المؤلفان ينصحان بضرورة الاهتمام بعملية صياغة الأسئلة ، ووضعها فى الاستمارة ، والقيام باختبارات تجريبية عليها ، قبل التطبيق النهائى لها ، حتى يمكن تفادى تلك السلبيات أو التقليل منها بقدر الإمكان .

جـ - الأساليب المنهجية لإجراء استطلاعات ومسوح الرأى

توجد ثلاثة أساليب - أو وسائل - رئيسية يتم بواسطتها تطبيق الاستطلاعات والقياسات المختلفة ، وهى :

١ - إجراء المقابلات الشخصية وجها لوجه .

٢ – استخدام التليفون لإجراء المقابلة .
٣ – استخدام البريد .

ولكل من هذه الأساليب مزاياه وعيوبه ، النسبية ، التى تتوقف على نوعية الاستطلاع ، والهدف منه ، والجهة القائمة به ، والإمكانيات المادية ، والمهارات الفنية المتاحة ، وبيان ذلك على النحو الآتى :

١ – إجراء المقابلة وجهاً لوجه وهى التى يقوم فيها الباحث الميدانى بتوجيه أسئلة الاستطلاع للمبحوث بطريقة ملائمة بحيث يتمكن من الإجابة عليها . ويشترط فى القائمين بإجراء المقابلات أن تكون لديهم المهارات والقدرات اللازمة والكافية لإجرائها ؛ وإن كانت بعض مؤسسات استطلاع الرأى العام لاتفضل الباحثين المدربين أو ذوى الخبرة والكفاءة العالية وذلك للحد من نفقات جمع المادة (ص ٩٨) .

ومن الشائع أن يكون الباحث الميداني– الذى يقوم بإجراء المقابلات– من الرجال وليس من النساء ، ولكن هذا التصور خاطئ تماماً – كما يؤكد مؤلفا الكتاب – إذ أن معظم الباحثين أصبحوا من النساء ، وذلك لأسباب متعددة متعلقة بظروف المعيشة ، وأوقات العمل . وعلى أية حال فإن النمط الشائع للباحث الميداني– فى الولايات المتحدة الأمريكية– الذى يقوم بإجراء الاستبار أو المقابلة ، هو أن تكون امرأة ، متزوجة ، فى منتصف العمر ، لديها بعض التعليم الجامعى – وليس شرطا أن تكون حاصلة على مؤهل جامعى – وأن تكون فى حاجة إلى العمل لبعض الوقت ، ولكنها غير قادرة على العمل طول الوقت ... الخ (ص٩٦) .

ويؤكد المؤلفان على أهمية وجود مشرف ميدانى ليقوم بإرشاد الباحثين ونصحهم ومساعدتهم فى حل المشكلات التى تواجههم أثناء التطبيق . ويؤكدان أيضاً على أن المراجعة الميدانية أمر لابد منه للتأكد من دقة عملية جمع المعلومات ، وانضباط سير العمل .

٢ – استخدام التليفون وقد أصبحت معظم المقابلات تتم عن طريقه ، وذلك نظراً للتسهيلات الكبيرة التى يتيحها – وبصفة خاصة فى المجتمعات المتقدمة – لتوفير الوقت والنفقات .

وبالرغم من أن العديد من القائمين بالمقابلات باستخدام التليفون لا يزالون يستخدمون قوائم الأسئلة المكتوبة ، إلا أن عدداً كبيراً – ومتزايداً –

منهم تحولوا إلى استخدام أجهزة الكمبيوتر المتصلة بالتليفون :-Computer Assisted Telephone Interviewing (CATI)

فعن طريق استخدام هذه الأجهزة يمكن تجنب الكثير من الأخطاء التى قد تنجم عن الأسئلة ذات الإحالات المتعددة ، كما يمكن إدخال البيانات وحفظها فى الكمبيوتر بمجرد أن يدلى بها المبحوث ، ويمكن أيضاً ، الحصول على ملخصها فى أى وقت خلال عملية تطبيق الاستطلاع إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وبهذه الطريقة يمكن للباحث أن يتابع تطور الدراسة أولاً بأول ، وأن يزيد من معدلات الإنجاز ، كما يمكنه أيضاً أن يستخدم أنماطاً مختلفة من الأسئلة ، أو يغيرها أثناء التطبيق ويستخدم بدائل أخرى .

ورغم كل تلك المزايا التى توفرها طريقة CATI إلا أن لها عيوبها ومشاكلها أيضاً ، ومن أهمها : المشاكل التى تنتج عن الأعطال المفاجئة فى الكمبيوتر (وهناك محاولات للتغلب عليها باستخدام كمبيوترات احتياطية صغيرة) ، كما أن عملية إدخال أسئلة الاستمارة فى نظام CATI تستهلك الوقت ، ومكلفة ، رغم أن برامج الكمبيوتر الجديدة تسهل من هذه العملية . وبسبب التكاليف المرتفعة لطريقة CATI فإنها تستخدم بصفة أساسية فى إجراء المسوح الكبيرة والمعقدة ، حيث تكون الميزانية كافية ، وتكون النتائج المتوقعة تستحق الإنفاق الكبير .

ويخلص المؤلفان من مناقشة إيجابيات وسلبيات كل من أسلوب المقابلة وجهاً لوجه ، واستخدام التليفون ، إلى أن الفروق بينهما طفيفة بحيث لا تمكننا من الحكم على أن إحداهما أفضل من الأخرى .

٣ – استخدام البريد يستخدم البريد كوسيلة بديلة للوسائل الأخرى فى إجراء مسوح واستطلاعات الرأى العام . وثمة عدد من المشكلات التى تعترض استخدام البريد فى هذا المجال وأهمها هو : كيف نضمن أن تكون أسئلة الاستطلاع واضحة حتى يمكن للمبحوثين أن يجيبوا عليها بسهولة ويسر؟ وكيف يمكن الحصول على عينة جيدة ، وعلى معدل استجابة مقبول فى الوقت نفسه ؟ إن معدل الاستجابة فى حالة إجراء الاستطلاع عن طريق البريد قد يتدنى إلى ٢٠٪ أو ١٠٪ من إجمالى العينة أو أقل من ذلك . وفى مثل هذه الحالة فإن النتائج تكون بلا معنى .

وتلجأ بعض المؤسسات التى تجرى استطلاعات ومسوح للرأى العام إلى عدة وسائل للحث على المشاركة وإعادة إرسال الإجابة على الأسئلة . ومن أهم تلك الوسائل : إرفاق خطاب رقيق باستمارة الاستطلاع - التى يجب ألا تزيد عن ١٢ صفحة وفقا لرأى دلمان Dillman, D. A. - يوضح أهداف الاستطلاع ، أو وضع قطعة من النقود داخل الخطاب (عادة ما يوضع دولار) فقد يؤدى ذلك إلى إشعار المبحوث بأنه ملزم - ولو أدبياً - بالتعاون وإعادة إرسال الاستمارة بعد الإجابة على أسئلتها ، ورغم ذلك فمثل هذه الوسائل قليلة الجدوى .

ويرى المؤلفان أن استخدام أكثر من وسيلة فى وقت واحد (المقابلة وجهاً لوجه ، والتليفون ، والبريد) يمكن من تلافى السلبيات ، والحصول على إيجابيات الوسيلة الأكثر ملاءمة للمشكلة محل البحث ، ويشيران إلى أن التطورات التكنولوچية فى مجال الاتصالات والكمبيوتر ، سوف تؤدى إلى تغيير الوسائل التى تستخدم فى إجراء المسوح والاستطلاعات ، ومن ذلك على سبيل المثال تزايد القيام باجراء الاستبار الشخصى بالاستعانة بالكمبيوتر : Computer-Assisted Personal Interviewing (CAPI)

وكل ما سبق أن ذكره المؤلفان عن إيجابيات طريقة "CATI" متاح فى هذه الطريقة الجديدة CAPI ولكن المشكلة الكبرى حتى الآن هى التكاليف الباهظة التى تجعل من العسير استخدام هذه الطريقة إلا فى حالة الدراسات الكبيرة ، أو الدائمة ، والتى يمكن أن يتوفر لها التمويل اللازم ، وإذا ما قلت تكاليفها فى المستقبل فإنها سوف تستخدم بكثافة فى هذا الميدان .

ثالثاً : تحليل النتائج

يناقش المؤلفان فى الفصل الثامن (ص١٥٦- ص١٧٨) عملية تحليل نتائج الاستطلاعات وأهم المشاكل التى تجعل من شرحها أو تفسيرها ، أمراً صعباً . ولعلمية تحليل النتائج أهمية كبيرة فى معرفة ما الذى تعنيه الإجابات التى تم الحصول عليها من أفراد العينة ، أو على حد تعبير المؤلفين : What do the Answers Mean?

وهذه العملية لها عدة أشكال ؛ بعضها بسيط ، وبعضها معقد . ويتوقف اختيار هذا الشكل أو ذاك على الهدف ، أو الأهداف ، التى من أجلها تم إجراء الاستطلاع . ومن أكثر مستويات التحليل بساطة هو المستوى الذى يسعى للإجابة

على سؤال أساسى هو : كيف يتصرف الناس . أو كيف يفكرون على نحو معين ؟ أما فى المستويات الأكثر تعقيداً فيكون المطلوب هو بيان الاختلافات بين الأفراد أو الجماعات ، وشرح أسباب تلك الاختلافات بخصوص المسألة أو القضية موضع الاهتمام . وذلك عن طريق إجراء الإختبارات الإحصائية ، أو باستخدام منهج المقارنة بين مجموعة وأخرى ، أو باستخدام الأسلوبين (الإحصائى والمقارن) معاً ، أو غيرهما من أساليب الشرح والتحليل .

ويحذر المؤلفان من الأخطاء التى قد تحدث أثناء عملية التحليل وتؤدى إلى تضليل القارىء ، أو المستفيدين من نتائج الاستطلاعات بصفة عامة . وأهم هذه الأخطاء هو أن يكون لدى الباحث- أو الباحثين - رؤى وأحكام مسبقة عن النتائج المحتملة للاستطلاع ؛ ففى هذه الحالة قد يقوم بتحليل البيانات لمجرد تأكيد تلك الرؤى والأحكام المسبقة بغض النظر عما تتضمنه البيانات من احتمالات ووجهات نظر أخرى .

وقد ينتج الخطأ - ومن ثم التضليل - فى النتائج من أسباب أخرى مثل : إغفال ذكر بعض النتائج التى لا يفضلها الباحث ، أو إغفال ذكر استجابة لا أعرف أو لا رأى له (ص١٥٤ و ص١٦١) ويرى المؤلفان أنه بالرغم من أن مشكلة لا أعرف أو لا رأى له هى مشكلة صغيرة فى عملية التحليل ، إلا أنها قد تكون ذات أهمية كبيرة فى حالة المسوح والاستطلاعات الضخمة . ولكن إذا كانت نسبة الاستجابة بـ لا أعرف أو لا رأى له أقل من ١٠٪ من إجمالى حجم العينة فإنه لا بأس من حذفها دون حدوث ضرر كبير ، وإن كان من المستحسن - فى هذه الحالة أيضاً - أن تتم الإشارة إلى تلك النسبة ولو فى هامش التقرير .

إن أهم سؤالين يجب أخذهما فى الحسبان - كما يرى المؤلفان - عند تحليل النتائج وشرحها هما :

١ - هل هناك متغيرات أخرى ذات صلة بالموضوع محل البحث من شأنها أن تسهم فى شرح وتفسير النتائج ؟

٢ - إذا كانت هناك علاقة سببية بين متغيرين ؟ فما هو اتجاه هذه العلاقة ؟ هل أ - على سبيل المثال - هو سبب ب ؟ أم أن هناك احتمال أن يكونا متعادلين فى علاقة السببية ؟ أم هناك احتمال لأن يكون ب هو سبب أ وليس العكس ؟ أم توجد بينهما علاقة تفاعل جدلية ؟

والخلاصة هنا هى أن عملية تحليل النتائج ، وشرحها أو تفسيرها ؛ يجب أن تتضمن مختلف الأبعاد والمتغيرات التى من شأنها الإسهام فى إظهار وفهم وجهات النظر التى تعرضها تلك النتائج ، وتسهل - فى الوقت نفسه - الاستفادة منها على نحو عملى .

رابعاً : مصادر الخطأ ومشاكل التحيز

يتعرض أى مقياس - مهما كان دقيقاً - لاحتمالات الخطأ ، وبما أن المسوح أو الاستطلاعات هى شكل من أشكال القياس المعقد ؛ فهى أيضاً عرضة لأنماط متنوعة من الأخطاء ، والتحيزات التى قد تهدر مصداقيتها وتجعلها عديمة الفائدة . ويناقش المؤلفان فى الفصل التاسع (ص١٧٩- ص١٩٢) أهم المصادر المؤدية إلى حدوث تلك الأخطاء أو التحيزات .

فبالنسة للأخطاء والتحيزات المحتملة فى المسوح والاستطلاعات ، يرى المؤلفان أنها تنقسم - عادة - إلى نوعين هما : أخطاء وتحيزات تكون العينة مصدر حدوثها . وأخطاء وتحيزات لا تكون العينة هى مصدرها .

أما أخطاء وتحيزات العينة فعادة ما تحدث نتيجة لعدم الدقة فى تحديد مواصفاتها ، أو عندما يكون حجمها غير ملائم لتمثيل المجتمع الأصلى الذى سُحبت منه . وقد تتسرب التحيزات إلى العينة بطرق أخرى مثل : عدم اختيارها طبقاً لقواعد نظرية الاحتمالات ، أو فى حالة الإخفاق فى الحصول على استجابات من كل المبحوثين المختارين فى العينة ، أو الفشل فى الحصول على استجابات على كل موضوعات ومسائل الاستطلاع (ص١٨٢ - ص١٨٤) .

وأما الأخطاء الأخرى التى لا تكون العينة مصدرها ، فيؤكد المؤلفان على أنه لا يمكن تقديرها بدقة ما لم تتم اختبارات تجريبية على مختلف المتغيرات التى يتضمنها الاستطلاع . ونظراً لأن مثل هذه الاختبارات نادراً ما تتم فإنه لم تتبلور بعد نظرية ما لمقارنة الخطأ الذى تكون العينة مصدره ، مع الخطأ الذى لا يرجع للعينة . ومن ثم فالمؤلفان يلفتان النظر فقط إلى أهم مصادر حدوث الأخطاء والتحيزات من خارج العينة وهى تتمثل فى الآتى :

أ - استمارة الاستطلاع ، وهى تتضمن ليس فقط استثارة الاستجابة ، ولكنها تقدم ، أيضاً ، تصنيفات جاهزة للبنود التى يجب - فى أغلب الحالات - أن تأتى الاستجابة فى إطارها . وهنا قد يحدث الخطأ أو التحيز من خلال

الصياغة السيئة للسؤال ، أو اختيار كلمات غير مناسبة أو مستفزة ، أو عدم الدقة فى نظام الأسئلة وترتيبها بطريقة غير سليمة أو موحية باستجابة محددة يرغبها القائم بالاستطلاع (ص١٨٦– ص١٨٨) وقد سبق تناول هذه التحيزات بالتفصيل فى الفصل السابع من الكتاب (ص١٤٠–ص١٥٥) .

ب – قد يتسبب الباحث المستبر– الذى يقوم بإجراء المقابلات مع أفراد العينة – فى وقوع الأخطاء أو التحيزات ، وذلك إما بتزييف المقابلة من خلال التأثير على آراء ووجهات نظر المبحوث . أو قد لا يقوم بإجراء المقابلة أصلاً ويملأ الاستمارة باستجابات من عنده . ويذكرنا المؤلفان فى هذه الحالة بأهمية الإشراف والمراجعة الميدانية ، والتدريب المسبق للباحثين الذين يقومون بالاستبار ، وحسن اختيارهم حتى يمكن تلافى هذه الأخطاء والتحيزات .

جـ – وقد يكون المبحوث الذى يقدم الاستجابات هو مصدر التحيز والخطأ . ويؤكد المؤلفان على أن ثمة أسباباً متعددة تجعل المبحوثين لا يميلون إلى الكذب وهم يدلون بالمعلومات حول آرائهم أو سلوكياتهم المختلفة . وأهم هذه الأسباب هو أنهم يقبلون المشاركة فى الاستطلاع ، أو المسح ، طواعية ، وبدون إكراه من ناحية ، ولأنهم يعتقدون أن مشاركتهم سوف تمنح آراءهم ووجهات نظرهم فرصة كبيرة للذيوع والانتشار من خلال ما سوف تسفر عنه نتائج الاستطلاع ونشرها فى وسائل الإعلام المختلفة .

خاتمة حول مستقبل المسوح والاستطلاعات

أشرنا فى مستهل هذا العرض إلى أن أهمية بحوث وقياسات الرأى العام تشهد تزايداً مطرداً ، فى المجتمعات المتقدمة ، وفى المجتمعات الآخذة فى النمو وإن كانت . بدرجة أقل . ولكن المؤلفين يتساءلان فى الفصل العاشر من الكتاب : هل يجب حظر الاستطلاعات ؟ ويجيبان بالنفى ، على مدى الفصلين العاشر والحادى عشر (ص١٩٤– ص٢٣٠) وذلك بعد تفنيد أهم حجج وانتقادات الذين يرون ضرورة حظرها ، أو يطالبون – على الأقل – باتخاذ إجراءات صارمة تحد من إجرائها أو استخدام نتائجها .

وأهم تلك الحجج التى يسوقها منتقدو الاستطلاعات هى :

١ – أن استطلاعات الرأى العام لها تأثيرات سلبية على عملية الانتخابات ، ومن ثم فهى تلحق الضرر بالديمقراطية ، سواء لأنها تؤدى إلى أن يقوم

الناخبون بتغيير آرائهم ، أو بأن يحجموا نهائياً عن الإدلاء بأصواتهم .

ويرى المؤلفان أن هذه الحجة وإن كانت صحيحة جزئياً إلا أنه لا يمكن تحميل استطلاعات الرأى العام وحدها وزر التأثيرات السلبية على إرادة الناخبين فهناك مصادر أخرى كثيرة لها مثل هذه التأثيرات .

٢ - أن الاستطلاعات تقتحم خصوصيات الأفراد ، التى لا يرغبون فى كشفها ، أو أن يطلع عليها أحد حتى لا تلحق بهم الأضرار .

وخلاصة رد المؤلفين على ذلك هو أن الاستطلاعات لا تضع المبحوثين تحت أى نوع من أنواع المخاطرة أو التضحية بخصوصياتهم على نحو يسبب لهم الضرر ، إذ أن لهم كامل الحق فى قبول المشاركة والتعاون مع القائمين بالاستطلاع ، كما أن لهم كامل الحق فى الرفض والعزوف عن ذلك .

٣ - أن الاستطلاعات تؤدى إلى تشويه القضايا المثارة ، وإلى تبسيطها ، بالرغم من أنها قد تكون معقدة ، ومن ثم فهى - أى الاستطلاعات - تسبب ضغوطاً كبيرة على المسئولين المنتخبين ، ورجال الإدارة الحكومية .

٤ - أن النتائج المنشورة للاستطلاعات غالباً ما تكون بلا معنى ، أو عديمة الفائدة ، ويؤكد المؤلفان ، بهذا الصدد ، على أن العكس هو الصحيح ، إذ أن معظم الاستطلاعات يمكن أن تقدم إعلاماً مفيداً ، ومعلومات فى غاية الأهمية لصناع القرارات على مختلف المستويات وفى شتى المجالات . ولئن كانت هناك بعض الأخطاء فى عملية القياس فإنها ليست قاصرة على المسوح والاستطلاعات ، بل إنها موجودة فى كل نوع من فروع العلم بما فى ذلك العلوم التجريبية مثل : الفلك ، والطبيعة ، والكيمياء .... إلخ .

ويخلص المؤلفان من ذلك كله إلى أن الاستطلاعات والمسوح مستمرة فى الاتساع والازدهار ، وأنه لا توجد - حتى الآن - جهود حقيقية مبذولة من أجل منعها أو تقييدها - على الأقل - فى المستقبل المنظور . ولكن هل معنى ذلك أن الاستطلاعات لا تخضع لإساءة الاستخدام : كأن تستخدم مثلاً فى أغراض غير شرعية أو لا أخلاقية ؟

إن المؤلفَين يجيبان هذه المرة بالإثبات ، ويقرران أن ثمة استخدامات غير مشروعة ، ولا أخلاقية ، بل وتستغل عملية استطلاع الرأى لأغراض أخرى ومنها الاستطلاعات التى أصبحت توصم بأنها استطلاعات احتيالية أو زائفة Phony ،

وأن مثل هذه الاستخدامات تؤدى إلى تضليل الجمهور ، من ناحية ، وتشوه سمعة الاستطلاعات الجادة والمشروعة من ناحية أخرى . والمطلوب هو مراقبة مثل هذه الاستطلاعات اللاأخلاقية والسعى لمنعها بالطرق الشرعية وبقوة القانون (ص٢١٢) .

والخلاصة الأساسية التى يتوصل إليها الكتاب هى أن آثار الاستطلاعات والمسوح على المجتمع الأمريكى - بصفة خاصة - كانت إيجابية ومفيدة فى مختلف المجالات التى تستخدم فيها وهما يتوقعان مستقبلاً مزدهراً للمسوح والاستطلاعات فى النصف قرن المقبل ، وذلك فى ضوء التطورات الهائلة فى تكنولوچيا الاتصال ونقل المعلومات وحفظها ومعالجتها إحصائيا ، وأيضاً فى مجال المنهجيات المستخدمة فى عمليات التحليل والتفسير والتوقع .

ويختتم المؤلفان الكتاب بالتساؤل التالى : هل حققت الاستطلاعات الغاية منها ؟ ويجيبان بأن أمل مؤسسى الاستطلاعات كان نبيلاً ، فقد أرادوا أن يجعلوا الرأى العام قوة أساسية فى حكم المجتمع ، وهو الأمر الذى تحقق بدرجة كبيرة ، وبالرغم من أن بعض الاستطلاعات تستخدم بطرق غير أمينة ، ولأغراض لا أخلاقية ، وبالرغم من وجود بعض المشاكل المنهجية التى تحد من فائدة الاستطلاعات ؛ بالرغم من هذا وذاك فإن الاستطلاعات كانت وستظل أفضل طريق لقياس صوت الشعب .

ندوة

عالمية الحداثة والحضارات غير الغربية *

احمد زايد**

يعكس التراث السوسيولوجى المعاصر اهتماماً بالغاً بعالمية Globalization الثقافة ، وهو اهتمام ظهر فى توارد المؤلفات والحوارات والمؤتمرات التى تكرس لتدارس هذه القضية من جوانبها المختلفة . ولقد جسدت مجلة "النظرية ، والثقافة ، والمجتمع" والتى تصدرها دار سيج لنشر هذا الاهتمام بإصدار عدد خاص (صدر عام ١٩٩٢) عن الثقافة العالمية أو الكونية Global Culture ساهم فيه عدد كبير من علماء الاجتماع المرموقين من أمثال عمانويل والشين ، وبراين تيريز ، روبرتسون وغيرهم ولقد استجاب مركز البحوث المتعددة التخصصات Zentrurm für Interdisplinäre Forschung بجامعة بليفيلد بألمانيا الاتحادية لهذا الاهتمام العالمى عندما استجاب لطلب قسم التنمية والتخطيط بكلية الاجتماع بالجامعة لعقد مؤتمر حول عالمية الحداثة والحضارات غير الغربية يكون هدفه مناقشة الجوانب الأساسية لهذا الموضوع والتخطيط لعقد مؤتمرات أخرى تتناول جوانب أخرى أكثر تفصيلا . ولقد عقد هذا المؤتمر عبر يومين متتاليين ، وحضره متخصصون فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من أماكن متفرقة من العالم (أمريكا – السويد، والمانيا ،. ومصر ، واندونيسيا) . ولم يكن هدف المؤتمرين التوصل إلى نتائج حاسمة أو توصيات وإنما التخطيط لمشروع مستقبلى لعقد مؤتمرات أخرى فى

* Globality, Modernity and Non-Western Civilition, 7-8 May 1993, University of Bielefeld, germany.

** أستاذ علم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

مناطق إقليمية من العالم كالشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وإفريقيا . ولذلك فقد كان المؤتمر مائدة مفتوحة للنقاش الذى يتبلور حول قضية يطرحها أحد المشاركين . ولقد طرحت فى المؤتمر أربع قضايا نحصرها فيما يلى :

١ - القضية الأولى طرحها روبرتصون R. Robertson من الولايات المتحدة الأمريكية وترتبط بفكرة العالمية . ينطلق روبرتسون فى طرحه لقضية العالمية من منظور بارسونزى يدرس من خلاله النمو المطرد للعلاقات بين الدول والمجتمعات ، وهى علاقات بدأت منذ ظهور الاحتكاك بين الحضارة الغربية والمجتمعات الأخرى ومرت بمراحل متعددة . وظهرت العالمية . عبر هذه المراحل فى مستويات عديدة أهمها المستوى السياسى حيث أصبحت المجتمعات تتشابه فى نظمها السياسية على الأقل من حيث الشكل ، وعلى المستوى القيمى حيث تعممت على المستوى العالمى مجموعة من القيم الموحدة ، وعلى المستوى الإنتاجى والاستهلاكى ، وحتى على المستوى الدينى حيث تتشابه المظاهر الدينية والحركات الدينية برغم اختلاف معتقداتها ومراميها . ويعتقد روبرتسون أن طرحه لمفهوم العالمية يختلف عن طرح نظرية التحديث ، فهو لايقصد إلى القول بأن العالمية ترتبط بنشر القيم الغربية أو بخلق أشكال من الثقافة الغربية هنا وهناك تقضى على التقاليد المحلية أو نغزوها .

إن العالمية مفهوم يمكننا من أن نفهم - على مايعتقد - أشكالا عديدة من الصراع بين الثقافات والجماعات داخل المجتمع الواحد وعلى المستوى العالمى . ويتأسس ذلك على افتراض مؤداه أن كل ثقافة طالما تفترض وجود ثقافة أخرى غربية عنها تتفاعل معها ، فهى ثقافة عالمية . ويقال نفس الشئ عن سلوك الجماعات وحتى الأفراد . فطالما أن الفرد أو الجماعة يسلك فى ضوء سلوك آخر يفترض أنه مغاير فى ثقافته ، فإن هذا السلوك هو عالمى بالضرورة . وفى ضوء ذلك فإن حركات رفض الثقافة العالمية - كحركات الاحتجاج الدينى - ليست رفضا للثقافة الغربية ، وليست مقاومة لها ، ولكنها تعبير عن هذه الحركة العالمية فى الثقافة .

٢ - وفى مقابل ذلك طرح ثيربورن G. Therborn من السويد أفكاره حول طرق الحداثة roads to modernity فالحداثة فى عالمنا المعاصر ليست نتاج خط تطورى واحد كما تذهب نظرية التحديث . فليست الحداثة فى العالم ناتجة

فى مجملها عن غرس أو نشر للقيم الغربية فى أرض تقليدية وثقافة تقليدية ، بل أن الطريق إلى الحداثة على المستوى العالمى متعددة ، ولذلك فقد أدت إلى أشكال متعددة من الثقافات ، وإلى صنوف متعددة من الصراعات تنخرط كلها فى بناء عالمى واحد .

فهناك طريق الحداثة الذى ظهر فى المجتمعات الغربية والذى ارتبط بنمو العقل من ناحية والحرب الأهلية من ناحية أخرى ، لقد خاضت أوربا طريقا طويلا نحو خلق هذا المجتمع الحديث .

وهناك الطريق المرتبط بالعالم الجديد فى جنوبه وشماله ، والذى تم فيه نقل ثقافة بكاملها – هى الثقافة الأوربية – إلى حضارات أخرى مع محو هذه الحضارات .

وهناك الطريق الذى ارتبط باستعمار أجزاء من أفريقيا وآسيا ، والذى نقلت فيه أجزاء من الثقافة الغربية بما فيها تأسيس الدولة القومية فى دول لم يكن لها كيانات سياسية واضحة .

وهناك أخيرا الطريق الذى تصادمت وتفاعلت فيه ثقافتين لكل منهما تاريخها الخاص كما حدث فى اليابان والصين والأمبراطورية العثمانية .

إن هذه الطرق المختلفة للحداثة قد انتجت أبنية سياسية وثقافية مختلفة متفاعلة تتشكل بينها الآن عناصر تشابه على المستوى العالمى تبدأ من التشابه فى أبنية الدولة حيث باتت الدول فى معظم مجتمعات العالم تعتمد على حماية أرضها وسكانها وتحقيق الرفاهية لهؤلاء السكان .

٣ – ومن ألمانيا عرض چورج شتاوت G.Stauth لأفكاره عن الأصولية Fundamentalism وطابعها العالمى . فبدأ بطرح فكرة جديدة حول ما أسماه بأصولية الحداثة .

فالغرب قد انشغل لسنوات عديدة بدراسة الحركات الأصولية خارج نطاق الحضارة الغربية وتناسى أن الحداثة التى خلقت الحضارة الغربية هى نفسها حركة أصولية بدأت منذ بداية انفصال الكنيسة عن الدولة وظهور البروتستينية كحركة دينية أصولية وظهور حركة التنوير العقلانية .

إن هذه الأصولية الحديثية قد خلقت بناءً داخلياً حديثاً . ولقد أدى انتشار هذه الحركة الأصولية إلى أرجاء العالم المختلفة إلى ردود فعل أصولية نبعت من الحضارات والديانات القائمة فى الحضارات غير الغربية .

ففى حين تحاول الأصول الحديثية أن تفرض تحولاً نحو العلمانية ، تحاول الأصوليات الأخرى أن تفرض تحولاً نحو القداسة . وهنا تنشأ تقنيات ثقافية مختلفة متصارعة داخل إطار عالمى عام ، كما تنشأ أشكال من التفاعل بين هذه الثقافات حيث تطور كل ثقافة أساليب مختلفة للتعامل مع الثقافات الأخرى قد تختلف عن الأساليب المستقرة فى أبنيتها الداخلية .

٤ - وأخيرا عرض أحمد زايد من مصر أفكاره حول الإسلام والحداثة فى المجتمع المصرى كمثال لرؤية داخلية معبرة عن الحضارات غير الغربية . وبدأ طرحه بنقد نظريات التحديث ذات الرؤية الأحادية . وأكد على أن عملية التحديث فى الحضارات غير الغربية قد ارتبطت بظروف خاصة تحكمها ثلاث عمليات فرعية هى : السيطرة domination والعلمنة القسرية induced securalization والاستهلاكية consummerism (نشر ثقافة الاستهلاك ورموزها) ولقد أدت هذه الظروف الخاصة إلى خلق موقف تتفاعل فيه الثقافة التقليدية مع الثقافة الحديثة فى علاقة جدلية تقوم على التكييف تارة والرفض تارة أخرى . وتكون النتيجة أشكالا مشوهة من الحداثة ، أو ثقافة ثالثة لا هى جدية ولاهى تقليدية ولكنها فى جملتها بدائية أو زائفة . فمشروع الحداثة الناتج عن هذه الظروف هو مشروع برانى أو زائف Counterfeit يركز على الشكل دون المضمون ، وعلى تنمية الغرائز والمشاعر الفطريـة دون العقل ، وعلى الاستهلاك دون تنمية القدرات الداخلية .

وتنسحب علاقة التكيف - التناقض بين التقليد والحداثة على العلاقة بين نمط التدين والحداثة ، الأمر الذى يفرز تناقضات يمكن تتبعها عبر مستويات عديدة يمكن حصرها فى مستويين رئيسيين : مستوى التفاعل بين الدولة كمؤسسة حديثة وبين نمط التدين الرسمى ، ومستوى التدين فى الحياة اليومية لدى الفئات الاجتماعية المختلفة . وبذلت هنا محاولة لتحديد أشكال التناقض هذه للانتهاء إلى القول بأن هذه التناقضات هى فى جوهرها وليدة الصراع على منافع مشروع الحداثة ذاته ، الأمر الذى يستدعى نقداً لهذا المشروع سواء على المستوى الدولى أو على المستوى المحلى .

ورغم اختلاف المدخلات الأربعة إلا أنها أجمعت على حقائق عدة :

١ - إن نظريات التحديث لم تعد قادرة على تفسير أشكال الصراع الثقافى وتناقضاته على المستوى العالمى .

٢ - إن الثقافة على المستوى العالمى ، برغم مافيها من تناقضات إلا أنها تناقضات تحدث فى علاقة الأنا بالآخر على المستوى العالمى ، الأمر الذى يدعم الأطروحات الجديدة حول العالمية .

٣ - إن مزيدا من البحث والدراسة يجب أن يوجه نحو دراسة أشكال التفاعل interaction بين الثقافات على المستوى العالمى .

٤ - إن اهتماماً خاصاً يجب أن يوجه إلى الأساليب الخاصة الأصيلة فى عملية الإندماج فى الثقافة العالمية .

وانتهى المؤتمر بالتخطيط لثلاثة مؤتمرات تعقد على مستوى إقليمى فى الأعوام الثلاثة القادمة يكون القاسم المشترك فيها فكرة العالمية والحداثة مع التركيز على موضوع خاص فى هذا الإطار فى كل مؤتمر . أما هذه المؤتمرات فهى :

١ - العالمية : الإسلام والحداثة .

٢ - العالمية : الحداثة والقوة .

٣ - العالمية : الأصالة والاندماج الاختيارى .

وسوف يساهم فى المؤتمر الأول والثانى عدد من المفكرين من مصر والعالم العربى .

الحركة الإبداعية والبناء الاجتماعى السياسى لمصر
دراسة حالة لواقع المسرح المصرى من ١٩٥٢ : ١٩٨١ *

نسرين البغدادى **

مقدمـــة

يمثل المبدعون والكتاب جزءاً أساسيا من المثقفين ، تلك الفئة التى تساعد فى تشكيل الظاهرة الفنية ، فهى بذلك تثير عدداً من المشكلات فى علاقتها بالمجتمع باعتبارها اللسان المعبر عن وعى هذا المجتمع بنفسه وبغيره ، وهى أيضا الوظيفة التى يمكن أن تثار بشأنها الشكوك ، فإلى أى مدى استطاعت هذه الفئة أن تؤدى وتقوم بهذه الوظيفة ؟

ومن ثم فعلاقة الظاهرة الفنية بالواقع الاجتماعى تأخذ مناحى شتى متشابكة ، وتطرح الكثير من القضايا الفكرية والجمالية ، ويتفاوت هذا الطرح من جانب الأسس التى يقوم عليها ، فمنها المعيارى ، ومنها الوصفى .

وعلى الرغم من هذا التفاوت ، ففائدته كبرى ، حيث يفتح الباب أمام الاستقراء وهو أهم وظيفة يقوم بها العلم [1] ، ذلك لأن أى تعمق فى أبعاد هذه العلاقة ينطوى على تبصير لاشك فيه لطبيعة الظاهرة الفنية وللعناصر المختلفة المتضمنة فى العملية الإبداعية ، التى تضم العوامل الفردية الذاتية مع العناصر الاجتماعية الموضوعية بدرجات متفاوتة من الوضوح ، وعلى مستويات عديدة من الوعى واللاوعى الذاتى أو الجمعى على حد سواء .

* رسالة دكتوراه ، قدمت لقسم الاجتماع ، بكلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر .

** خبير بقسم بحوث الاتصال الجماهيرى والثقافة ، بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

كما أن التعرف على طبيعة العملية الجدلية الخصبة بين الظاهرة الأدبية والواقع الاجتماعى يتيح لنا المعرفة بكل من التجربة الإبداعية والأنساق الاجتماعية، ويجعلنا نستقصى العلاقة بين الأيديولوچيا واليوتوبيا إلى جانب دراسة الأساسى والفرعى فى التجربة الإنسانية ، ولمعرفة العوامل المؤثرة فى تطوير الأدب الذى يساهم بنصيب وفير فى الظاهرة الإبداعية . ويمكن تطبيق هذا على النص المسرحى باعتباره العمود الأساسى الذى يقوم عليه المسرح ، والذى يدخل فى إطار الظاهرة الأدبية الواقعة فى إطار المجتمع ، وهى أحد العوامل المشكلة له والمشكل لها .

ويرى عدد من علماء الاجتماع أن الأدب الذى يدخل فى إطاره النص المسرحى أو الدراما المسرحية – نظام اجتماعى social institution . ينطوى على نوع من العمل الجمعى ، الذى يشارك فيه عدد كبير من الأفراد وفق مجموعة متعارف عليها من التقاليد ، بصورة تؤكد على طبيعته الاجتماعية ، وتتجاوز البرهنة على أن هناك نوعا من التطابق بين أشكال النظام والأساليب والموضوعات الأدبية ، وتثبت أن الأدب إنما هو عمل اجتماعى ، بمعنى أنه تخلق عبر جهود شبكة من البشر يعملون معا ويقترحون إطارا يستوعب الأنماط المتباينة من الفعل الاجتماعى [1] .

ومن أهم مقومات دراسة الأدب توافر الوعى بالسياق الأدبى والاجتماعى للكتابات الذى يجعل الأدب شيئا مغايرا عن مجرد الإنتاج المباشر للأوضاع الاجتماعية [2] ، لأن الوعى بهذا السياق يجعل الدراسة الأدبية النقدية قادرة على رؤية الأنماط المتشابكة من العلاقات التى تربط المنتج بغيره من الإبداعات والمنتجات المماثلة له ، سواء كان على مستوى الفكر أو على مستوى الشكل الذى ينتشر عبر آفاق واسعة ومتباينة فى طبيعة التعبير الفنى .

وعلى الرغم من التاريخ الطويل للظاهرة الفنية بشتى صورها وأساليب تعبيرها المختلفة ، بل وأهميتها فى التطوير الاجتماعى ، فإنه لايوجد نسق مقولات يخدم أغراض التعميم والتفسير والتنبؤ فى مجال الفن – على وجه التحديد – وبخاصة فى مصر ، حيث إن الأطر النظرية المختلفة لاتنطبق كلية على المجتمع المصرى لما له من خصوصية . وفى غياب النظرية العامة لدراسة الظاهرة الفنية، فإن الضوابط المنهجية تقتضى وجود إطار نظرى . أو بعبارة أخرى سوف تتبنى الدراسة مجموعة من المقولات العلمية التى ترى أنها صالحة للاختبار العلمى .

لكن هناك من الصعوبات التى تكتنف هذا الإطار والتى تنبع من الظاهرة الفنية ، على جانب كبير من التعقيد - بحيث تمتد إلى كافة العلوم الاجتماعية - وبذلك ينشأ تناقص فى شمولية الإطار . أما الصعوبة الأخرى ، فتعود إلى ربط الإطار النظرى للظاهرة فى إطار أعم للبناء السياسى والاجتماعى للمجتمع .

والإطار النظرى المقترح - لدراسة الظاهرة موضع البحث - يقوم على تصور أن الظاهرة الفنية نسق system حركى Dynamic متعدد الجوانب ، ويتم التعرف على نسق ما بتحديد جوانبه المختلفة والتشابكات بينها ، فالعلاقات بين العناصر هى لب النسق . أما الطابع الحركى للنسق فيأتى من تحديد خط التطور الزمنى لجوانبه المختلفة وللعلاقات بينها [٣] ، وأيضا الجوانب الأساسية للظاهرة الفنية- على وجه التحديد للمسرح المصرى - النشأة ، والمجالات ، والإطار الاجتماعى السياسى والأثر .

والعلاقة بين الأدب المسرحى والأيديولوچيا معقدة ، إلا أنها تتطلب تحليلا يكشف العلاقات المتعددة والمتنوعة والجدلية بين البنية التحتية والبنية الفوقية ، وبين كل مستوى من مستوياتها ، كما أنها تتطلب أيضا المعرفة بإطارات الأيديولوجية بمختلف أشكال الخطابات التى تنتجها ، ثم تحليل العلاقة بين الأيديولوچيا كمفهوم نظرى ومجسد وبين شكل من أشكال خطاباتها ، وهو الأدب بصفة عامة ، والأدب المسرحى بصفة خاصة .

ومن هنا فإن الدراسات السسيولوچية للأدب ، تجد نفسها فى منطقة تقاطع بين مختلف المناهج والتصورات العلمية والمثالية ، وحقل صراع أيديولوچى لاينفصل عن الصراع الوطنى أو الاجتماعى مهما ارتدى من أقنعة .

وللخروج من المشكلات السابقة ، فإن الصيغة العلمية لدراسة العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا هى الصيغة التى ترى الأدب ممارسة أيديولوچية مشروطة بزمانها ، وتتم تطبيقيا فى حقل اجتماعى أيديولوجى محدد ، لأن الأدب لايظهر من العدم ، ولا هو من خلال إلهام كاتب كما يدعى النقد المثالى ، وإنما الأدب مشروط بسياق سسيوتاريخى محدد على مستوى الأيديولوچيات المتصارعة ، فى ظرف تاريخى من تطور المجتمع وعلاقاته الاجتماعية والطبقية [٤] .

وعلى ذلك فإن الأدب يعتبر شكلا أيديولوچيا . والأيديولوچيا هى البنية الفوقية للأنساق الفكرية وللوعى الاجتماعى ، تلك البنية التى تعبر عن علاقات اجتماعية محددة ، وهنا يكون الأدب شيئا تابعا لوجود سابق هو وجود

الأيديولوچيا . فهو يعيد إنتاجها ويعطيها شكلها ، وبعبارة أخرى ، فالعلاقة بين الأيديولوچيا والأدب علاقة حميمة من حيث أن الأدب شكل من أشكال الأيديولوچيا وخطاب خصوصى من خطاباتها ومن إنتاجها .

والأيديولوچيا نسق من التصورات ، يحكم الفكر والممارسة ، ويشكل فى نفس الوقت التركيبة الاجتماعية فى مستوى من مستوياتها المتعددة . فهناك تأثير متبادل ، ومتداخل بين البنية الفوقية والتحتية لأى مجتمع ، حيث تتضمن الأيديولوچيا الأفكار السياسية الدينية والقانونية والأخلاقية ، التى تتجلى فى أشكال وتصورات متعددة للعالم ، ولدور الإنسان فيه . وفيها يتوافق أو يتناقص الإنسان مع عالمه ، حيث يذكر جرامش [٥] أن الأيديولوچية تعنى تصورا للعالم ، يتجلى ضمنيا فى الفن والقانون وفى النشاط الاقتصادى وفى جميع مظاهر الحياة الفردية والجماعية . وبهذا المعنى تصبح الأيديولوچيا المعاش اليومى والانعكاس الممارس لمختلف العلاقات التى يقيمها الإنسان مع سائر الناس ومع الطبيعة .

ولكن لماذا المسرح ؟ من المسلم به أن المسرح يمثل انعكاسا للأدب ، بل ويأخذ مادته من الأحداث السياسية والتاريخية ، ومن خلاله نستطيع التعرف على السمات الخاصة بالمجتمع ، لأن الفن بصفة عامة - والمسرح بصفة خاصة - قد ارتبط منذ بداياته بالأحداث الاجتماعية والسياسية التى مرت بالمجتمعات التى نشأ فيها . بعبارة أخرى فإننا نستيطيع التاكيد على أن الفن ظاهرة اجتماعية تتشكل بتطور المجتمع وأحداثه ، والمسرح - لتميزه من حيث ارتباطه المباشر بالجمهور وعلاقته الوطيدة بكثير من الفنون - يعد أكثرها حساسية تجاه الظروف الاجتماعية والسياسية .

ومن خلال تتبع جذور ظاهرة المسرح يتضح لنا الصلة بين هذه الظاهرة والعديد من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فكانت أحيانا انعكاسا لهذه الظواهر ، وأحيانا أخرى ناقدة وتحمل بين طياتها أفكار التغيير والثورة [٦] .

أهداف الدراسة

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق عدد من الأهداف :

١ - الكشف عن العلاقة الدينامية بين الظاهرة موضوع الدراسة (المسرح) والأيديولوچيا من حيث التأثير المتبادل بينهما .

٢ - الكشف عما يمكن تسميته بالأيديولوچيا المضمرة أو الكامنة التى يعمد

بعض مبدعى المسرح من الكتاب المصريين إلى تسريبها من خلال المواقف المختلفة للنص .

٣ - الكشف عن طبيعة العلاقة القائمة بين مضمون النص المسرحى وطبيعة البناء السياسى والاجتماعى - فى مصر - فترة الستينيات .

٤ - الكشف عن العلاقة بين مضمون النص المسرحى وطبيعة البناء السياسى والاجتماعى لفترة السبعينيات فى مصر .

٥ - الكشف عن اتجاهات الممارسين من المبدعين المسرحيين ورؤاهم المختلفة مقارنين هذه الاتجاهات والرؤى بمثيلاتها لدى الناشئة .

٦ - محاولة الوصول إلى نموذج مسرحى مرغوب من واقع اتجاهات الممارسين من المبدعين المسرحيين ، ووجهات نظر الناشئة من طلاب المعهد العالى للفنون المسرحية ، من خلال وأيضا تصوراتهم الاستشرافية لملامح المسرح المصرى فى المستقبل .

تساؤلات الدراسة

تتطلع الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية :

١ - هل هناك علاقة بين المسرح والأيديولوچيا ؟ بعبارة أخرى ماهى طبيعة العلاقه بين المسرح والأيديولوچيا وأيهما أكثر تأثيراً وتأثراً بالآخر ؟

٢ - هل يحمل النص المسرحى أيديولوچيا كامنة خاصة بالمؤلف ؟ وهل عمد فى بعض الأحيان إلى تسريب أفكار مضمرة بين سطور النص ؟

٣ - ماهو شكل العلاقة بين مضمون النص المسرحى والبناء السياسى الاجتماعى فى فترة الستينيات ؟

٤ - ماهو شكل العلاقة بين مضمون النص المسرحى والبناء السياسى الاجتماعى فى فترة السبعينيات ؟

٥ - ماهى رؤية المبدعين المسرحيين لظاهرة المسرح فى مصر ؟

٦ - ماهى رؤية الناشئة من الفنانين لظاهرة المسرح فى مصر ؟

٧ - هل يمكن تصور ورسم ملامح مستقبلية لظاهرة المسرح فى مصر ؟

منهج البحث وأدواته

استخدم المنهج التاريخى لضرورة المقارنة بين الأعمال المنتقاة فى إطار العينة ، والتى نسعى إلى تحليل نصوصها وذلك فى فترة الستينيات والسبعينيات ، على

أساس تفسيرى ، فلعلنا بذلك نؤكد ما ذهب إليه "ابن خلدون" من ضرورة تفسير الظواهر باستخدام منطق التعليل ، حيث إن الصراع من أهم العمليات التى تؤدى إلى تطور الحياة الاجتماعية . كما يرى أيضا أن الصراع بين من بيدهم السلطة فى المجتمع يؤدى إلى انتقال نظام الحكم من نظام له سمات معينة إلى نظام آخر يختلف عنه . استخدمت الدراسة عددا من أساليب البحث وأدواته :

اولا : تحليل المضمون الكيفى للنص المسرحى

أورد مصطفى سويف [٧] خطوات عديدة لتحليل مضمون النص كالآتى :

أن تحليل النص الأدبى المسرحى يقوم على استخلاص ثلاثة أبعاد وهى : الموضوع ، المحاور ، والعناصر.

والمقصود بالموضوع : هو جوهرالرسالة التى ينطوى عليها مضمون النص، أو هو خلاصة هذا المضمون فى جملة بسيطة أو مركبة .

والمقصود بالمحور : الفكرة التى تغير من سير الأحداث فى النص بحيث تؤدى إلى مرحلة جديدة فى نمو القصة أو نمو الحدث العام للنص *والمقصود بالعنصر* . الحدث الجزئى ، وعلى هذا الأساس يمكن تصور الهيكل الأساسى للنص على أنه هيكل هرمى ممتد الموضوع ، وهذا يحتوى على عدد من المحاور ، والمحاور تحتوى على عدد كبير من العناصر .

إلا أنه فى تحليلنا تم الاكتفاء بكل من الموضوع ، والمحور ، وقد وضعت عددا من القواعد تم اتباعها عند إجراء التحليل هى كالآتى :

- عند إجراء التحليل ، يقرأ النص المسرحى دفعة واحدة ، ويستخلص منه الموضوع (الفكرة الأساسية) على ضوء هذه القراءة .
- يقرأ النص مرة ثانية لاستخلاص المحاور أو الأفكار الفرعية ، ثم يقرأ مرة ثالثة للتأكد من أن الموضوع يضم هذه الأفكار الفرعية .
- عند استخلاص المحاور أو الأفكار الفرعية ، لابد من التقيد بحرفية النص أو بما ذكر صراحة فوق السطور ، ويتحاشى فى هذه المرحلة قراءة مابين السطور أو أية محاولة للتأويل .
- فى استخلاص الأفكار الفرعية ، يفضل دائما إفراد كل فكرة على حدة ، والابتعاد عن الإدماج ما أمكن ، وذلك على أساس أنه إذا بدأنا بالإدماج واحتجنا فى مرحلة تالية للإفراد فلن نستطيع ، أما إذا بدأنا بالإفراد فالإدماج ميسور فى المراحل التالية .

ثانيا : الإستبيان

للتعرف على آراء الناشئة من الفنانين الدارسين أكاديميا ، وتم تطبيقه على طلاب الفرقة الرابعة للوقوف على آرائهم واتجاهاتهم نحو الظاهرة المسرحية فى مصر . واستخدام هذه الأداة لأنها لفظية بسيطة ومباشرة تهدف إلى التعرف على ملامح خبرات المبحوثين واتجاهاتهم نحو موضوع معين (الظاهرة المسرحية) ، وذلك من خلال أسئلة وجهت إليهم حول هذه الخبرات وتلك الاتجاهات ، ومحور اهتمام الإستبيان أيضا الاتجاه العام وخصائصه الذاتية والعلاقات الشخصية التى تحدد أفكار وأحاسيس المبحوث نحو الآخر ، شخصا أو فكرة أو موضوعا ، ويتم التطبيق ذاتيا من خلال المبحوثين (٨) .

وقد حوى الإستبيان عدداً من المحاور حاولت الكشف عن عدة متغيرات ، حيث ضمت محور بيانات أساسية عن الطالب ، محوراً عن علاقة الطالب بالمعهد وأخر عن آرائه نحو المسرح بصفة خاصة ، والمحور الأخير عن رؤيته المستقبلية واتجاهه نحو الحركة المسرحية المصرية .

ثالثا : المقابلة Interview

استخدام المقابلة المقننة من خلال عمل دليل Index لها ، وقد تم تسجيل بعض هذه المقابلات والآخر عن طريق تسليم هذه الأسئلة (لأن بعضهم فضل الكتابة على التسجيل) ، والمقابلات المسجلة تم تفريغها ، ونظمت كل الإجابات وفق محاور مع عقد مقارنات فيما بينها مع ربطها بالأطر النظرية الخاصة بعلم اجتما ع الأدب مع محاولة للتفسير ، واستخدام هذه الأداة بغرض الوقوف على آراء المبدعين فى مجال المسرح – الذى ضم عدداً من المخرجين الممثلين – والنقاد الأكاديمين بشأن بعض القضايا المطروحة فى الدراسة ، وقسمت الأسئلة وفق محاور ، ضمت التيار الفكرى وعلاقته بالأدب ، الإبدا ع فى مصر ، الموقف من الحركة المسرحية فى الماضى والحاضر ، وتصور عن شكل مستقبل المسرح المصرى .

العينـــة

اولا : عينة تحليل المضمون

تم اختيار الأعمال الأدبية على أساس استبعاد كل من الأعمال المترجمة أو الأعمال التى تم تمصيرها أو الأعمال الشعرية .

وفى فترة الستينيات اختير أكثر الكتاب شهرة ، ومعرفة لدى الجماهير، ويستطيع أى من أفراد المجتمع التعرف على أعمالهم حتى مالم يستطع ذكر الاسم .

وتم اختيار عينه لكل كاتب بطريقة عشوائية ، باعتبار أن الكاتب وحدة متجانسة ، واختيار أى عمل له سوف يعبر عن اتجاهاته .

١ - فى فترة *الستينيات* تم اختيار كل من الأعمال الآتية :

- ياطالع الشجرة - الورطة (توفيق الحكيم) .
- جمهورية فرحات - ملك القطن (يوسف إدريس) .
- القضية - الأرانب (لطفى الخولى) .
- كوبرى الناموس - كفر البطيخ (سعد الدين وهبه) .
- عسكروحرامية - الفخ (ألفريد فرج) .
- الناس اللى فوق - الناس اللى تحت (نعمان عاشور) .

وتم استبعاد السنوات ١٩٥٦ ، و١٩٦٧ حيث إنهما يمثلان حدثا مباشراً ينعكس بصورة واضحة على العمل وعلى الكاتب .

٢ - فى فترة *السبعينيات*

تم اختيار أكثر الكتاب شهرة فى هذه الفترة ، وهى ما يطلق عليها النقاد عقد الدكاتره الأربعة .. وتم اختيار أعمالهم بطريقة عشوائية أيضاً ، حيث تم اختيار عملين لكل منهم :

- الناس فى طيبة ، الرهائن (عبد العزيز حمودة) .
- الفارس والأسيرة ، لعبة السلطان (فوزى فهمى) .
- ست الملك ، امرأة العزيز (سمير سرحان) .
- البر الغربى ، ميت حلاوة (محمد عنانى) .

وتم استبعاد أيضا حدث ١٩٧٣ لنفس المبررات السابقة ، حيث يطلق عليه عمل *اللحظة السريعة* .

ثانيا : عينة الاستبيان

تم تطبيقه على طلاب الفرقة الرابعة ، بالمعهد العالى للفنون المسرحية ، باعتبار أن الطالب قد وصل إلى قمة استيعابه للمواد الدراسية ، واستطاع أن يبلور لنفسه اتجاهاً محدداً .

اهم النتائج والاستخلاصات

نستطيع من خلال الاتجاهات الفكرية والمداخل النظرية لدراسة الأدب أن نحدد خصائص تميز الظاهرة الفنية ، والتى تؤخذ فى الاعتبار عند دراستها :

١ - تتميز الظاهرة الفنية - بما تتضمنه من مظاهر عديدة - بطبيعة خاصة بحيث تتشابك فيها العناصر الفردية الذاتية مع العناصر الاجتماعية الموضوعية ولكن بدرجات متفاوتة .

٢ - تختلف طبيعة الظاهرة الفنية من مجتمع لآخر، ومن حقبة زمنية لأخرى على مستوى المجتمع الواحد .

٣ - الوعى بالسياق المجتمعى الذى تنتج فيه الظاهرة الفنية .

٤ - التعرف على ملامح الطبقة المسيطرة والحاكمة للمجتمع عند دراسة الظاهرة الفنية ، لأنها تحاول التأكيد على وجودها من خلال الظاهرة الفنية ، وهذا ماتوصلت إليه الدراسة من نتائج عبر تحليل المضمون .

٥ - هناك أيديولوچية ظاهرة تعكسها الظاهرة الفنية وتحمل بين طياتها أيديولوچية كامنة ، سواء كانت أيديولوچية الطبقة التى ينتمى إليها الكاتب ، أو كانت أفكارا خاصة بالطبقة المسيطرة ، أو رؤية مخالفة لرؤيتها لتسريبها عبر هذا الوسيط من خلال أيديولوچية مصغرة .

وقد أظهر التحليل الخاص بدراما الستينيات والسبعينيات ، أن بعض الكتاب (من خلال العينة المختارة) قدعمدوا إلى تسريب بعض الأفكار الخاصة بانتماءاتهم الفكرية والأيديولوچية ، على الرغم من الأفكار الظاهرة التى تواكب أفكار الطبقة الحاكمة أو الطبقة المسيطرة .

وبذلك تتفق المقولة النظرية التى انطلقت منها الدراسة "الخاصة بماركس" (أن أفكار الطبقة الحاكمة هى دائما الأفكار المسيطرة) .

وإذا كانت هناك دراسات عديدة قامت بالدرس والتمحيص للمنتج الأدبى فى فترة الستينيات ، وأظهرت أن المسرح كان أداة لنقد السلبيات وتجسيمها أمام المسئولين والجمهور ، وكان أداة توجيه للنظام يرسم له الخطى كما ظهر فى بداية الخمسينيات فى أعمال مثل السلطان الحائر ، جمهورية فرحات [٩] ، فإن فى الستينيات كان الميل إلى النقد أوضح . وقد دفع الكتاب إلى خشبة المسرح الجدل السياسى الدائر حول السلطة فى منتصف الستينيات ، وتناولوا قضايا محددة من الواقع السياسى مثل قضية - حرب اليمن - فى الفتى مهران ، وموقف

الشيوعيين وانضمامهم إلى الاتحاد الاشتراكى كما فى مسرحيتى "الوافد" "والفتى مهران" [١٠] .

وامتدت النبرة النقدية مع مطلع الستينيات ، وكانت البداية بمسرحية الدخان. كذلك انتقد فتحى رضوان فى مسرحيتى "المحلل" "والجلاد والمحكوم عليه بالإعدام"، مظاهر انتهاك الحرية ، وتجلت بداية الإدانة الصريحة فى مسرحية "الفرافير" التى نقد فيها يوسف إدريس كل من حوله وكل ماحوله ، ثم مسرحية حلاق بغداد ، وندد رشاد رشدى بالظلم والطغيان فى مسرحية اتفرج ياسلام ، وصور صلاح عبدالصبور فى مسرحيته مأساة الحلاج ، مأساة المثقف المقهور ومحنة الشعب المطحون بين رحى القيود .

كذلك طرح لطفى الخولى فى مسرحية قهوة الملوك مفهومه للحرية .

وانتهت الدراسة إلى أنه من خلال دراسة قضية الحرية فى المسرح المصرى المعاصر فى سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٧ هى أن مايقدمه المبدعون فى مجالات الإبداع الأدبى والفنى المختلفة فى فترة من الفترات يرتبط دوما بالتغيرات فى الأوضاع السياسية فيه [١١] .

إلا أن "غالى شكرى" يرى أن (هناك ضجة أحاطت ببعض الأعمال التى ادعى أو تطوع الآخرون بالادعاء نيابة عن أصحابها ، أنها تندرج فى خانة المسرح السياسى . وهى الضجة التى بدأت بمسرحية "الفرافير" ليوسف إدريس ، وتجددت مع "الفتى مهران" لعبد الرحمن الشرقاوى ، واستجدت مع "بير السلم" لسعد الدين وهبة ، وعنفت مع "بلدى يابلدى" لرشاد رشدى ، وازداد عنفها مع "العرضحالجى" لميخائيل رومان ، ووصل العنف ذروته مع بقية العروض التى عدلت، أو أجلت أو أوقفت طوال الموسم ، ومسرحيتى "سبع سواقى" ، والأستاذ لسعد الدين وهبة "والحسين" لعبد الرحمن الشرقاوى .

ومن قبيل مراجعة النفس ينبغى الاعتراف بأن معظم الضوضاء التى أثيرت وتثار كل مرة لايرجع سببها الرئيسى إلى الاتجاه السياسى للكاتب بقدر مايرجع إلى درجات متفاوتة من الجهل لدى القائمين على المنع والمنح ، وإلى درجات متفاوتة من المزايدات السياسية لدى القائمين على النقد والنقص . إن جميع الأعمال المسرحية التى تعرضت لكثير من المشاحنات ، لم تتعرض لجوهر نظامنا السياسى بسوء ، وإنما تناولت الجزئيات والتفاصيل التى من شأنها الإساءة إلى هذا النظام فيما لو بقيت على حالها دون تغيير ، ومن هناك يمكن القول بأن غضب

الغاضبين قبل الخامس من يونيو لم يكن ليزيد على كونه غضباً هشاً أقرب إلى النرفزة منه إلى الغضب الحقيقى الذى يتناول الجوهر والجذور) [١٢] .

وإذا كانت فترة عبد الناصر قد اتسمت بسمات متعددة ، نركز على أهمها، وهو محورالديمقراطية ، وذلك لاعتبار أنها تتعلق بشكل التنظيم الاقتصادى والسياسى ونوعية العلاقات السائدة فى المجتمع ، ولأنها وثيقة الصلة بمفهوم الدولة حيث يتطلب ذلك – بالضرورة – وجود نخبة سياسية تقود هذه الدولة ، وفى هذه الأحيان تفرز الطبقات المسيطرة أقلية تفرض سلطانها على غالبية أعضاء المجتمع .

فنجد أن النظام قد استحدث تنظيما سياسيا واحدا على نحو تجميعى هيئة التحرير استبدلته فيما بعد بالتنظيم السياسى الواحد المسمى بالاتحاد القومى ، ومن بعده الاتحاد الاشتراكى ، الذى اعتبرته السلطة تنظيما وحركة جماهيرية تدعم التضامن الاجتماعى والوحدة المعنوية للشعب ، واعتبرته أنه يمثل الإرادة العامة للشعب ، ورفض النظام مفاهيم التعدد السياسى ، والصراع الحزبى متمشيا مع السلوك الاقتصادى الذى اتبعته السلطة فى ذلك الوقت ، وركز على الوحدة الوطنية .

واتسمت السلطة فى هذه الحقبة بدرجة عالية من الفردية ، وتجلى دور التنظيمات الجماهيرية فى التعبئة لصالح النظام ولدعمه ، وأن تكون أداة لتنفيذ أهدافه ، وأن تكون موصلاً جيداً للسلطة تبث من خلالها تعاليمها وعقائدها وأهدافها .

استطاع النظام فى هذه المرحلة أن يقنن العلاقة بين الملاك والمستأجرين بإصدار قوانين الإصلاح الزراعى ، وبدأ الحراك الاجتماعى يعتمد على مؤشرات التعليم والعمل . وانحازت السلطة فى هذا الوقت إلى صغار المنتجين فى الصناعة والزراعة . وقد ساهم قانون الإصلاح الزراعى فى إعادة جزء هام من الريع العقارى للمستأجرين لتحديد القيمة الإيجارية ، ومن ثم ساعد على تحسين الأوضاع الاقتصادية نسبيا للفلاح بعد الثورة .

ومن هنا استطاع النظام عبر وسائط مجتمعية أن يدعم مكانته ويبث أفكاره . ومن ثم يبرز سؤال ملح حول موقف الدراما من النظام الجديد ؟ .

فقد أظهرت الدراسة الماثلة للنصوص المسرحية التى اختيرت ، أن غالبية الأفكار الأساسية والفرعية ، التى أراد الكتاب توصيلها ونشرها كانت تتفق ورؤى

النظام السياسى ، وقد أغفل النص المسرحى "قضية الحرية" فى فترة الستينيات فى جميع نصوصه التى تم تحليلها ، فيما عدا فكرة فرعية وردت لدى لطفى الخولى فى أسلوب رمزى عن أهمية توافر الحرية لدى الفرد ، إلا أن السكوت عن قضية الحرية فى النصوص المسرحية جاء متمشيا مع إغفال النظام السياسى لها .

ونستطيع التأكيد على أن النظام السياسى فى فترة الستينيات استطاع أن يبسط نفوذه على الحياة المجتمعية بشتى أبعادها ، وحاول نشر أفكاره وقيمه من خلال وسائط متعددة امتدت إلى الفن وبصورة أكثر تحديداً إلى المسرح .

وإذا كانت هناك دعاوى تؤكد على وجود نهضة مسرحية فى فترة الستينيات فالفضل الأول فيها يرجع إلى النظام السياسى الذى استطاع أن يخلق جيلاً من الكتاب مروجاً لأفكاره ضماناً منه لاستمراريته .

أما عن موقف الدراما فى فترة السبعينيات ، فقد جاء النص المسرحى مواكباً ومؤيدا لممارسات النظام السياسى الذى كان قد شن هجوماً على نظام الستينيات والحكم الشمولى ووصفه بالشيوعية وتقييد الحريات . فجاءت جميع النصوص مواكبة لاتجاه السلطة فى مهاجمة النظام السياسى السابق لها ، وأيدت النظام الحالى فى مساعيه نحو السلام . إلا أن نصاً مسرحياً واحداً جاء لدى محمد عنانى تناول من خلاله سلبيات المجتمع ، وتناول قضية الجماعات الإسلامية وانتشارها ، وتبيان الأسباب التى جعلت الشباب ينضم إلى هذه الجماعات ، وإتهم النظام الاجتماعى بأنه السبب وراء انتشارها . ومع ذلك فإن السمة الغالبة للنص المسرحى اتجهت نحو تعضيد توجهات السلطة التى استطاعت فرض اتجاهاتها على الظاهرة المسرحية ضمانا منها للاستمرارية .

- إما بالنسبة لنتائج الدراسة الميدانية ، فلقد اتفق الممارسون والمبدعون الاكاديميون وجيل الناشئة من الفنانين على القضايا الآتية :
- إن الأدب لايمكن أن يكون فى خدمة السلطة ، وأن أى عمل أو سلوك بشرى لايخلو من ظلال أيديولوچية ، حيث إن العمل الإبداعى موقف أيديولوچى مُشَكلْ ، وأن استخدام أى عنصر له مدلوله الأيديولوچى .

كذلك فقد أكدوا على أن الحرية هى جوهر كل إبداع ، فالإبداع تحرير وحرية ، ولابد للمسرح أن يتطلع إلى النقد الاجتماعى لأن هذا ضمن وظائفه الاجتماعية ، والمسرح الحقيقى لابد وأن يجمع بين كل ضروب المتعة من غير فصل أو تعارض او تضاد .

إلا أن الرؤى قد تباينت حول وصف مسرح الستينيات ، فمنهم من رأى أن المسرح كان مواكبا للنظام فى هذه الفترة ، والبعض الآخر رأى أن المسرح كان مسرحا اجتماعيا مرتبطا بالواقع الذى كان يمور بالمتغيرات .

وأكد الجميع على أن الحرية والعدل الاجتماعى والاكتفاء الاقتصادى إلى جانب الدراسة الواعية وتوافر الموهبة من جانب الفنان من أهم الشروط لتخلق العملية الإبداعية .

وبعد ... إذا ما أردنا أن نأمل فى صورة مرغوبة للمجتمع المصرى حيث مصر المستقبل تتطلع إلى دور أساسى فى النظام العالمى الجديد الذى يقوم على رفض العنف والاستغلال وعلى شيوع المعارف والمعلومات ، فلابد وأن يكون للمسرح دور أساسى فى المجتمع يتمثل فى استيعاب الموروثات العالمية . فالمسرح هو الفن الجماهيرى الأول . لذلك يجب أن يكون معداً لاستيعاب هذا الدور ولصناعة المستقبل وذلك وفقا لعدد من الشروط :

أولاً – شروط موضوعية : منها . توافر الحريات بكافة صورها وأشكالها ، وتقلص دور السلطة ، وإلغاء الأحكام العرفية وكل القوانين المقيدة للحريات . فلا إبداع دون حرية ، وأن يعرف الشعب حقوقه ويحرص على أن يحصل عليها . كذلك فلابد أن تواصل الدولة تدعيمها للمسرح ، والاهتمام والنهوض بجميع قطاعاته ، ووضع خطة إعلامية يكون الغرض منها إرجاع مفهوم المسرح إلى الأذهان ، الاعتماد على الشباب الموهوب .

ثانيا – شروط ذاتية : متمثلة فى أن يبحث المسرح جميع قضايا الإنسان ، وأن يكون قادراً على التجديد والتغيير والتنوير . بالإضافة إلى توافر الناقد الأكاديمى ، وإعداد الفنان المسرحى إعداداً أكاديميا .

وإذا ما توافرت هذه الشروط وتضامنت جميع الأدوار الموزعة على الأسرة والمؤسسة التعليمية ، والمؤسسة الأكاديمية الفنية المتخصصة ، وإعداد الفنان أكاديميا ، وتغيير رؤية المجتمع بصفة عامة "للفن" ، وللمسرح بصفة خاصة ، عندئذ يكون هناك مسرحاً يلعب دوراً أساسيا فى صياغة المجتمع المصرى المرغوب .

38. Ibid., Ch. 11.

39. Cohen, Louis & Holliday, Michael (1982) Statistics For Social Scientists. London: Harper & Row, p. 93.

40. Idem.

41. Midgley, James & Sanzenbach (1989) "Social Work, Religion and The Global Challenge of Fundamentalism", International Social Work, Vol. 32, No. 4, pp. 273-287.

42. Midgley, James (1983) Professional Imperialism: Social Work In The Third World, London: Heinemann, p. 170.

19. Parsons, Talcott (1954) The Social System. Glencecoe, Ill: Free Press, pp. 457-467.

20. The N.A.S.W. Code of Ethics, op. cit.

21. See for example: Younghusband, Eilleen (1970) "Social Work and Social Values", Social Work Today, Vol. 1, No. 6, pp. 5-13.

22. Seim, Sissel (1986) "Rules of Ethics in Social Work" Nordic Journal of Social Work, Vol. 1, pp. 3-18, in Swedish, Translated especially for the researcher by Eva Westberg a senior social worker in Sweden.

23. Ibid., pp. 17-18.

24. See: Abo El Nasr, Medhat & Walton, Ronald (1988) "Indigenization and Authentization in terms of Social Work", International Social Work, Vol. 31, No. 2, pp. 135-144.

25. See: Abo El Nasr, Medhat & Walton, Ronald (1988) "The Indigenization and Authentization of Social Work in Egypt", Community Development Journal, An International Forum, Vol. 23, No. 3, pp. 148-155.

26. Social Workers, Union (1973) Official Paper for the Social Workers, Union Board, 14, 23, Cairo.

27. B.A.S.W. (British Association of Social Workers) (1986) The Code of Ethics;. The U.K.: B.A.S.W. Publications.

28. Code of Ethics of Development Practitioners (1979) Ideas & Action Journal, Vol. 6, No. 132.

29. Code of Conduct of the American Association for Public Opinion Research (1977) The U.S.A.: The A.A.P.O.R. Publications.

30. Code of Practice for Residential Care (1984) Report of a Working Party Sponsored by the D.H.S.S. and the Centre for Policy on Aging. London: Henry Ling Ltd., The Dorset Press, p. 16.

31. Clark, Chris with Asquith, Stewart (1985) Social Work and Social Philosophy, A Guide for Practice. London: Routledge and Kegan Paul, p. 85.

32. Babbie, Earl (1979) The Practice of Social Research. Belmont CA: Wadsworth. pp. 334-335.

33. See: Abo El Nasr, Medhat (1989) Social Work Practice and Political Parties at the Local Level in Egypt. Doctoral Dissertation, Unpublished, University of Wales, College of Cardiff, pp. 289-291.

34. See: Ibid., Ch. 11.

35. See For example: Reda Abdul Halem (1971) Community Organization Practice in Factories. Master's Thesis. Unpublished, the Higher Institute of Social Work in Cairo, In Arabic with English Summary.

36. See For example: Abo El Nasr, Medhat (1981) The Obstacles to Development Projects in the Egyptian Village. Master's Thesis, Unpublished, Faculty of Social work, Helwan University, Cairo, In Arabic with English Summary.

37. Abo-EL-Nasr, Medhat (1989) op. cit., pp. 301-303.

References

1. Reading, Hugo (1977) A Dictionary of the Social Sciences. London: Routledge & Kegan F. Paul, p. 38.

2. Oxford Dictionary (1984) Edited by Sykes, J.B. Oxford: The Clarendon Press, p. 180.

3. Warwick, Donald (1983) "The Politics and Ethics of Field Research" in Bulmer, M. & Warwick, D. (eds.) *Social Research in Developing Countries.* Chishester: John Wiley & Sons, pp. 316.

4. Oxford Dictionary, op. cit, p. 331.

5. Mckinlay, J. (1973) "On the Professional Regulation of Change" in Halmos, P. (ed.) Professionalisation and Social Change, Sociological Review Monograph 20, University of Keele Press, p. 308.

6. Richards, Huw (1985) "Social Work, Professional Social Workers and the Code of Ethics", in Watson, D. (ed.), pp. 123-124.

7. Watson, David (1985) (ed.) A Code of Ethics for Social Work, The Second step. London: Routledge & Kegan Paul and B.A.S.W., Introduction.

8. Kiester, Dorothy & Pfouts, Jane (1985) "The Value for Social Work", in Fink, Arthur et. al. (eds.) The Field of Social Work. Beverly Hills: Sage, p. 23.

9. See: Sutherland, John (1985) "A Doctor Looks at a Code of Ethics for Social Work", in Watson, D. (ed.), op. cit. pp. 155-156.

10. N.A.S.W. (National Association of Social Workers in the U.S.A.) (1960 , 1980) The Code of Ethics. The U.S.A.: N.A.S.W. Publications.

11. Greenwood, Ernest (1957) "Attributes of a Profession", Social Work, II (July), pp. 44-45.

12. Freidson, E. (1970) Profession of Medicine, A Study of the Sociology of Applied Knowledge. New York Harper & Row, pp. 71-84.

13. Johnson, Terence (1972) Profession and Power. London: Macmillan, p. 23.

14. See: Etzioni, Amitai (1969) (ed.) The Semi-Professions and Their Organization, Teachers, Nurses and Social Workers. New York : The Free Press.

15. See: Siporin, Max (1975) Introduction to Social Work Practice. New York : Macmillan, p. 30.

16. See: Epstein, Irwin (1969) Professionalization and Social Work Activism. Doctoral Dissertation, Unpublished, Columbia University.

17. See: Potter, Sandra (1979) Social Workers, Social Activism, and the Community Mental Health Center. Doctoral Dissertation, Unpublished, Western Michigan University.

18. See: Reeser, Linda (1986) Professionalism and Social Activism. Doctoral Dissertation, Unpublished, Bryne Mawr College.

VIII CONCLUSION

This paper has hopefully shed light on the need for formulating a code of ethics for social workers. Seven major sources were identified to do this task: religion; social work philosophy; experience of social work educators; experience of social workers; codes of ethics for social work in developing countries; codes of ethics for other professionals in Egypt and codes of ethics for social work in developed countries.

Five organizations were identified who could participate in formulating the code of ethics for social work professionals in Egypt: the Social Workers' Union; Faculties and Institutes of Social Work; The Egyptian Association of Social Workers; The Ministry of Social Affairs and other related professional organizations.

It is important to recognise that all of the other Arab countries and the majority of developing countries have not developed a code of ethics. Egypt could further the advance, and the effectiveness of social work in these countries by taking the initiative in formulating a Code of ethics which could serve as a model. As in Egypt, other Arab and developing countries have tended to focus on direct practice issues and pressing social problems with less attention and interest in promoting the other components of social work as a profession. In addition in many such countries the political systems are often unreceptive to the development of strong independent professions which may represent alternative values to the prevailing political ideology.

This paper and the small scale field study has shown that formulating a code of ethics for social work professionals in Egypt is an important area of professional development. The present time is suitable for undertaking further work with a goal of achieving a written code of ethics for social work professionals in Egypt in the near future.

TABLE IV

Organizations Responsible for Formulating the Code of Ethics for Social Work Professionals in Egypt

Organizations	Social Work Educators N = 25		Social Workers N = 26		rs*
	Degree	Rank	Degree	Rank	
Social Workers'Union	84	1	77	1	
Faculties & Institutes of Social Work	66	2	60	3	
The Egyptian Association of Social Workers	50	3	71	2	
Ministry of Social Affairs	31	4	40	4	
Other Related ProfessionalOrganizations (e.g. Ministry of Education)	19	5	12	5	

* The Spearman's Correlation Coefficient = 0.9

TABLE IV indentifies the organization responsible for formulating the code of ethics for social work professionals in Egypt. They are similar to the ones that were suggested earlier in the paper.

The logic behind mentioning "other related professional organizations", such as the Ministry of Education, is that there are many social workers working in these organizations and have become part of the them and even members of these organizations' unions (e.g. many social workers in Egypt are still members in the School Teachers' Union).

The Spearman's correlation coefficient (0.9) shows that the correlation betwen the two groups' ranks is very hign and strong in general. Similarly, from the rough and ready guide to the meaning of correlation [(40)], it is found that this value (rs = 0.9) indicates a very high correlation between the two groups' ranks.

There are some differences between the social work educators and the social workers in ranking these sources. For example, the experience of social workers is ranked 4 by the social work educators, while it is ranked 2 by the social workers. In spite of these differences, the Spearman's correlation coefficient (0.857) shows that the correlation between the two groups' ranks is very high and strong in general. Also, from the rough and ready guide to the meaning of correlation [39], it is found that this value (rs = 0.857) indicates a very high correlation between the two groups' ranks.

TABLE III

The Major Sources for Building the Code of Ethics for Social Work Professionals in Egypt

Major Sources	Social Work Educators N = 25		Social Workers N = 26		rs*
	Degree	Rank	Degree	Rank	
Religions	161	1	176	1	
Social Work Philosophy	116	2	113	3	
Experience of Social Work Educators	111	3	89	4	
Experience of Social Workers	97	4	125	2	
Codes of Ethics for Social Work in Developing Countries	79	5	87	5	
Codes of Ethics for other Professionals in Egypt	70	6	54	7	
Codes of Ethics for Social Work in Developed Countries	66	7	84	6	

* The Spearman's Correlation Coefficient = 0.857

TABLE I also shows that there is no significant difference between the viewpoints of the social work educators and that of the social workers regarding the social work's need for a written code of ethics.

TABLE II

Is the Time Right to Formulate a Written Code of Ethics for Social work Professionals in Egypt?

The Timing	Social Work Educators F	%	Social Workers F	%	x2 (d.f.)	Result
The time is right	24	72.7	23	65.7	1.002 (1)	N.S.
The time is not right	1	3.0	3	8.6		
Not applicable	8	24.2	9	25.7		
	N = 33	100%	N = 35	100%		

TABLE II shows that most of the social work educators (72.7 per cent) and the social workers (65.7 per cent) indicated that the time is right to formulate a written code of ethics for social work professionals in Egypt. The main reasons behind this viewpoint were:

1. Egypt is considered the mother country for all the Arab countries in many aspects. One of these aspects is the social work profession. So, social work in Egypt should take the initiative at the present time in formulating a written code of ethics. So, the other Arab countries can benefit from the Egyptian experience in this matter.

2. Social work in Egypt has focused more on field practice than building its professional components. So, it should make a balance between these two directions, and try to start with building a written code of ethics.

TABLE II also indicates that there is no significant difference between the viewpoint of the social work educators and the social workers in this matter.

TABLE III identifies the major *sources* for formulating a code of ethics for social work professionals in Egypt. They are similar to the sources mentioned earlier in the paper.

TABLE I

Does Social Work in Egypt Need a Written Code of Ethics?

Need for a Code of Ethics	Social Work Educators F	Social Work Educators %	Social Workers F	Social Workers %	x2 (d.f.)	Result
Yes, it needs	25	75.8	26	74.3	0.0196 (1)	N.S.
No, it does not need	8	24.2	9	25.7		
	N = 33	100%	N = 35	100%		

F = Frequency
S = Significant
N.S. = Not Significant
x2 = Chi - Square
d.f. = Degree of Freedom

TABLE I indicates that most of the social work educators (75.8 per cent) and the social workers (74.3 per cent) mentioned that social work in Egypt needs a written code of ethics. Three quarters of the two samples mentioned this for many reasons:

1. A code of ethics is a useful guide to professionals;
2. A code of ethics helps in accountability matters;
3. A code of ethics is one of the main components for the profession;
4. A code of ethics clarifies responsibilities and rights of the professionals;
5. Having a code of ethics will enhance the social work status between the public and other professionals.

While approximately a quarter of the social work educators (24.2 per cent) and the social workers (25.7 per cent) shows that social work in Egypt does not need a written code of ethics. The main reasons for this viewpoint were·

1. It is enough to have a clear philosophy for social work that can play the role of a written code of ethics;
2. Islam is considered from their viewpoint contains rules and regulations that can be considered a written code of ethics not only for social work but also for the other professions and all the society.

most of them (60 per cent) were female. This result is similar to other findings from many social work research studies which have been carried out in Egypt showing that the number of female social workers is slightly more than male social workers [33].

Similar results have been found from studies in other countries (e.g. the UK, the USA, Sweden, some of the Arab countries) which indicate that women are still a slightly greater proportion of the staffing of the social work profession than men [34]. The mean age for the social workers was 39 years and the minimum and maximum age were 30-55 years respectively.

The majority of the social workers in the sample (86 per cent) were working in statutory agencies and 14 per cent in voluntary social services associations or societies. Most of the social workers in the sample (69 per cent) were working in host or secondary settings for social work (e.g. schools, hospitals), while 31 per cent were working in primary or basic social work settings (e.g. social affairs units, social care societies in the fields like, child and family care and handicapped care).

The practice fields for the social workers in the sample were varied. For example, 46 per cent of the social workers were working in the educational field (i.e. in schools and universities); 17.1 per cent in the social affairs field, 8.6 per cent in mental health field, 5.7 per cent in family and child care field.

Approximately two thirds of social workers in the sample (62.9 per cent) considered casework as a main practice method in their daily work. Similar results are found in many social work research studies in Egypt [35] [36] [37].

Furthermore, this pattern is also found in many social work research studies in the exporting countries (e.g. the USA and UK) and the importing countries for social work (e.g. The Arab countries including Egypt) [38].

the aim of the study and the importance of each individual participation in this research.

3. Data Collection

The two questionnaires were distributed to 40 social work educators and 50 professional social workers in their workplaces by hand, asking them to cooperate with the researcher. After one week, the two questionnaires were collected by the researcher from most of them. A follow-up reminder was employed by asking them to reply to the questionnaire. After another week, the researcher received some other replies.

The total number of respondents were 33 social work educators, approximately 83 per cent response rate, and 35 social workers, approximately 70 per cent response rate.

Babbie rated a fifty per cent response rate as adequate for data analysis, a sixty per cent rate as good, and a rate of seventy per cent as very good [(32)].

The data were collected by the author during December 1990 and January 1991.

4. Analysis

A handsorting of some answeres has been done. Also, the SPSS/PC+ (Statistical Package for the Social Sciences) Batch/System was used with some answers, using the computer set at the Faculty of Social Work, Helwan University, Cairo.

5. Results

Seventy nine per cent of the social work educators were male and twenty one were female. The mean age for the social work educators was 43 years and the minimum and maximum age were 32-70 years respectively. It was found that 27.3 per cent of the social work educators were specialized in Casework Method; 21.2 per cent in Groupwork Method; 27.3 per cent in Community Organization Method (Community Social Work); and 24.2 per cent in Social Planning.

With respect to the social workers' sample, it was found that

of ethics for social work professionals in Egypt. The paper presents some details of this field study and its results.

RESEARCH METHODOLOGY

Research Population: Research population consisted of two groups:

a. All the social work educators at the Faculty of Social Work, Helwan University, in Cairo, in all the following departments:

   Social Casework (80); Social Groupwork (60); Community Organization (9); Social Planning (8); and Social Work Fields & Field Training (20), (51 educators in the School Year 1990/1991).

b. All the professional social workers responsible for field placements in Cairo and Giza for the social work students at the same Faculty (200 professional social workers in the school year 1990/1991).

1. Samples

a. A stratified simple random sample of 33 social work educators was taken. It represents 64.7 per cent from the population.
b. A simple random sample of 35 was taken. It represents 17.5 per cent from the population.

2. Data Collection Tools

Two self-administrated semi-structured questionnaires were developed to collect the required data from the two samples. The two questionnaires are identical except for the professional questions.

The first questionnaire includes 13 questions and grouped within two sections. The second questionnaire includes 15 questions and also grouped within two sections. The first section in the two questionnaires included some questions on the personal and professional characteristics. the second section in the two questionnaires included some questions about the perceptions, views and opinions of the two samples concerning the idea of formulating a written code of ethics for social work professionals in Egypt. A covering letter was included with the two questionnaires, explaining

(1984). This Code does not include any political reference at all, it just mentions that residents possibly should have access to advocacy [30].

Clark and Asquith state that "the B.A.S.W. Code of Ethics are not translated into any clear or complete statement of rights and duties, indeed the code seems to have much more to say about professionals' rights than clients. Social workers' ethical code seem, then, to suffer from a deep-seated ambiguity, or perhaps lack of clarity. It also suffers from difficulties of application which are ultimately crippling"

VII. THE FIELD WORK AND STUDY

a. The Field Work

According to what the author has suggested in the paper about the main responsibility of "the Social Workers' Union" in Egypt in formulating a code of ethics for social work professionals. Contacts were made with the Union to present the topic, open the debate, promote the interest, and conceive the importance of having a written code of ethics for social work professionals in Egypt.

On the 30th December 1989, a meeting for the Union was held to discuss the idea. The Union's board has agreed to take positive action to start formulating the code. A committee comprising of the Head of the Union, two Union members and the author, has been formed to receive comments from social work educators and social workers, clients, the relevant professional workers and all the concerned bodies.

Also, the author made an Arabic translation to the mentioned codes in the paper to make them available to the Committee. The next step for the Committee will be getting copies of the codes of ethics for social workers in other developing countries (such as: India, Pakistan, Brazil). The main target of the Committee is to put a tentative code of ethics for social work professionals in Egypt.

b. The field Study

The researcher carried out a small scale survey among social work educators and social workers to ascertain their views on formulating a code

(e.g. statutory social service agencies, voluntary social service associations). The proposals derived from these organizations and individuals should find their way into the code.

A final comment in this section, is that there are two anticipated principal challenges which might face the process of constructing a code of ethics for social workers. Firstly, the wide range of social services settings and clients, and secondly, the need to address more than one audience in the same document.

But it can be said that the code should reflect the common elements (e.g. values, principles) as well as the shared needs and rights for both clients and social work professionals. The code also, should offer guidance where it is felt to be necessary. In other words, it should avoid a detailed prescriptive approach.

VI. SOME COMMENTS ON THE AMERICAN AND BRITISH CODE OF ETHICS FOR SOCIAL WORKERS:

The author would like to suggest that in this task we should learn from the experience of other countries and benefit from the criticism which other attempts to create a code of ethics have provoked. The following observations are made concerning the codes of ethics for social workers in the USA and the UK.

1. The two codes in some paragraphs are highly abstract and are not clear enough to understand and apply;
2. The two codes are not helpful enough for social workers in the conflict situations or in the area of conflicting loyalities such as when the client's intersts conflict with the agency's interests or when the social workers' professional responsibilities conflict with his/her responsibilities to the agency; and
3. The two codes of ethics do not clarify the political dimension of the social work profession, and in most of their statements do not consider social work as a political activity. In other words, there are very few words in the two codes about the political commitment and involvement of social workers. A similar criticism is found in the Code of Practice for Residential Care in the UK

Returning to Egypt, in practical terms, a common committee representative of the Social Workers' Union, Faculties and Institutes of Social Work and the Ministry of Social Affairs and Social Insurance, should be created to organize these efforts, and to encourage research in this subject as well as to bring together social workers and social work educators and others interested in pursing this task.

In other words, all the social work professional organizations should cooperate and organize studies, meetings and discussions designed to develop this code of ethics. Furthermore, they should seek to calrify the nature of social work practice in Egypt in both urban and rural areas. This committee should open clear and easy channels of communication between itself and the other interested bodies mentioned to record their viewpoints.

Six major sources can be identified as contributing to the building of the code of ethics for social work professionals in Egypt as follows:

First, *Islam* as a religion organizes the life and guides the interaction between people in society. It also provides a rich source for the consideration of values and ethical principles.

Second, the *Experience and Viewpoints* of social work educators and social workers in Egypt.

Third, the *Code of Ethics for Social Workers in Other Countries* (e.g. in the USA and the UK) [27].

Fourth, the Code of Ethics of Development Practitioners (1979) [28]. This code can be considered useful in matters related to social work practice and development projects.

Fifth, the *Code of Ethics for the Members of the American Association for Public Opinion Research* (1977) [29]. This code can be considered useful in such matters related to social work research in ethical and practices terms and responsibilities.

Last but not least, the *Codes of Ethics for Other Professionals* (e.g. doctors, lawyers) in Egypt.

It is hoped that initially the committee will formulate a tentative code of ethics based on other codes and other relevant sources. Secondly, receive comment from social work educators, social workers, clients, the relevant professional workers and all the concerned bodies

Brazil and Chile). In other words, the reality of living in an increasingly integrated world system means that imported social work cannot be excluded by the developing countries, like Egypt.

In sum, all the following steps for formulating a code of ethics should recognize and be sensitive to the definition of social problems, religious and social attitudes and the institutional context of soical work in Egypt. But they should also take into account similar experience elsewhere. So, incorporating principles of authentization and indigenization in the process of formulating a code of ethics for social work professionals in Egypt seems to be on the right track; the experience and needs of Egypt are the primary focus but relevant experience from other countries should be drawn on.

Constructing a code of ethics for any activity is a difficult intellectual but worthwhile task. For example, a great responsibilitiy should lie on the shoulders of "the Social Workers' Union" to formulate a code of ethics for social work professionals in Egypt. this responsibility arises from the major objective of the Union as declared in 1973 as: "To organize all aspects of the social work profession and encourage research" [(26)].

Also, because it is commonly understood that the construction of a code of ethics is a mian responsibility or function for unions. The creation of a code of ethics is not only an important task but it also has the effect of helping to bring about unity among its members, binding them together in the observance of its code.

Faculties and Institutes of social work should participate in this process. Social work educators and practitioners can work together to carry out this task, thus uniting academic and practioners in the same profession.

The views of the two groups in this process should be reported in a systematic way. Studies should be carried out either by the Union or by social work researchers in Faculties and Institutes of Social Work on this subject.

All other interested individuals, groups and organizations in this task (e.g. clients, other professionals like teachers and managers) should be invited to express their own views about the code.

V. HOW TO FORMULATE A CODE OF ETHICS FOR SOCIAL WORKERS IN EGYPT?

There has been along standing issue in the professional literature about whether social work is a universal profession which has common values, common basic assumptions, and similar methods of operation in all human societies, or whether it is a particularistic unique profession which derives its values, aims and methods of operation from the traditions, social and political structure, and the historical background of various kinds in each and every society.

We know that social work has developed in the west as a culturally responsive system of human service. However, western models of social work have been transplanted to many developing countries of the world (e.g. Egypt, Kuwait, Saudi Arabia, Nigeria, Brazil, Hong Kong). Much concern has been expressed about the inadequacy of the western social work to serve the culturally different countries. [24][25].

It can be said that Egypt passed through three main phases or stages in the development of social welfare and social work. They are: the transmission, the indigenization * and the authentization **. At the present, social work in Egypt is focusing its efforts on establishing the authentization of social work rather than concentrating on the transmission and indigenization of theory and practice derived from western sources.

The author is concerned largely with the authentization of social work. But even so there is indigenization of some aspects of imported social work, which benefits the importing country. Because social work in the importing countries should not close the door and exclude contact with social work in other countries, either exporting (such as the USA and the UK) or importing (such as India, Pakistan, Tanzania,

* The authentization of social work means the process of creation or building of a domestic model of social work in the light of the social, cultural, political and economic characteristics of a particular country.

** The indigenization of social work means "appropriateness, which means professional social work roles must be appropriate to the needs of different countries and social work education must be appropriate to the demands of social work practice". [42]

argue that social work in Egypt is still young compared to other social science disciplines and has yet to establish itself as an accepted profession. While, it is possible to put forward these views, they may be criticised on the grounds thus:

1. Islam can provide a framework for the social work practice and education. Islam can also be considered as providing a Code of Ethics not only for social workers but also for all the other professionals and even for the whole society. But, the Qur'an gives a general illustration and formulates or puts values, principles, responsibilities and rights in a general way to be applicable for all kinds and sectors of people and societies as well as for all times. Consequently, we still need to formulate more specific values, principles, responsibilities and rights relevant and related closely to the social work profession and it is suggested that in Egypt we may benefit from the guidance of Islam in the process of constructing a code of ethics for social work.
2. I would suggest that now is the right time to formulate a code of ethics for social work in Egypt. The purpose of doing this will continue to the organization of the profession and enhance the professional status of social work with the public and other professions.
3. Egypt is not a stranger to codes of ethics. For example, doctors and lawyers established their code of ethics in the 1960's. Furthermore , doctors in Egypt adopt the International Code of Medical Ethics, which was established by the Declaration of Geneva, amended to its present form at the World Medical Association Assembly in 1968. However, the Egyptian moral and legal codes are very short and do not give a sufficient guide to practice on complex moral areas.

At the present time journalists and media professionals in the Islamic countries (including Egypt and all the other Arab countries) have established a committee from Egypt and Oman to formulate a code of ethics.

IV. DOES THE SOCIAL WORK PROFESSION IN EGYPT NEED A CODE OF ETHICS?

Generally speaking, it can be said that there are two main arguments in this dispute point. The first argues that the social work profession in every country has an obligation to evolve a code of ethics for itself. This code may increase the community acceptance for social workers. Also, the code may work as a symbol that professional judgement is a more reliable guide to action in its own particular sphere than the judgement of either lay people or administrators [21].

The second argument raises the following questions: Is the purpose of code of ethics to protect the client or the profession? Sissel Seim in her article about "Rules of Ethics in Social Work" concludes that the profession should not have a professional code of ethical rules [22]. She considers that these rules do not function best in the interest of the profession. However, Sissel says, there is a need for an exhaustive discussion on the question of a professional code and for measures that may give the client greater influence [23].

Returning to the case of Egypt the question is: do social workers in Egypt need a code of ethics? The answer is yes. I have already demonstrated the importance of having a code of ethics and being it as an essential structural unit for every profession. Furthermore, having a code of ethics for social workers will *enhance the social work profession status*, with the public and other professions. Nevertheless, some social workers may disagree. Their viewpoint is based on the Islamic faith which imposes not merely a religious doctrine but a legal and moral code, a social system, and culture as well. They would argue that Islam provides them with values and determines responsibilities and rights for all citizens in society, including social workers *. Others may argue that the timing is not appropriate for the construction of a code of ethics for the social work profession in Egypt. They would

* See for example the following article which clarifying the agreement, contrasts and conflictive points between social work and Religion: Midgley & Sanzenbach [41].

social workers in these countries.

As we have seen, professional social work in Egypt was established in the thirties, and has two Faculties and several Institutes and Schools of Social Work in Cairo (the capital) and in upper and lower Egypt and is widespread in many governorates. These two Faculties provide not only under-graduate courses, but also post-graduate programmes *.

In addition, social workers established their Union in 1973. Furthermore, Egypt occupies a significant place within social work education and practice within the Arab and some African countries.

For example, many of its trained staff work in other Arab countries.

The question now is that in spite of all these developments, why does social work in Egypt not have a written code of ethics? This may be due to a number of explanations, for example:

a. There is still some ambiguity and confusion about its won identity and its position vis-à-vis, other professionals and the public;
b. social work in Egypt has focused more on field practice than building its professional identity. In other terms, social workers in Egypt are more busy in their professionalization and scienceing social work .
c. its professional organizations (e.g. the Social Workers' Union) are still weak. This is due to many factors such as: many social workers do not belong to the Union, others joined the School Teachers' Union and even of those who are members few are very active. Consequently, the Union is handicapped in fulfilling its role by lack of resources and the action support of its members.
d. the covert conflict or factionalism between social work professionals and theoretical sociologists.

* The Faculty of Social Work, Helwan University, Cairo, established in 1946, the Faculty of Social Work, Cairo University, Fayum established in 1985.

4. licensing;
5. community;
6. authority; and
7. altruistic service [16] [17] [18].

Talcott Parsons argued in his "Social Systems Theory" that every system, organization and profession should have structural units to practice or perform its functions and roles. Having a professional association and code of ethics are two examples for these structural units [19]. In sum, either a code of ethics is a component or a part of the value base or a trait for professionalization or a structural unit, it is important for any professionals.

This is because it serves as a guide in their daily professional lives by making explicit the standards of behaviour to be followed by professionals in the exercise of their professional tasks.

A code of ethics for social workers is useful. It may realize the following functions:

1. providing guidance to social workers on how to approach judgements about professional intervention;
2. serving as a set of rules prescribing for social workers how they should conduct themselves in helping and caring for clients;
3. "specifying the ethical responsibilities of all social workers regarding professional conduct and competence as well as relationships with clients, colleagues, employers, the profession and the society" [20];
4. embodying an ideal of service which legitimates certain professional powers and privileges, and
5. in calling to account members who are alleged to have acted unprofessionally.

III. WHY SOCIAL WORK IN EGYPT HAS NOT DEVELOPED A WRITTEN CODE OF ETHICS AS YET?

With respect to the majority of developing countries and all the Arab countries, including Egypt, there are no written codes of ethics for

It can be said that the first professional code of ethics was formulated by the British Medical Association in 1858. The British Government established the General Medical Council under the Medical Act. The Principle of the Act was expressed in the words: "It is expedient that persons requiring medical aid should be able to distinguish qualified from unqualified practitioners". It did not prohibit unqualified practitioners in medicine but any person falsely representing himself as a qualified practitioner could be fined [9].

As we have seen from this statement the main aim of created and published formal codes of ethics was and still is to protect clients from any unacceptable behaviour by practiitioners.

Similarly, the first Code of Ethics for social workers was that of the Code of the American Social Workers, adopted by the National Association of Social Workers (N.A.S.W.) in the U.S.A. in 1960 [10].

e. The Importance of Code of Ethics:

Generally speaking, a written Code of Ethics is considered by some writers as a crucial component of any profession. For example, Greenwood [11] [12] and Johnson see the main components for social work profession as follows: 1 - Values; 2 - Purposes; 3 - Knowledge; 4 - Methods; 5 - Code of Ethics; 6 - Sanction [13].

Others see a Code of Ethics as a major part of the value base for any profession [14] [15] *. This is because codes of ethics reflect the values of a profession such as: worth, dignity and respect of the individuals.

Professionalization can be defined as the process by which occupation attain characteristics or traits assumed to be possessed by the traditional professions (e.g. medicine, law). Those traits generally cited as integral to professionalization include:

1. a systematic body of knowledge;
2. an advanced education;
3. *a code of ethics*;

* The foundations of any profession are: the value base, the skills base and the knowledge base.

moral behaviours, and system of signals [2].

b. Meaning of Ethics:

Ethics "deals with questions of moral goodness or evil and with the proper standards for human action" [3].

The Oxford Dictionary also refers to ethics as set of moral principles or relating to morals [4].

Ethics simply refers to what is *right* and what is *wrong*. Ethics is a social phenomena and can be understood as a set of rules and regulations for behaviour.

c. Meaning of Code of Ethics:

McKinlay defines a code of ethics as a means "to serve as public evidence or professional intentions and ideals as to provide actual behavioural guidelines for practitioners" [5]. Huw Richards defines a code of ethics as " a useful guide to the responsibilities, and rights of the professionals" [6].

David Watson observes that "code of ethics is useful if it makes explicit the ends and means to which practitioners are committed" [7]. Last but not least, "a code of ethics speaks to the common base of characteristics, values and competencies binding all members of a profession" [8].

It can be said that a code of ethics is a framework of values, principles, responsibilities and rights. In other words, it claims to identify *what social work is about*, and what *social workers should do*, shapes the understanding of what kind of decisions should be made within social work and what the nature of those decisions are. It is like a guide to help the professional person to perform his/her professional roles in an explicit and clear way in most of his/her practice. Finally, a professional code of ethics tends to be more systematic, binding and service oriented.

d. Code of Ethics, Development

Most of the professional associations have created and published formal codes of ethics and cȯnduct, describing what is considered acceptable and unacceptable professional behaviour.

written code of ethics for social workers in Egypt, or in any of the Arab countries and the majority of developing countries. Also, there is not enough interest and effort focussed on this matter from the profession in Egypt.

The main purpose of this paper is to clarify the importance of having a written code of ethics for social work professionals in Egypt, and to examine the reason why they have not developed a written code as yet? The paper also discusses how to formulate it with special reference to the issue of indigenization and authentization of social work in Egypt. Hopefully this paper will:

a. encourage social work professionals either in Faculties and Institutes of social work or in practice to interst themselves in formulating a written code of ethics for the social work profession in Egypt.
b. open the debate or discussion about how to build up this code of ethics and implement it.

The paper consists of four sections. Section one gives the definition, development and importance of code of ethics. Section two tries to answer the following questions: does the social work professionals in Egypt need a written code of ethics? Section three suggests how to formulate a code of ethics for social work professionals in Egypt? The last section presents the action that has been taken by the author in this respect and some empirical data on the topic, based on a field study carried out by the author. The aim of this field study was to ascertain the views of two samples one from social work educators and the other from professional social workers in Cairo and Giza in 1991.

II. CODE OF ETHICS; THE DEFINITION, DEVELOPMENT AND IMPORTANCE

a. Meaning of Code:

Code is a set symbol and rules for expressing information, or a system of legal rules created by a single enactment [1].

The Oxford Dictionary also referes to code as a systematic set of laws, etc. prevalent morality of a society of class, person's standard of

TOWARDS A WRITTEN CODE OF ETHICS FOR SOCIAL WORK PROFESSIONALS IN EGYPT

Medhat Abo-El-Nasr *

While professional social work in Egypt has a long history since the thirties, there is no written code of ethics for social work professionals either in Egypt, or in any of the Arab countries and the majority of developing countries.

Unfortunately, until now there has not been enough interest and effort focussed on this matter in Egypt or the other Arab countries. The paper argues the need for a written code of ethics for social work professionals and outlines how to formulate this code.

The paper also presents what has been done by the author in this matter and the results of a field study carried out by the author in 1991. The aim was to ascertain the views of social work educators and social workers in formulating a written code of ethics for social work professionals in Egypt.

1. INTRODUCTION

The development of a code of ethics is an essential component of the professionalisation process and the conferment of honorific status. All the major professions: law, medicine, pharmacy - justify themselves as proper self-regulating bodies by rules of proper conduct (and discipline for improper conduct). In the West, this is also true of social workers, financial services staff, and many other groups. Even the police - quite apart from the discipline code - have quality of service mission statements which contain ethical criteria on which they agree to be judged.

In spite of the importance of having code of ethics, there is no

* Lecturer at the Faculty of Social Work, Helwan University, Cairo, Egypt.

The National Review of Social Sciences, Volume 30, Number 1, January 1993.

THE NATIONAL REVIEW OF SOCIAL SCIENCES

Volume 30 Number 1 January 1993

The National Review of Social Sciences

Issued by

The National Center for Social and Criminological Research

Zamalek P.O., Cairo, Egypt
P.C. 11561

Correspondence:
Assistant Editor, The National Review of Social Sciences,
The National Center for Social & Criminological Research ,
Zamalek P.O., Cairo, Egypt
P.C. 11561

Price :
US $ 10 per issue



The National Review of Social Sciences

Volume 30 Number 1 January 1993

Issued by
The National Center for Social and Criminological Research, Cairo